العالم الإسلامي والغزو المغولي

أعدها

إسماعيل عبد العزيز الخالدي

بإشراف الدكتورين

أحمد محمد العسال و عبد الستار فتح الله سعيد

الأستاذين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكتبة الفلاح - الكويت

العالم الإسلامي والغزو المغولي

بسم الله الرحمن الرحیم

الطبعة الاولى

١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

مكتبة الفلاح - الكويت

شارع بيروت مقابل بريد حولي

ص . ب ٤٨٤٨ تلفون : ٢٥٤٧٧٨٤

برقياً : لغاتكو

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أَنفسنا وسيئات أَعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له ، وأَشهد أَن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الحمد الجميل والثناء الحسن ، سبحانه لا نحصي ثناء عليه . اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وأَنت إذا شئت تجعل الحَزْنَ سهلا ، وأَشهد أَن محمدا عبدالله ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، اللهم صل عليه وعلى آله وأَصحابه ومن سار على نهجه واتبع سنته إلى يوم الدين وبعد .

فقد أخرجنا الله تعالى بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وجعلنا به خير أُمة أُخرجت للناس ، وأَدال لهذه الأُمة الدول والشعوب ، وأَظهر دينه وأَعز جنده ، وهزم الأَحزاب وحده . ثم دب الى امتنا داء الأُمم من قبلها ففرطت في جنب الله ، وانحرفت عن صراطه المستقيم ، فاضطربت حالها وتكاثر عليها الأعداء فأذاقوها مُرَّ العذاب .

وفي كل مرة كانت أُمتنا تستفيق تحت مطارق المحن ، وتعرف خطأها وداءها ، فتعود إلى دينها وكتاب ربها ، وتكون مصداقا عمليا لقول عمر بن الخطاب رضّي الله عنه : « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله . »

وقد حاول أعداء الإسلام فصل تاريخ هذه الأُمة عن دينها ، وتشويه ذلك التاريخ بجعله سردا لأحداث مضت بعيداً عن الإسلام وتأثيره سلباً وايجاباً . حتى يزهد أبناؤنا في الدواء الذي تعودت هذه الأمة أن تعود إليه كلما اعتل أمرها وساءت أحوالها .

واليوم نرى أُمتنا وقد ذاقت أنواع البلايا والهموم على أيدي شياطين الإنس الذين قادوها الى القومية التي تحارب الإسلام ، وإلى الإلحاد والزندقة والإنحلال والخلاعة ، بقيادة الغرب تارة ، وقيادة الشرق الملحد أُخرى فما جنت إلا الضياع والخسران ، والذل والهوان ، فوقفت حائرة تنظر حولها علّها تجد القيادة الراشدة ، التي تقدوها الى جادة الطريق .

وقد سألت نفسي ، هل مر في تاريخ أُمتنا هوان وذلة وضياع مثل هذا الذي تعيشه الآن .

هل استأسدت على أُمتنا شرذمة صغيرة ، متفرقة ضائعة فـأذلتها إذلالاً لم تذقه أُمة من الأُمم ؟! وما سبب ذلك ؟! وما هي بواعثه الحقيقية ؟ هل لقلة المال ؟ ولدينا منه الكثير بفضل الله ، هل لقلة العدد ؟ ونحن نملأ السهل والجبل عددا وعدة .

وهل بقي ـ بعد هذا الذل والهوان ، والجبن والضياع ـ أمل بأن نعود ثانية سادة للعالم الذي يحكمه قانون الغاب ؟ فنعيـد العدل والنور للدنيا المتصارعة ، وللبشرية العانية .

عدت إلى التاريخ استنطق صفحاته لنأخذ منها العظة والعبرة والتاريخ يعيد نفسه ـ كما يقولون ـ فوجدت تاريخ أُمتنا الطويل مملوءاً بمثل هذه الأحوال .

نسيت أُمتنا ربها ، وانطلقت وراء الشيطان تشبع غرائزها وشهواتها من حب

الجاه والسلطان ، وحب المال والنساء ، وحب الدنيا والاقبال عليها ، وكانت النتيجة أَن جاءت أُوربا بجيوشها الجرارة ، وشنت علينا حربا صليبية تجلت فيها أَحقاد الغرب وهمجيته ، كعادة الغرب ، وذبحت من هذه الأُمة أَعدادا هائلة حتى لقد خاضت خيولهم في دماء المسلمين إلى ركبها .

وماذا كان العلاج ؟ كان العلاج العودة إلى الله وطاعته . لقد بعث الله للمسلمين قادة أَتقياء مثل « عماد الدين زنكي » الذي فتح المدارس الإسلامية في طول البلاد وعرضها ، يعلم الناس الإسلام الصحيح ، ويعيدهم إلى الطريق القويم ، وجاء بعده الرجل الصالح « نور الدين محمود » فسار على نهجه ، وكان مثال الحاكم المؤمن الجاد ، الذي يبني بصمت وحزم وكان دائما عابس الوجه ، ولما سأَله أَحد أَصحابه عن سبب عبوسه قال : « والله إني لأستحي من الله أَن أَضحك والأَقصى أَسير في أَيدي الأَعداء » .

ثم جاء « صلاح الدين » فوحد الأُمة ، وسار بها في الطريق الذي رسمه الله لعباده المخلصين ، فكان النصر المؤزر في موقعة « حطين » التي أَعادت للمسلمين كرامتهم وعزتهم ، وقهرت أَعداء دينهم .

ثم عادت عوامل الفرقة والفساد ـ التي كانت لا تزال موجودة في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي ـ عادت هذه العوامل وانتشرت في كل مكان ، وقامت في الشام ـ على سبيل المثال ـ خمس عشرة دولة ، واندلعت بينها الحروب والمنازعات حتى لقد استعان بعضهم بالأَعداء ! !

وقامت طوائف العسكر تتسلط على الخلافة بكل قسوة وجبروت ، لا تعرف رأفة ولا رحمة ، ولا تخاف قانونا ولا ربا ، فطغت ، وتجبرت كعادة العسكر في كل زمان ومكان ، تعلن عن الإصلاحات الجبارة وهي تقضي على عوامل الصلاح ، تحطم سلاح الأُمة وهي تدعي أَنها تسلح الأُمة ، تستسلم للأَعداء وهي تدعي

النصر عليهم ، وعندما جاء الخطر رأينا أُولئك الذين كانوا يستأسدون على شعوبهم رأيناهم رعاديد جبناء لم يصمدوا للأعداء في معركة واحدة .

رأينا الموبقات تنتشر بكل أنواعهـا في جميع البـلاد الإسلاميـة ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، عرفوا الله وعصوه فسلط عليهم من لا يعرفه .

زحف المغول ـ في ظروف كهذه ـ على بلد إسلامي فذبحوا من أهله العدد الذي يريدون ، ثم اقتسموا الباقي ، فكم من سيد أصبح ـ بين يوم وليلة ـ عبداً لجندي جلف من جنود المغول ، بينما أُخذت زوجته أَمَةً لسيد آخر ، وهكذا وجدنا الذين كانوا يتعالون على الله ، ويتحدونه بمخالفة أمره نجدهم وقد دميت آذانهم في أيدي النخاسين يباعون في أسواق النخاسة .

ثم بعث الله لهذه الأُمة رجالا نصحوا لها واتبعوا سبيل الرشاد فدخلوا معركة « عين جالوت » فانتصروا نصراً مبينا .

أي دعوة أبلغ من نقل هذه الصورة التاريخية أمام أعين أُمتنا لتعتبر ؟ ولنا في القرآن خير أُسوة حين سلك نفس الطريق فساق لنا القصص البليغ ، ورسم لنا الصور الواضحة لنهايـة الضالـين المكذبـين ، الذين يتـركون شـرع الله وأوامره ويقترفون الآثام ، ويغوصون في الموبقات ، لنعتبر ونتدبر ، قال تعالى في ختام قصة يوسف : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[1] .

وقال تعالى في ختام سورة هود تعقيبا على قصص السابقين : ﴿ **وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾[2]

---

(١) سورة يوسف آية ١١١ .

(٢) سورة هود آية ١٢٠ .

ومن هنا اخترت هذا البحث ، ولم أَقصد فيه إلى السرد التاريخي المجرد وإنما أردت عبرة الحاضر من وقائع الماضي ، وابراز ضرورة الدعوة الإسلامية اليوم ، كضرورتها بالأمس بل أشد لكثرة الأعداء من حولنا . وقد سميت هذا البحث :ـ

« العالم الإسلامي والغزو المغولي في القرنين السابع والثامن الهجريين » . وقسمته الى تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمةَ .

أما التمهيد فتحدثت فيه عن « المغول » وموطنهم الأَصلي ، والقبائل التي يتكونون منها ، وعن حياة المغول الإجتماعية والدينية والسياسية والعسكرية لأُلقي الضوء على تأَثير بيئتهم على سلوكهم ومعاملاتهم .

وأَما الباب الأول : وعنوانه : « المسلمون في مواجهة المغول » فقد قسمته إلى فصلين :

الفصل الأول : بعنوان « أَحوال المسلمين قبل الغزو المغولي » تحدثت فيه عن أَحوال المسلمين قبل الغزو المغولي ، وقد قسمته إلى أَربعة مباحث :

المبحث الأول : تحدثت فيه عن العلاقات بين القوى الإسلامية في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي وما قام بينهم من خلاف وحروب قبل الغزو المغولي .

والمبحث الثاني : تحدثت فيه عن العلاقات بين الأيوبيين الذين ورثوا مملكة « صلاح الدين الايوبي » والخلافات التي قامت بينهم .

والمبحث الثالث : تكلمت فيه عن الخلافات المذهبية وأثرها في إضعاف المسلمين .

والمبحث الرابع : وتحدثت فيه عن انتشار الموبقات في المسلمين ، وتشجيع أعداء الإسلام لذلك ، وأثر هذه الموبقات في انهيار المسلمين أمام الغزو المغولي

حين دهمهم .

الفصل الثاني : وعنوانه « هجوم المغول على المسلمين »
وقد قسمته إلى أربعة مباحث :

المبحث الأول : تحدثت فيه عن حروب المغول مع الدولة الخوارزمية وانهيارها أمامهم .

المبحث الثاني : خصصته للحديث عن قضاء المغول على الطائفة الإسماعيلية .

المبحث الثالث : تحدثت فيه عن سقوط الخلافة العباسية والأثر البالغ لذلك في نفوس المسلمين .

المبحث الرابع : وخصصته للحديث عن حروب المغول في بلاد الشام وعن صحوة المسلمين ، ودعوتهم إلى طريق الله قيادة وشعبا ، ثم انتصارهم في معركة « عين جالوت » ثم استقرار المغول في بعض البلاد الإسلامية .

الباب الثاني وعنوانه « الدعوة الإسلامية » .

وقسمته إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : وعنوانه « تعريف الدعوة ونشأتها وامتدادها .

وقد قسمته إلى مبحثين :

الفصل الأول : وعنوانه « تعريف الدعوة ونشأتها وامتدادها » .

وقد قسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول : عن تعريف الدعوة .

المبحث الثاني : عن نشأة الدعوة وامتدادها .

الفصل الثاني : وعنوانه « خصائص الدعوة الإسلامية »
وقد قسمته إلى خمسة مباحث :

المبحث الأول : وتحدثت فيه عن الإسلام باعتباره دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

والمبحث الثاني : خصصته للحديث عن الإسلام دين الحرية والمساواة .

والمبحث الثالث : جعلته للحديث عن عالمية الدعوة الإسلامية .

والمبحث الرابع : عن الإسلام دين العقل والفكر .

والمبحث الخامس : عن الإسلام دين الشمول .

الفصل الثالث : وعنوانه « أَساليب الدعوة الإسلامية ووسائلها » .
وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث :
المبحث الأَول : عن تعريف الأُسلوب والوسيلة والفرق بينهما .

والمبحث الثاني : وتحدثت فيه عن أَساليب الدعوة الإسلامية ؛ تحديد الداء والدواء ، إزالة الشبهات ، الترغيب والترهيب .

المبحث الثالث : وخصصته للحديث عن وسائل الدعوة الإسلامية ؛ القرآن الكريم ، السنة النبوية ، الداعية .

الفصل الرابع : وعنوانه « الدعوة الإسلامية والجهاد » .

وقد تحدثت فيه عن الجهاد في الإسلام ، وكيف فرض على المسلمين ومتى يكون الجهاد واجبا على المسلمين ؟ وذلك لأُبين منزلة الجهاد من الدعوة ، وأَن الإسلام لم ينتشر بالقوة والبطش كما ادعى المرجفون .

الباب الثالث : وعنوانه « المغول يدخلون الإسلام »
وقد قسمته إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : « عداء المغول والنصارى للاسلام »

مهدت له بكلمة عن العلاقات العدائية التي قامت بين المغول وأوربا وكيف واجهت أوروبا ذلك ، وقد قسمته الى مبحثين :

المبحث الأول : وتحدثت فيه عن محاولات تنصير المغول وتسليطهم على المسلمين .

والمبحث الثاني : تحدثت فيه عن اضطهاد المغول للمسلمين .

الفصل الثاني : وعنوانه « توجيه الدعوة الإسلامية إلى المغول » .

فقد خصصته للحديث عن توجيه الدعوة الإسلامية إلى المغول ، وقسمته إلى خمسة مباحث .

المبحث الأول : تحدثت فيه عن الذين حملوا الدعوة الإسلامية إلى المغول .

المبحث الثاني : وتحدثت فيه عن انتشار الإسلام بين المغول القبجاق (القبيلة الذهبية) .

والمبحث الثالث : تحدثت فيه عن أعمال ملوك قبيلة القبجاق لخدمة الدعوة الإسلامية ، بركه خان ، منكوتمر ، محمد أُزبك .

المبحث الرابع : وتحدثت فيه عن انتشار الإسلام بين المغول الجغتائيين .

المبحث الخامس : وخصصته للحديث عن انتشار الإسلام بين ايلخانات (ملوك) فارس (مغول إيران) والملوك الذين أسلموا منهم ، وما قدموه للدعوة

الإسلامية مثل : أحمد تكودار ، محمود غازان ، ومحمد خدابنده (أولجايتو) .

الفصل الثالث : وعنوانه « المغول يحملون الإسلام لمن حولهم » .

وقد رأيت إثبات هذا الفصل لأنه امتداد لموضوع الرسالة وأن كان خارجا عن الفترة الزمنية التي حددتها لرسالتي ، لأن أحداث التاريخ لا تتجزأ في واقع الأمر ، وإنما هي حلقات متتابعة متماسكة يؤثر بعضها في بعض ، والتجزئة عمل دراسي قصد به حصر الموضوع فقط ، وقد قسمت هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : تحدثت فيه عن حمل المغول للدعوة الإسلامية في جنوب روسيا وشرق أوروبا ، وسيبيريا .

والمبحث الثاني : وقد خصصته للحديث عن أثر المغول على الإسلام والمسلمين في الصين والهند .

وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها ملخص الرسالة والنتائج والمقترحات المتصلة بها وقد أرفقت ببحثي جملة من الخرائط الجغرافية الموضحة للبلدان والأماكن ، والخرائط الموضحة للأنساب والقبائل ، زيادة في ربط أحداث الرسالة بمواقعها .

وكذلك ختمت الرسالة بجملة من الفهارس للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي مرت في صفحات الرسالة ، وفهارس الأعلام ، والأماكن ، والبلدان ، والقبائل والعشائر والخرائط ، والأنساب ، والمراجع والمصادر .

هذا وقد واجهت في بحثي مشاكل عديدة حاولت التغلب عليها قدر إستطاعتي منها :

أولاً : أن المغول كانوا أُمة بدوية لا تعرف الكتابة ، وقد بقيت على ذلك ردحا من الزمن ، جعلت تاريخهم في تلك الفترة مجهولا الى حد كبير .

ثانيا : إن أكثر الذين أرخوا للمغول ، قبل وبعد ، دخولهم للبلاد الإسلامية كانوا من غير العرب ، وهذه الكتب التي ألفوها لم تترجم الى العربية ـ فيما أعلم ـ عدا المجلد الثاني (الجزء الأول ـ والجزء الثاني) من كتاب « جامع التواريخ » لمؤلفه رشيد الدين فضل الله الهمذاني[1] ـ تاريخ بخاري « أرمينوس فامبري »[1] ـ والحروب الصليبية لرونسيمان[2] والدعوة الى الإسلام لتوماس ارنولد[3] .

وقد بذلت قصارى جهدي ، وذهبت إلى كثير من المكتبات في المملكة العربية السعودية ، كمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود ومكتبة جامعة الملك سعود ، ومكتبة دار الكتب الوطنية ، وفي الأردن مكتبة الجامعة الأردنية ، وفي فلسطين مكتبة المسجد الأقصى ، ومكتبة الجامعة العبرية ، وأرسلت الى مكتبات مصر والكويت في محاولة للبحث عن نسخ مترجمة لمثل هذه الكتب ككتاب « طبقات ناصري » « للجوزجاني » او تاريخ جهانكشاى « للجويني » ، أو غيره ومع الأسف الشديد لم أجد .

ثالثا : ومما زاد التعب أنني أبحث عن مواقف معينة تتصل بالمغول ، فكان علي أن أقرأ مرجعاً كبيراً مؤلفاً من مجلدات عدة ، حتى أجد صفحة تتصل ببحثي أو صفحتين ، وقد لا أجد إلا سطورا قليلة .

وعلى كل حال فقد بذلت غاية وسعي في البحث والتنقيب ، وحسبي أنني بدأت الطريق ، ونبهت الأذهان الى هذا الجانب العظيم من جوانب

---

(١) وقد نقله الى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداي والدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد وراجعه وقدم له الاستاذ يحيى الخشاب

(١) ترجمة الدكتور/ احمد محمود الساداتي ، الدكتور يحيى الخشاب .

(٢) ترجمة الدكتور/ السيد الباز العريني .

(٣) ترجمة الدكتور/ حسن ابراهيم حسن ، الدكتور عبدالمجيد عابدين ، اسماعيل النحراوي .

الدعوة الإسلامية ، وعسى أن يقيض الله تعالى له باحثين يكملون المسيرة ، ويأتون بمزيد من الدراسة والفائدة .

وإني أُقدم شكري الجزيل لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والقائمين عليها للمجهودات التي يبذلونها لنشر العلم والوعي الديني بين المسلمين ، وكذلك أشكر القائمين على المعهد العالي للدعوة الإسلامية الذين يسهلون العلم لكل طالب ، ويواصلون المساعي لبحث أنجح الوسائل ، وأحسن الطرق لتخريج دعاة يخدمون الدعوة الإسلامية في جميع أنحاء العالم .

وأُقدم جزيل شكري للدكتور الفاضل/ أحمد العسال الذي شملني برعايته ، وتوجيهاته مدة طويلة ورسم لي الطريق ، وشجعني على الولوج فيه .

وأُقدم جزيل شكري للأستاذ الدكتور/ عبدالستار فتح الله سعيد ، الذي فتح لي بيته لأُراجعه ، ولأطلب إرشاداته في كل ساعة ، ولقد أفادني الله تعالى بتوجيهاته وهو المأمول سبحانه أن يجزيه عني خير الجزاء .

وإني أشكر جميع الزملاء ، وأساتذتي الكرام الذين أعانوني في هذه الرسالة ، والله تعالى يجزيهم عني وعن العلم والإسلام خير الجزاء .

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

إسماعيل عبدالعزيز الخالدي

تمهيد

المغول

- موطن المغول الأصلي
- حياة المغول الاجتماعية
- دين المغول
- حياة المغول السياسية والعسكرية

موطن المغول الأصلي

عاشت القبائل المغولية في المنطقة الواقعة في وسط آسيا بين نهري سيحون وجيحون من الغرب ، حتى حدود الصين الجبلية من جهة الشرق ممتدة حتى أقصى الشمال الشرقي لآسيا[1] .

وتوسع البعض في حدودها حتى امتد بها الى البحر الادرياتيكي ويمكن إعتبار هضبة منغوليا وسلاسل جبال « تيان شان » وجبال « التاى » وما بينها من سهول وصحـراء جوبي ، وحـول بحيرة (بـايكال) وضفـاف الأنهار الموجـودة في تلك المنطقة[2] ، الموطن الرئيسي لهذه القبائل ، التي كانت تستقر في السهول الواقعة بين سلاسل الجبال ومناطقها الدافئة شتاء حيث تتوفر المراعي لحيـواناتهم ، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال لمدة شهرين أو ثلاثـة حيث تكون المنطقة باردة وتتوفر فيها المياه والمراعي .

إن بُعد هذه المناطق الشديد عن البحار فضلا عن ارتفاعهـا أسهـم في أن يخصها بمناخ « قاري » ـ إذ تتراوح درجة الحرارة في معظم أجزائها ما بين ٣٨ فوق الصفر و ٤٢ تحت الصفر ـ مما يؤدي الى تجمد أنهارها وبحيراتها فترة طويلة من أشهر السنة ، بالإضافة إلى الرياح الشديدة التي تهب من المنطقة الجليدية في سيبيـريا الواقعة شمالا[3] .

---

(١) انظر كتاب (الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية) للدكتور/ محمد صـالح داود القزاز .

(٢) (٣) انظر كتاب (المغول) للدكتور/ السيد الباز العريني ٥ ـ ٨ .

وتنعكس هذه الحالة في فصل الصيف حيث ترتفع الحرارة وتهب الرياح الشديدة المحملة بالرمال[١] .

في هذه البيئة القاسية ، كانت هذه القبائل التي تعيش على الصيد والرعي تجري وراء المياه القليلة في صحراء « جوبي » (التي يعني إسمها الجدب والفقر)[٢] وفي السهول بين الجبال وتعتلي المرتفعات وراء العشب والمرعى .

وكلما زحف الجفاف او قلت الأعشاب انتقلوا الى أرض مجاورة يدفعهم الى ذلك تزايد عدد القطعان والماشية ، وهذا الارتحال والتنقل هو القاعدة الطبيعية لحياتهم .

واذا احتبست الامطار أو تعرضت المراعي للآفات وقلت الاعشاب تبعا لذلك وجد الراعي نفسه أمام خطر فقدان ماشيته ـ وهي مصدر رزقه ـ ثم التعرض للمجاعة وهذا بدوره يدفعه الى السرقة ، والنهب ، والسلب ممن يجاورونه من السكان الذين يشتغلون في الزراعة ومن هنا تقوم الحروب والغارات والاعتداءات ، والأخذ بالثأر[٣] .

وبالرغم من وحدة أصول هذه الأقوام ، إلا أنهم كانوا ينقسمون الى قبائل عديدة ، تتزايد أعدادها يوما بعد يوم بحكم انقسامها على نفسها وانفصالها عن بعضها حاملة أسماء جديدة ، تفرعت إليها وعرفت بها[٤] .

---

(١) أنظر كتاب (الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية) للدكتور القزاز ص ٣ ـ ٥ .

(٢) أنظر كتاب (تاريخ بخاري) تأليف ارمينيوس فامبري ـ ترجمة الدكتور الساداتي والدكتور الخشاب ، حاشية صفحة ١٦١ .

(٣) لتفصيل اكثر انظر كتاب (المغول) للدكتور الباز ص ١٣ .

(٤) أنظر كتاب (الحياة السياسية في العراق) للدكتور القزاز ص ٥ .

القبائل التي تكون منها المجتمع المغولي[1]

في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) كان ينزل شمال منشوريا ، ومنغوليا ، وتركستان ، قبائل بدوية متأخرة تنخذ من الرعي والصيد مهنة لها ، تنتقل وراء العشب من مكان الى آخر وتنتمي هذه القبائل من الناحية اللغوية إلى مجموعات منها : مجموعات تركية ، ومجموعات منغولية ، ومجموعات تونغوزية ، ويصعب على المؤرخ أن يفصل بشكل قاطع بين هذه المجموعات ذلك لأن صلات معينة قامت بينهم جعلت ألقابهم ، وعاداتهم ، وكلامهم متقاربا ، ومن هذه المجموعات :

أولا : القبائل التركية

قبيلة توركش :

وهذه القبيلة من أشهر القبائل التركية في الغرب ، وكان رؤساؤها يلقبون بلقب « خان » وبقيت هذه القبيلة محافظة على إستقلالها الى أن قضى عليها العرب المسلمون بقيادة « نصر بن سيار »[2] سنة ١٢١ هـ (٧٣٩ م) .

قبيلة القرغيز :

وهم من الترك الذين كانوا ينزلون في أعالي نهر ينسى ، وكان أميرهم يلقب

---

(١) لتفصيل اكثر انظر كتاب (المغول) للدكتور الباز ص ٢٨ ـ ٣٦ .

(٢) نصر بن سيار : هو نصر بن رافع بن حرى بن ربيعه الكناني ولد سنة ٤٦ هـ (٦٦٦ م) وتوفي سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ م) أمير وقائد وشاعر من الدهاة الشجعان كان واليا لبلخ ثم ولاه « هشام بن عبدالملك » خراسان سنة ١٢٠ هـ بعد وفاة « أسيد بن عبدالله القسري » فقضي على الثورات الداخلية وأقر الأمن لكنه لم يقو على وقف الدعاية العباسية ضد البيت الاموي وتغلب أبو مسلم على خراسان فأجبر على الفرار .

« خاقان » اشتهـروا سياسيـا حوالي سنـة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) حينها تغلبـوا على « الاويغور » من منغوليا ولكن « الخطا » هزموهم وطردوهم من منغوليا في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ثم احترفوا الزراعة ، وبعد ذلك خضعوا للمغول زمن « جانكيز خان » سنة ١٢١٨ م .

قبيلة الاويغور :

كانوا ينزلون شمال منشوريا على نهر « سلنجا » (SELENGA) وكان لقب أميرهم « التابير » وحوالي سنة ١٢٧ هـ (٧٤٥ م) اتخذ أميرهم لقب (خاقان) بعد أن أنتقل اليهم الملك في منغوليا عن « الاغوز » ، ثم اعتنقوا « المانوية »[1] حوالي النصف الأول من القرن الثاني الهجري (النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي) ، ونشط في هذه الفترة دعاة البوذية والمسيحية « النسطورية »[2] في نشر دعوتهم بين الصينيين وبين القبائل التركية .

قبيلة الاغوز (الغُـز في اللغة العربية) :

وهم من القبائل التركية أيضا وذكرتهم نقوش « ارخون » في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بأسم « التغزغز » ـ أي القبائل العشرة ـ لأنهم كانوا يتألفون من عشرة قبائل . دخل « الغز » الى البلاد الإسلامية في نهاية القرن الرابع

---

(١) نسبة الى ماني (أومانو) بن فاتك : الذي يقول بنبوة المسيح واقتبس من الديانة المجوسية القول بأن العالم مركب من أصلين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا وسيبقيان ، وأنكر وجود شيء من اصل قديم . أنظر كتاب الانسان في ظل الاديان » د . عمارة نجيب .

(٢) النسطورية : طائفة من طوائف النصارى ينتسبون الى (نسطور) بطريرك القسطنطينيـة قطنـوا كردستان بين الموصل وأرمينيا إلى أن تبدد شملهم بعد حرب ١٩١٤ م وازدهرت عنـدهم الحياة الرهبانية فأوفدوا المبشرين الى آسيا الشرقية ونشروا المسيحية في ايران والهند والصين وينكرون أن تكون (مريم أم الله) (الباحث) .

الهجري (العاشر الميلادي) وينتمي السلاجقة الى قبيلة الغز ، وقد أقاموا امبراطورية إمتدت من تركستان حتى حدود مصر .

قبيلة القارلوق :

أصبحت لهم أهمية سنة ١٤٩ هـ (٧٦٦ م) حينما احتلوا وادي نهر « جو » بعد سقوط امبراطورية « خاقان » الترك الغربيين ، لم يتخذ امراؤهم لقب « خاقان »[١] وإنما اكتفوا بإتخاذ لقب « يبغوا » وكانوا كفارا حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ويقول « ابن حوقل »[٢] ، أن بلادهم كانت تمتد من « فرغانه »[٣] مسافة يجتازها المسافر في ثلاثين يوما ، ولقربهم من البلاد الإسلامية ، تأثروا بالحضارة الفارسية ، ولم يلبثوا أن اشتغلوا بالزراعة ، وجرت الاشارة إليهم لآخر مرة في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)[٤] .

ثانيا : القبائل غير التركية

الخطا (او قرة خيتاوي ، أو خيتاوي وكلها أسماء لشعب خيتاى) :

الراجح أنهم من القبائل التونغوزية (ويرى البعض أنهم مغول) كانوا

---

(١) خاقان : تعني خان أي ملك .

(٢) ابن حوقل : هو محمد بن حوقل البغدادي الموصلي أبو القاسم رحالة من علماء البلدان ، كان تاجرا ، رحل من بغداد سنة ٣٣١ هـ ودخل المغرب وصقلية وجاب بلاد الاندلس وغيرها ، ويقال كان عينا للفاطميين . له « المسالك والممالك » (الاعلام) .

(٣) فرغانه : بالفتح ثم السكون ، وغين معجمة وبعد الالف نون ، وهي مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس ، يقال كان بها اربعون منبرا وبينها وبين « سمرقند » خمسون فرسخا ، ومن ولايتها « خجنده » (معجم البلدان)

(٤) الدكتور الصياد « المغول في التاريخ » ص ٣٠ .

أعداء للترك الذين كانوا ينزلون أقصى الشرق في المنطقة التي بلغها « الأتراك » في حملاتهم . وفي بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) قام « الخيتاي » بحملات حربية من أجل التوسع ، فاستولوا على شمال الصين . كما أخضعوا شمال منشوريا ووطدوا نفوذهم في جنوب الصين ، بعد ذلك ، وامتدت مملكتهم من بلاد القرغيز ـ على نهر ينسي ـ شمالا حتى بلخ جنوبا ، ومن خوارزم غربا الى بلاد الاويغور شرقا وكانت « بالاساغن » عاصمتهم وكان لقب ملكهم « الكورخان » أي : خان الخانات .

ولما تحطمت مملكتهم وحلت مملكة الأمير « كجلك » النايماني في جانب من أملاكهم ، اتخذ آخر ملوك « قره خيتاي » العادات والملابس الإسلامية ، وبقي اقليم ما وراء النهر في أيديهم ، إلى أن انتزعه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة ٦١٢ هـ (١٢١١ م) ، وتداعت مملكتهم بفضل نشاط الأُمراء المسلمين في الغرب ، وطغيان المغول من الشرق .

التتار :

من الشعوب غير التركية ، ورد ذكرها في نقوش « أرخون » وقد اتخذ المغول هذا الاسم فيما بعد ، وكان التتار في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) قسمين : الأول تسع قبائل ، والثاني ثلاثين قبيلة وكانوا يسكنون جنوب غربي بحيرة « بايكال » حتى نهر كيرولين ، وهم ثلاثة اقسام :ـ

(١) التتار البيض : وهم الذين ينزلون خارج سور الصين مباشرة ، وتأثر هؤلاء بالحضارة الصينية .

(٢) التتار السود : وكانوا ينزلون شمال صحراء « جوبي » وكانوا بدوا رحلا .

(٣) تتار الغابة : وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري « اونون »

و « كيرولين » ومارسوا حياة الصيد .

وعلى الرغم من أن المغول الذين قاموا بالغزوات والفتوح المشهورة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كانوا يعرفون باسم « التتار » في كل مكان وكان يسحب هذا الاسم على أسلاف « جنكيز خان » وعلى النايمان فقد كان « التتار » قبائل مستقلة عن المغول ، بينما صار اسم « مغول » يطلق على جميع الشعوب التي خضعت لجنكيز خان بعد قهرها ، ولم تلبث لفظة « تتار » أن تغلبت عليها ، خاصة في الجهات الغربية من الامبراطورية المغولية .

وهنا ينبغي أن نوضح حقيقة هامة هي أن لفظي « المغول » و « التتار » اسمان لقبيلتين كانتا تعيشان في القسم الشرقي من آسيا الوسطى ، وفي الشمال الغربي من الصين ، على أنهار اولدزا (ULDZA) وكيرولين ، وأرخون ، وأونون وسائر روافد نهر عامور .

قبيلة الكرايت :[1]

أقاموا لهم مملكة احتلت المنطقة الممتدة من نهر أرخون وجبال كنتاري حتى سور الصين ، وقد تغلبت على جميع العناصرالمغولية ، وتحولوا الى النسطورية بين عامي ٤٠٠ ـ ٤٠٢ هـ (١٠٠٧ ـ ١٠٠٩ م) على يد أسقف نسطوري مقيم في « مرو » ، ومنذ ذلك الحين صاروا يدينون « بالنسطورية » وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) اتخذ زعماؤهم أسماء مسيحية .

وكان طغرل من أشهر ملوكهم ، استطاع أن يطرد عمه الذي كان ينافسه على العرش ، وذلك بمساعدة رئيس مغولي هو « يوكاي » والد « جانكيز خان »

(١) لتفصيل أكثر أنظر كتاب « المغول » للدكتور الباز ص ٢٨ ـ ٣٦ ، الدكتور الصياد « المغول في التاريخ » ص ٢٧ ، ٢٨ .

الذي ظل من أتباعه ـ واستطاع طغرل أن يهزم « التتار » وبذلك صار أقوى ملك في منغوليا ومنحه الامبراطور « كين » لقب « وانج » واشتهر بـ « وانج خان » .

قبائل المركيت :[٢]

يرجح أنها قبائل مغولية ، ومن المعروف تاريخيا أن والده « جنكيز خان » وزوجته منهم .

كانوا ينزلون بالقرب من بحيرة « بايكال » جنوبها في حوض نهر « سلنجا » وكانوا يعيشون على الصيد في الغابات .

قبيلة النايمان :

يبدو من إسمهم أنهم مغول « نايمان » ـ معناها ثمانية ـ ولكن القابهم كانت تركية ولذا يصح إعتبارهم (تركا ـ مغول) .

كان النايمان يسكنون غرب منازل « الكرايت » ، وامتدت منازلهم حتى نهر « ارتيش » . كانت ديانتهم « الشامانية »[١] الا أن النسطورية نفذت اليهم .

قبيلة برجقين المغولية :

كانت تسكن عند أنهار « تولا ، وأرنون ، وكيرولين » والى هـذه القبيلة ينسب « جانكيز خان » .

توالى نزول القبائل المغولية على ضفاف هذه الأنهار بالقرب من هذه القبيلة

---

(١) لتفصيل أكثر أنظر كتاب « المغول » للدكتور الباز ص ٢٨ ـ ٣٦ ، المغول في التاريخ ص ٢٧ ـ ٢٨ للدكتور الصياد .

(٢) الشامانية ـ سيأتي تعريفها عند الحديث عن دين المغول .

ابتداء من « كيرولين » شرقا حتى بحيرة « بيكال » غربا ، انقسمت القبائل المغولية في زمن « جانكيز خان » الى قسمين :ـ

القسم الأول :

ويشمل عشائر بيرون أو بورس واتخذت هذا الاسم لانتمائها الى « بورجقين » ، وهم أشد أصالة في النسب من القسم الثاني ، ومن هذه العشائر : (تايجيوت ، وجاجيرات ، ويرلاس ، وبارين ، ودربان ، وساجيوت ، وكتاكين) .

واما القسم الثاني :

فيشمل عشائر « دورلوكين » (DURLUKIN) ومنهم (ارلات ، وباياوت ، وفورلاس ، وايكراس) هذا ويضاف اليهم عشيرة « جلائر » التي لم يعرف أصلهم على وجه التحقيق ، وهذه القبائل خضعت لاجداد « جانكيز خان » وارتبط « القنقرات » الذين كانوا ينزلون على ساحل بحيرة « بويرنور » التي تتوسط نهر خلقا ـ بمعاهدة مع التايجيوت وبرجقين في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

كان المغول الأصليون ـ أجداد جانكيز خان ـ يشتغلون بالرعي ويعيشون على الصيد ، وذلك لأن منازلهم كانت تقع بين السهول والغابات ويفصل نهر سرداريا « سيحون » بين العالم التركي المغولي والعالم الإسلامي ولهذا السبب ظل المغول الترك محافظين على تقاليد عنصرهم ، بأن بقوا وثنيين ، أو بوذيين ، أو نساطرة وكانت الحضارة الصينية أشد الحضارات تأثيراً عليهم .

حياة المغول الاجتماعية

كان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية ،[1] فقد كانت القبيلة مقسمة الى ثلاث طبقات : (طبقة النبلاء وكانوا يلقبون بالألقاب « بهادر » اي الباسل - « وتوبان » - اي النبيل - « وستسن » - أي الحكيم) .

والطبقة الثانية هي طبقة ال « نوكور » - أي الأحرار - وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا ، زمن « جنكيز خان » وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له .

والطبقة الثالثة ، هي طبقة العامة ، وطبقة الأرقاء .

وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيسا ، قد يكون ملكا (خان ، قان) أو زعيما (باكي او بكي) وبهذا اللقب اشتهر رؤوساء قبائل الغابة أمثال (اويرات ، ومركيت)[2] .

وكانت بعض القبائل الصغيرة تلجأ أحيانا إلى إحدى القبائل الكبيرة على عادة البدو في كل مكان ، وذلك لعجزها عن الدفاع عن نفسها ، كما حدث لقبيلة « الجلائر » في علاقاتها مع أجداد « جنكيز خان » ، وما جرى أيضا لقبيلتي (القنقرات ، والاويرات) حينما خضعتا لجنكيز خان .

لقد أثرت البيئة التي عاشت فيها تلك القبائل تأثيراً كبيراً على حياتهم الإجتماعية والإقتصادية .

---

(١) ، (٢) أنظر كتاب (المغول) للدكتور الباز ص ٣٨ .

فمناخها القاري والسعي وراء الأعشاب لرعي الماشية والأغنام فرضت عليهم مع مرور الزمن نمطاً معيناً من الحياة .

فقد عاش الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات ، حول بحيرة « بايكال » ، ونهر عامور ، عيشة المتبربرين ، يعيشون على صيد الحيوانات في الغابات ، وعلى صيد السمك في الأنهار والبحيرة .

وأما الذين كانوا يعيشون في الأستبس فقد عاشوا على تربية الخيل والماشية ، والأغنام ، يلتمسون العشب ، ويسير الرجل في أثر قطعانه .

وتوزيع المراعي والمياه حدد مجال تحركهم في فصول السنة ، وكثيرا ما كانت تحركاتهم نحو المراعي سببا في المنازعات والغارات والسلب والنهب .

وما كان يمارسه الرعاة من التدريب المستمر على ركوب الخيل والسعي لإكتشاف المراعي والمياه ، واستخدام الأسلحة ، وما يتصفون به من قوة الإحتمال ، ومعاناة الجهد والتعب ، والشجاعة ، والميل الى الحركة ، وحب المخاطرة ، واتساع الأفق ، وحب التسلط ، كل ذلك جعل رجال هذه القبائل عبارة عن جنود بارعين وجيش جاهز في كل لحظة .

وعندما جاء « جنكيز خان » واستطاع توحيد هذه القبائل ، تحت حكمه ، نظم لهم نوعا من الحياة الإجتماعية مستفيدا من التجارب التي عاشها والشدائد التي عاناها ، وما قام به من حروب وغزوات ، وكتب ما نظمه فيما يعرف بـ « الياسا »[1] ذلك لأنه كان حريصا على جمع كلمة القبائل الخاضعة له ، وعلى

---

(١) الياسا : هي احكام « اودستور » « جنكيز خان » دونها له الاويغور بخطهم ، وهي مزيج من القوانين موضوعة على ارادة الخان المغولي تسجل أنفع العادات القبلية ، كان المغول يرجعون اليها عندما يجلس خان جديد على العرش ، وفي حالة تعبئة الجيوش والإستعداد للقتال . (الباحث)

كبح جماحها ، والزامها بالنزول على حكمه ، فاشتمل هذا القانون على عقوبات بالغة الصّرامة ، حتى يقضي على أسباب الفوضى ، ويعيد الأمن إلى نصابه .

وتحدد في هذا القانون علاقة الحاكم بالمحكوم ، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض ، وعلاقة الفرد بالمجتمع[1] .

وقد نجح « جنكيز خان » في هذا الغرض واستطاع أن يحول جموع المغول إلى جيوش منظمة ، تسير وفقا لخطط حربية مرسومة .

وكان المغول يتغذون بلحوم الحيوانات على اختلافها من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران . وغذاؤهم قليل وخاصة في الشتاء إذ تقسو عليهم الطبيعة . ولهم طريقة في حفظ اللحوم ، وهي أنه إذا مات عندهم حيوان قطعوا لحمه شرائح رقيقة وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها العفونة .

وكانت ملابسهم بسيطة جدا تتفق والبيئة التي يعيشون فيها ، وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو وبر الإبل أو من جلود الحيوانات ولم يكن فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء . وكان من عادة المغول أنهم لا يغيرون ملابسهم طوال فصل الشتاء ، وأما في الصيف فيكتفون بتغييرها مرة واحدة كل شهر ، ومن عاداتهم ألاّ يغسلوا ثيابهم أبداً بل يلبسونها حتى تبلى وكان من عاداتهم أن يطلوا أجسادهم بالشحم إتقاء البرد والرطوبة[2] .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٨ ـ ١١٩ (وقد عزا ابن كثير هذا للجويني) .

(٢) لتفصيل أكثر أنظر « المغول في التاريخ » للدكتور الصياد ص ٣٣٠ الى ٣٣٤ .

دين المغول

وأما عن ديانتهم فان دارس تاريخ هؤلاء الأقوام يجد صعوبة في التعرف على المبادىء الصحيحة لدينهم ، فبعض المراجع تذكر نتفا قليلة لا تشفي غليلا ، وبعضهم لا يذكر شيئا ، فقد قال ابن كثير عن عقيدتهم : « وهم مع ذلك يسجدون للشمس اذا طلعت ، ولا يحرمون شيئا ، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات »[١] .

ويحتوي (الياسا) كما ذكر ابن كثير نقلا عن الجويني[٢] بعض المبادىء التي منها :-

(. . . أنه من زنا قتل ، محصنا أو غير محصن ، وكذلك من لاط قتل ، ومن تعمد الكذب قتل ، ومن سحر قتل ، ومن تجسس قتل ، ومن دخل بين اثنين يختصمان فاعان احدهما قتل ، ومن بال في الماء الواقف قتل ، ومن انغمس فيه قتل ، ومن أطعم أسيرا أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل ، ومن وجد هاربا ، ولم يرده قتل ، ومن أطعم أسيرا أو رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل ، بل يناوله من يده الى يده ، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكل منه أولا ولو كان المطعوم أميرا لا أسيرا ، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل ومن ذبح حيوانا ذبح مثله بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولا . . .) .

وقد جاء في حديث لأحد ملوكهم وهو « منكو خان » (١٢٥١ ـ ١٢٦٠) في

---

(١) البداية والنهاية لإبن كثير المجلد ٧ جزء ١٣ صفحة ٨٨ .

(٢) البداية والنهاية لإبن كثير المجلد ٧ جزء ١٣ صفحة ١١٨ ، ١١٩ .

لقائه مع الرحالة « رويركي » قال :

(. . . نحن المغول نعتقد بأن هناك إلهٍا واحداً له نحيا وله نموت ، وعندنا قلب يخفق بحبه ، لكن الله الذي أعطى اليد أصابع مختلفة ، كذلك أعطى الناس طرقا مختلفة ، فقد أعطاكم الكتاب المقدس ، لكن المسيحيين لم يحافظوا عليه ، وقد أعطى « الشماناس » (SHAMANAS) ونحن نفعل ما يـأمروننـا به ونعيش بسلام)[1] .

وذكر الجويني « . . . أن « جنكيز خان » لم يكن متحمسا لدين معين وأن أولاده مالوا مع رغباتهم ، فمنهم من مال إلى الإسلام ، ومنهم من مال إلى المسيحية وآخرون إلى عبادة الأصنام ، وغيرهم حسب قاعدة الآباء والأجداد »[2] .

وأما ابن فضل الله العمري فيقول « . . . الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله وأنه خلق السموات والأرض »[3] .

وفي تعريف الديانة الشمانية يقول الدكتور القزاز[4] .

« كانت الديانة الرسمية للمغول تسمى « بالشامانزم » (SHAMANISM) وتتمثل بعبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس ، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم الحياة الخاصة لأتباعها ، كما يدل على ذلك حديث « منكوخان » إلى الرحالة « رويركي » = الذي مر ذكره = ، ولم تستطع تعاليمها الصمود أمام الديانات الأُخرى التي احتك بها المغول ، الأمر الذي أدى إلى ذوبانها ، وتحول

---

(١) « الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية » للدكتور القزاز صفحة ٢٠ ، ٢١ .

(٢) نفس المصدر صفحة ١٩ ويعزوه للجويني .

(٣) نفس المصدر يعزوه لابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الابصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢١٩ .

(٤) نفس المصدر ، حاشية صفحة ٢٧٦ .

المغول عنها إلى البوذية في الصين ، والإسلام في البلاد الإسلامية والمسيحية في روسيا » .

وأما أرنولد فقد كتب (. . . كانت « الشامانية » (SHAMANISM) الديانة القديمة للمغول ، الذين كانوا ، على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر ، لا يؤدون له الصلوات ، وإنما كانوا يعبدون طائفة من (الآلهة) المنحطة وبخاصة تلك (الآلهة) الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم ، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى ، التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم ، ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي كانوا يلجأون الى القسيسين ، وهم « الشامان » (SHAMANS) والسحرة أو الى رجال الطب ، الذين كانوا يعتبرونهم ذوى نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم ، ولم يكن دينهم معدودا من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم طويلا جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل ، وذات الهيئات المنظمة للمعلمين الدينيين ، ومن ثم تأثر المغول بمدنيات تلك الشعوب . . .)[1] .

وإني أُرجح بأن هذه العقيدة المشوهة التي أشار اليها المؤرخون هنا وهناك ، ما هي إلا بقايا عقيدة كانت صحيحة جاءت عن طريق بعض الرسل مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾[2] .

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الإسلام ص ٢٥١ .

(٢) سورة فاطر آية ٢٤ .

ولكن الأنحرافات البشرية المتمثلة في تدخل بعض الناس حكاما أو زعماء ، أو علماء ـ في العقيدة بالاضافة أو الحذف أتباعا للشيطان والهوى أو وصولا الى شهوة ، أو رغبة في انتقام ، أو إظهاراً لمكانةٍ . . . أو . . . كل ذلك جعل هذه العقيدة تصل إلينا بشكل مشوه ، ولكن الذي يتفحص هذه النتف القليلة يرجح أن هذه النصوص ما هي إلا بقايا عقيدة وصلتنا مشوهة ، فهم يعترفون بوجود إلّه واحد ، وأنه خلق السموات والأرض ولكنهم يشركون معه بعض المخلوقات مثل « الشمس » « والأرواح » وغيرها .

وهم يستنكرون القتل ، والزنى ، واللواط ، والكذب ، والسحر ، والتجسس ، وكلها من صميم النواهي والمحرمات التي حرمها الله سبحانه على عباده بواسطة الرسل الكرام . وإذا وجدنا العقاب قاسيا على بعض هذه الجرائم ، فإن هذه القسوة علامة التشويه التي وضعتها يد الانسان الظالمة ظانين أنهم بهذا إنما يكملون نقصا أو يستفيدون من تجربة .

وخلاصة القول إنني أُرجح ، أنه كان لهذه الأمم عقيدة صحيحة شوهت مع مرور الزمن ثم ترك كثير من أوامرها الى أن جاء « جنكيز خان » فأمر بكتابتها بالخط « الأويغوري » وكتبت بعد أن أضاف اليها ما يعتقد أنه ينفع أُمته ويقوي ملكه .

هذا وقد امتدت اليد الإنسانية الى العقائد السماوية بالتبديل والتحريف والتشويه ، ابتداء من العقيدة التي أُنزلت على آدم عليه السلام ومرورا بعقيدة ابراهيم واسماعيل التي شوهت في الجزيرة العربية ، وعقيدة موسى التي شوهت على أيدي اليهود ، وانتهاء بعقيدة عيسى التي شوهت على أيدي « النصارى »[1]

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع كتاب « الدين » للدكتور محمد عبدالله دراز ، وكتاب « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » للاستاذ الشهيد سيد قطب وكتاب الإنسان في ظل الاديان للدكتورة عمارة نجيب .

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في أكثر من موضع وكفى به قولا فصلا وذلك في مثل قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم ، انما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾[1] .

وقال تعالى عن اليهود ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه . . . . . ﴾[2] .

---

(١) سورة النساء آية (١٧١) .

(٢) سورة المائدة آية (١٣) .

حياة المغول السياسية والعسكرية

كان المغول يعيشون عيشة البداوة بكل مُقوماتها ، ولا يلتزمون من النظام إلا بما يعود عليهم وعلى خيولهم وأغنامهم ومواشيهم بالمنفعة وكانت هذه الحياة نفسها تفرض عليهم نوعا من الوحدة والطاعة لرئيس القبيلة الذي يتصف بالحنكة ، والشجاعة ، والجرأة بالإضافة إلى كبر السن .

عندما اجتمع رؤساء القبائل المغولية ، إختاروا « تموجين » خانا على المغول ، ذلك لأنه كان يتمتع بجميع الصفات التي يتطلبها هذا المركز وأطلقوا عليه لقب « جنكيز خان » ـ أي امبراطور العالم أو ملك العالم ـ .

كان الخان يجمع بين يديه جميع السلطات ، ويوزعها على أعوانه المخلصين ، وكان من عادته أن يحيط نفسه بمجموعة من صفوة أتباعه الذين كان يضع فيهم ثقته الكبيرة ، وكان يركن إليهم في كل الأُمور ، ويُوزع عليهم من الغنائم ، والسبايا أحسنها ومن المنح أغلاها[١] .

وقد استفاد المغول من خبرات الشعوب التي غلبوها ، فبعد هزيمتهم « للنايمان » استخدموا الأختام ، والكتابة التي لم يعرفها من قبل كما كان من عادتهم أن يبقوا على حياة بعض الصناع ، وأرباب الحرف ليستفيدوا من مهارتهم[٢] .

---

(١) أنظر كتاب « المغول » للدكتور الباز ص ٤٨ والحاشية و ص ٥٥ .

(٢) أنظر كتاب « المغول » للدكتور الباز ص ١٣٤ .

على أن أهم المظاهر السياسية في حياة المغـول ذلك الـدستور أو القـانون الأساسي المسمى بـ « الياسا » إذ جمع فيه « جنكيز خان » ما مر في حياة القبائل المغولية من قوانين وخبرات وخاصة الخبرات التي توصل إليها هو نفسه في حياة الكفاح والمغامرات التي عاشها ، وما تعرض له من مؤامرات وخيانات . كل ذلك أثر على طريقة صياغة مجموعة الآداب ، والتقاليد ، والقوانين التي تعارفوا عليها ، فعدلها بالحذف ، والإضافة ، وجعل لها صفة رسمية وأمر بتدوينها واحتفظ بها في خزائن أُمراء المغول .

وبقيت أحكام « الياسا » موضـع اهتمام الأقـوام المغوليـة والمرجـع الذي يرجعون إليه في أُمور الحكم والسياسة .

وقد ظل الأهتمام بهذه الأحكام حتى بعد زوال دولـة « الإيلخانيـين » في إيران ، وسار عليها « التيموريون » في أحكامهم ، وسياستهم ، وحفلاتهم حتى لقد تسربت بعض مبادئها إلى نظم سلاطين المماليك والعثمانيين .

ولقد حدد ذلك الدستور « اليـاسـا » علاقـة الحاكم بـالمحكوم ، وعـلاقة المحكومين بعضهم ببعض ، وعلاقة الفرد بالمجتمع .

كما رتب للجنود أُمراءهم « ضباطهم » ، وعدد الجنود الذين يحكمهم كل أمير « ضابط » وحض الجنود على طاعة أُمرائهم .

وبالاضافة إلى ذلكَ كله نظم البريد ، ليضمن وصول الرسائل بسرعة ، ونظم حلقات الصيد التي تدرب الجنود على أَساليب الحرب وفنون القتال .

واتخذت قوات الحرس ـ التي أنشأها « جنكيز خان » ـ صورتها النهائية سنة ٦٠٧ هـ (١٢٠٦ م) وحددت واجبات هؤلاء الحراس الذين بلغ عددهم عشرة آلاف ، اختـارهم من الجنود الأَقـوياء ، المعـروفين بـالشجاعـة وشدة الحـذر ،

واليقظة ، ولم يكن للقائد الحق في إعدام أي جندي إلا بعد موافقة « الخان » ، وتصديقه .

وقد تألفت كتيبة من هذا الحرس ، وقوامها ألف رجل ويطلق على كل واحد منهم اسم (بهادر) أي الشجاع وهؤلاء هم الـذين يقومـون بخدمـة الخان ولا يخرجون للقتال إلا معه .

وللجيش المغولي نظام يقوم على وحدات مؤلفة من عشرات ومئات وأُلوف الجنـود ، وكانت سـرعـة تحـركهم وشـدتهم مثيـرة للرعب والخـوف في نفـوس أعدائهم[١] .

---

(١) أنظر كتاب « المغول » للدكتور الباز ص ٥٦ ـ ٥٧ .

الباب الأول

المسلمون في مواجهة المغول

بين يدي الباب الأول

عندما شرع المغول في غـزو العالم الإسـلامي كانت إلبـلاد الإسلاميـة في العـراق ، وإيران ، وخـراسان ، وبـلاد الشام في حـالـة شـديـدة من الضعف والتفرق ، تسودهـا الفتن والحروب ، والدسائس والأهواء المختلفة ، والمذاهب المتصارعة ويسيطر عليها حكام متنازعون يؤثرون مصالحهم الشخصية على مصالح المسلمين العليا متناسين قـول الله تعالى ﴿ . . . **ولا تنـازعوا فتفشلوا وتـذهب ريحكم** . . . . ﴾[1] .

وكانوا في سلوكهم الخاص ومعاملاتهم لشعوبهم أو لبعضهم بعضا قد تخلوا عن قواعد الإسلام ومبادئـه ، وانحرفـوا عنه إنحـرافا شـديداً وانتشـرت بينهم الموبقات ، من معاقرة للخمر ، وقتل الـوقت بحضور حفـلات الرقص المـاجن وارتكاب الفواحش واللهو الخليع ، وقد تبعهم في ذلك كبار قادتهم ، وكثير ممن يلوذ بهم من الناس ، ولِمَ لا ؟ والناس على دين ملوكهم .

وكان من نتيجة تخليهم عن أخلاق الإسلام فقـدان روح التضحية وحب الإستشهاد مما أضعف الروح المعنوية في حروبهم مع المغول .

وذلك هو « الوهن » الذي حذر منه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه حين قال : « يوشكُ أَن تَتَداعى عَلَيْكُم الأُممُ كما تَتداعى الأَكلةُ على قصعتها ، قالوا : أَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يومئذٍ يا رسول اللهِ ؟ قال : بل أنتم يومئذٍ كُثر ، ولكنكم غُثاء

---

(١) سورة الانفال آية ٤٧ .

كَغُثاء السيل ، ولينزعنَّ الله من صدورِ عدوكم المهابةَ منكم ، ولَيَقذِفنَّ في قلوبِكُم الوَهنَ . قَالوا وما الوَهْنُ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ »[1] .

أَما الأُمة المسلمة فكانت أَكثريتها لا تزال مؤمنة بربها ودينها ، وقرآنها ونبيها ، وترى أَن كل الخير في إتباع هدى الله والعمل بشرعه ، وأَن كل شر وخسران في الإنحراف عن صراطه وعن هدى الله ، وأما الحكام والأُمراء واسلاطين والملوك ـ الذين بيدهم الأُمور ـ فكانوا لاهين في محاربة بعضهم بعضا ، وغزو إمارات إخوانهم ، وسفك الدماء ، وحرق الأَخضر واليابس والتمرد على الخلافة ، وإعلان الاستقلال في إمارات يكاد عدد سكان بعضها لا يزيد عن عدد سكان قرية من القرى المتوسطة ، وقد تسمى هؤلاء الحكام بأَسماء رنانة ، فمنهم السلطان ومنهم الملك ، ومنهم الأَمير ، ومنهم نظام الملك، ومنهم شاهنشاه (ملك الملوك) إلى آخر الألفاظ التي لم تغن المسلمين شيئا عندما حزب الأَمر ، واشتدت الحروب ، ففي كل ناحية سلطان وفي كل قبيلة أَمير ورحم الله القائل[2]

مما يزهدني في أَرض أندلس ... أَلقاب معتصم فيها ومعتضد
أَلقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الأَسد

وانتهوا إلى بلاءٍ شامل قال الله تعالى فيهم وفيه :

﴿ الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم دار البوار ﴾[3]

لقد غلت عندهم المعيشة ، ورخص الإنسان ، وعمرت المراقص

---

(١) رواه الامام احمد عن ثوبان وهو في سنن أبي داود ـ عن ثوبان أيضا بإسناد صحيح (كتاب الملاحم الباب الخامس : تداعي الأُمم على الإسلام) .

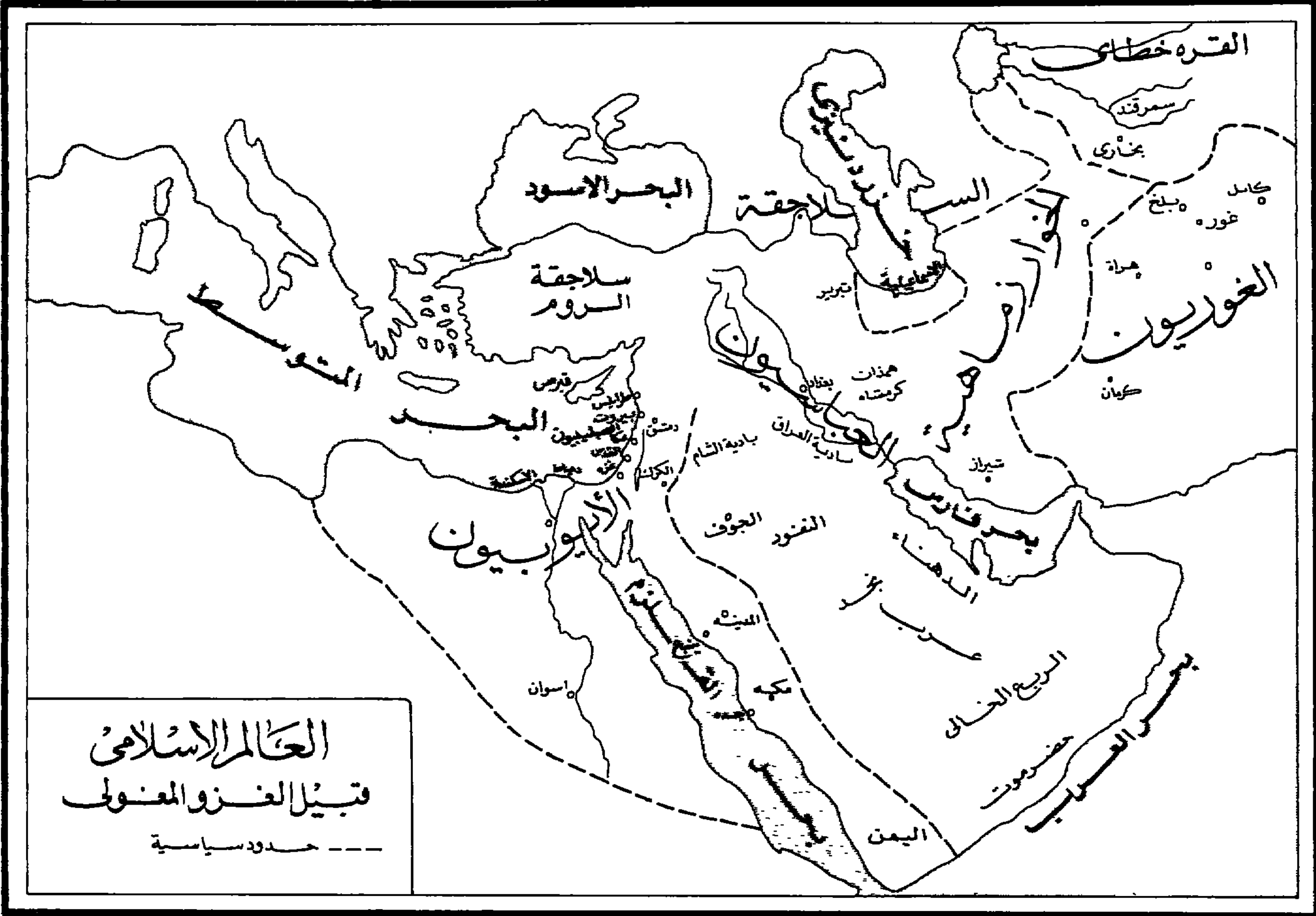
(٢) أبو الحسن بن رشيق القيرواني .

(٣) سورة إبراهيم آية ٢٨ .

والحانات ، وخربت المساجد ودور العبادة ، وقل عدد الملتزمين من الحكام وخاصتهم بالفضائل ، وأَطلقوا العنان لشهواتهم ، وأَكرموا أَهل النفاق والكفر فكانوا كما قال الله عز وجل ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾[1] .

وسنتناول ذلك بالتفصيل الواقعي فيما يأتي :

(١) سورة النحل آية ١١٢ .


العالم الإسلامي
قبيل الغزو المغولي
حدود سياسية
القره خطاي
سمرقند
بخارى
كابل
غوره
بلخ
هراة
الغوريون
كرمان
الخوارزمية
تبريز
همذان
كرمنشاه
بغداد
العباسيون
بادية العراق
بادية الشام
شيراز
بحر فارس
البحر الأسود
سلاجقة
سلاجقة الروم
قبرص
دمشق
الكرك
البحر المتوسط
الصليبيون
الاسكندرية
الأيوبيون
الجوف
النفود
الدهناء
نجد
المدينه
مكه
اسوان
الربع الخالي
حضرموت
اليمن
بحر العرب

الفصل الأول
أحوال المسلمين قبل الغزو المغولي

في الجزء الشرقي من البلاد الإسلامية كان هناك خمس قوى هي : الخوارزميون ، والسلاجقة ، والغوريون ، والطائفة الإسماعيلية، والخليفة العباسي . وكانت هذه القوى في خلاف مستمر ، وصراع دائم أكل الأخضر واليابس ، وأضعف القوة الاسلامية المادية والمعنوية والعسكرية ، وجعل تلك البلاد أوهى من بيت العنكبوت . وسنتحدث عنها فيما يأتي :-

المبحث الأول : العلاقات بين القوى الاسلامية في الجزء الشرقي من العالم الاسلامي

أولا : الخوارزميون والسلاجقة :

لقد أسس الدولة الخوارزمية « نوشتكين » الذي كان عبداً اشتراه أحد الأمراء السلاجقة ، وتولى بعض المناصب إلى أن أصبح حاكماً على إقليم « خوارزم » وتلقب بلقب « خوارزم شاه » سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) .

وعندما شعر خلفاء « نوشتكين » بضعف الدولة السلجوقية أخذوا يعملون على الإستقلال عنها ، ولما اعتلى السلطان « تكش » ٥٦٨ ـ ٥٩٦ هـ (١١٧٢ ـ ١١٩٩ م) العرش الخوارزمي وسع نفوذه مستغلا الخلاف الذي حصل بين « طغرل الثالث » ـ آخر السلاطين السلاجقة ـ والخليفة العباسي «الناصر لدين الله » فوقف « تكش » هذا الى جانب الخليفة وحارب « طغرل الثالث » وقتله ،

وضم أَملاكه إلى سلطانه ، وفي وقت قصير استقل على العراق العجمي ، وتقلد حكم جميع هذه البلاد رسميا من الخليفة العباسي ، وبهذا طويت صفحة السلاجقة من المشرق .

وهكذا صارت الدولة الخوارزمية تتسع شيئا فشيئا على حساب الأقاليم المجاورة حتى بلغت أقصى اتساعها في عهد السلطان « علاء الدين محمد خوارزم شاه » ٥٩٦ ـ ٦١٧ هـ (١١٩٩ ـ ١٢١٩ م) .

ثانيا : الخوارزميون والغوريون :

ولم يلبث السلطان « محمد خوارزم شاه » أن دخل في معارك مع « الغوريين » الذين كانوا يسكنون شرقي خراسان ، وقسما من « أفغانستان » الحالية وغرب الهند ، وكانت هراة ؛ غزنة ، وبلخ ، وكابل ، وسجستان ، وكرمان ضمن أملاكهم وانتهت المعارك بهزيمة « الغوريين » بعد أن استعان السلطان « محمد خوارزم شاه » بـ « القراخطائيين » الكفار ضدهم .

وبعد ذلك ارتكب « خوارزم شاه » حماقة بمحاربته « القراخطائيين » وهزيمتهم لأن هؤلاء كانوا سداً منيعا بين المغول والمسلمين ، وبهذاأصبح « المغول » وجها لوجه مع المسلمين[1] .

ثالثا : الخوارزميون والخليفة العباسي :

بعد هزيمة السلاجقة والقضاء عليهم بمعاونة « محمد خوارزم شاه » تبين للخليفة العباسي « الناصر لدين الله » أن للخوارزميين أطماعا في إقليمه « العراق » وأنهم لا يقلون خطرا على دولته من السلاجقة .

---

(١) لتفصيل اكثر راجع كتاب « المغول في التاريخ » من صفحة ٦١ ـ ٦٨ (للدكتور ـ الصياد) .

حاول السلطان « محمد خوارزم شاه » أن تكون له المنزلة الأولى في بغداد بالطرق الودية أولا فلما عجز لجأ إلى استعمال القوة ، وصمم على غزو بغداد لأن الخليفة احتقره عندما أساء معاملة رسله ، ورفض أن يأتمر بأمره أو أن تذكر الخطبة باسمه على منابر بغداد ، كما كان الوضع في عهد « السلاجقة والبويهيين »[1] .

وليثير المسلمين على الخليفة ويدفعهم إلى الوقوف إلى جانبه أعلن السلطان « محمد خوارزم شاه » بأن الخلفاء العباسيين تقاعسوا عن الجهاد وتركوا حماية الثغور ، ولم يقمعوا الفتن ، وأنهم للخلافة مغتصبون وأن آل علي أحق منهم بها ، وليزيد من أنصاره اعتنق مبادىء الشيعة[2] .

وبناء على ما تقدم استصدر السلطان « محمد خوارزم شاه » فتوى من العلماء بتأييد قراره بعزل الخليفة ، وإسقاط اسمه من السكة والخطبة ووقع اختياره على رجل علوي من مدينة « ترمذ » اسمه « علاء الدين » فنادى به خليفة للمسلمين ، وخطب له على المنابر ، وضرب النقود باسمه[3] .

بعد ذلك عزم السلطان « محمد خوارزم شاه » على القيام بحملة على بغداد سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) بعد أن قضى على كثير من أعوان الخليفة المجاورين له .

أرسل الخليفة « شهاب الدين السهروردي » إلى « خوارزم شاه » ليعرض عليه الصلح إلا أن هذا استقبله إستقبالا سيئا[1] عند ذلك أرسل الخليفة إلى « جنكيز خان » طالبا مساعدته ضد السلطان « خوارزم شاه » وكانت الطامة الكبرى والجريمة النكراء التي إرتكبها الخليفة فقد لفت هذا الطلب نظر « المغول »

(١) البداية والنهاية : لابن كثير م ٧ ج ١٣ ص ٢٧ .
(٢) (٣) الدكتور الصياد : المغول في التاريخ ص ٧١ ، الجويني : تاريخ جهانكشاي ج٢ ص ٩٦ .
(٣) البداية والنهاية م ٧ ج ١٣ ص ٧٦ .

إلى التدخل في العالم الإسلامي وعرَّفهم بمدى تفرق المسلمين .

وجه « خوارزم شاه » حملته إلى بغداد بعد فشل « شهاب الدين السهروردي » في إقناعه بالعدول عن ذلك ، إلا أن عواصف ثلجية شديدة هبت على قواته في منطقة « أسد أباد » لمدة ثلاثة أيام فقطعت أيدي الرجال وأرجلهم ، وعمهم من البلاء ما لا يحد ولا يوصف[1] ولهذا فشلت حملته فشلا ذريعا .

وقد كانت هذه الحروب التي خاضها السلطان « خوارزم شاه » سببا في استنزاف القوى الإسلامية في هذه المنطقة ، كما أن هذه الدولة كانت في الحقيقة تحمل هى الأُخرى عوامل الضعف والإنحلال لتسلط طبقة العسكريين عليها ، كما أن الناس لم يغفروا للسلطان قتله « مجد الدين البغدادي » أحد كبار المتصوفين في ذلك العصر ، ولم يكن من السهل على الفقهاء أَيضا إغتصاب الفتوى منهم ضد الخليفة ، أَضف الى ذلك أَن الشعوب الإسلامية التي كان السلطان « خوارزم شاه » قد حررها من حكم الكفار ، قد ثاروا على محرريهم نتيجة سوء تصرف جنوده وأَتباعه ، ولم يستطع السلطان إخضاع هذه الشعوب إلا بإراقة أَنهار من الدماء مما أَوغر صدورهم عليه ، وكرههم في حكمه . وكذلك لم يكن في مقدور السلطان أَن يعتمد على عنصر واحد سليم من العناصر التي يتكون منها جهاز الحكم أَو على طبقة واحدة من طبقات الشعب .

وقد كان لهذه الأُمور مجتمعة وللحروب التي خاضها ضد القوى الإسلامية أثر سيء على الدعوة الإسلامية ، فقد أَحرجت هذه التصرفات ـ الخارجة على أَوضح المبادىء الإسلامية ـ دعاة الإسلام وجعلتهم غير قادرين على القيام بواجبهم في حث المسلمين على الجهاد أَو التضحية لأَنهم يرون صراع قادة المسلمين فيما بينهم

---

(١) البداية والنهاية م٧ ج ١٣ ص ٧٦ .

وعدم التزامهم بالطاعة للخليفة .

ومن هنا يمكننا أن نفهم النتيجة الحتمية للنضال الذي سوف ينشب بين هذه القوى وبين قوات البدو الهمجية التي اتحدت في ذلك الحين تحت قيادة واحد من أعظم القواد الموهوبين قدرة على التنظيم ذلك هو « جنكيز خان » .

رابعا : طائفة الإسماعيلية :

يعتبر « الحسن بن الصباح » المؤسس الحقيقي للطائفة الإسماعيلية في إيران (أنظر الصفحة المقابلة) إذ أخذ في الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة في « فوهستان » وكانت أهمها قلعة « ألموت » التي استولى عليها سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة لملكهم ، ولم يقف أمر « الصباح » عند هذا الحد ، بل استطاع ـ بمعاونة أتباعه ـ أن يستولى على المنطقة جنوبي بحر قزوين بأكملها[١] .

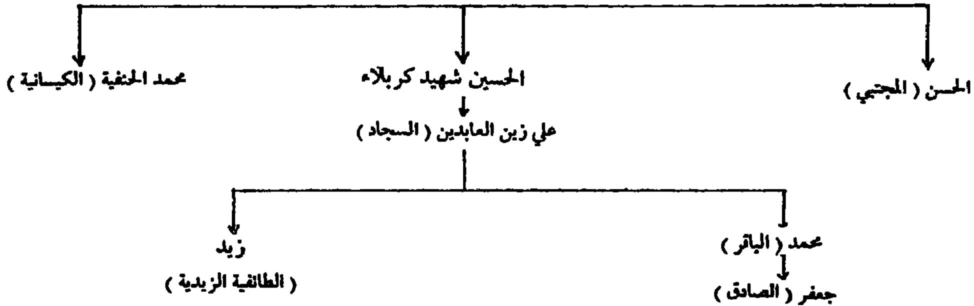
ولقد اشتهرت الطائفة الإسماعيلية في التاريخ بأنهم قوم محاربون أشداء ، بثوا الرعب في النفوس ، وعاثوا في الأرض فساداً ، وقاوموا سلاطين السلاجقة ، واهتزت بسببهم السلطنة والخلافة ، فلا غرو أن كان العداء شديداً بينهم وبين سائر المسلمين ، كان لهم جهاز رهيب ، وتنظيم سري يتكون من طائفة من الشبان المغامرين الشجعان ، الممتلئين قوة وحماسة وتضحية وتفانيا في الدفاع عن عقيدتهم ، وكان هؤلاء الفدائيون يجيدون فَنَّ التخفي وساعدهم على ذلك طبيعة الدعوة الإسماعيلية الباطنية التي كانت تجري في سرية تامة ، بحيث أنه كان يتعذر على المرء أن يميز الشخص الباطني من غيره ، وكان أعضاء هذا الجهاز يختارون في

---

(١) « المغول في التاريخ » للدكتور الصياد ص ٧٧ ـ ٧٨ .

أئمة الشيعة

علي بن أبي طالب (المرتضى)



١ ـ اسماعيل (الطائفة الاسماعيلية)

٢ ـ محمد (المكتوم)

٣ ـ جعفر (الصدق)

٤ ـ محمد (الحبيب)

٥ ـ عبيد الله المهدي (اول الخلفاء الفاطميين)

(يقال انه يهودي ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية)

٦ ـ القائم بأمر الله ابي الطاهر اسماعيل

٧ ـ المنصور بالله أبي الطاهر اسماعيل

٨ ـ المعز لدين الله ابي تميم معد (باني القاهرة واول خلفائهم في مصر

٩ ـ العزيز بالله ابي المنصور نزار

١٠ ـ الحاكم بامر الله ابي علي المنصور (ادعى الالوهيـة وعلم الغيب واضاف اسمه « الحاكم » الى البسملة)

١١ ـ الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن علي

١٢ ـ المنتصر بالله ابي تميم معد

موسى (الكاظم) (الطائفة الامامية)

علي (الرضا) ـ عهد اليه المأمون بالخلافة لكنه مات قبل المأمون .

محمد (التقي)

علي (التقي)

الحسن (الزكي)

محمد (الحجة) ـ وهو المهدي المنتظر في رأي الامامية (الاثنى عشرية ينتظرون عودته)

المستعلي بالله ابي القاسم احمد (الطائفة المستعولية)

الامر بأحكام الله ابي القاسم احمد

الحافظ لدين الله ابي الميمون عبد الحميد بن أبي القاسم

نزار (الطائفة النزارية)

(يقولون بان الامامة انتقلت الى ابنه نزار بالنص وان نزار حمل في بطن جارية عبر بلاد الاعداء الى قلاع الحشاشين جنوب بحر قزوين)

الظافر بأمر الله ابي منصور اسماعيل

الفائز بنصر الله ابي القاسم عيسى بن الظافر

(لم يعقب فانتقلت الخلافة الى ابن عمه)

يوسف

العاضد لدين الله ابي محمد بن عبد الله بن يوسف الحافظ

(انهى حكمه صلاح الدين الايوبي قبيل موته وضم مصر للخلافة العباسية)

ملخص عن كتاب النجوم الزاهرة

سن مبكرة ، ويدربون تدريبات شاقة مضنية على أستعمال السلاح ، وأساليب القتال ، وطرق الإغتيال وسفك الدماء[1] .

وكانت القاعدة عندهم ، أنه إذاظهرحاكم قوي في البلاد الإسلامية المجاورة ، أسرع الفدائيون منهم إلى اغتياله ليأمنوا جانبه ، وكان هدفهم الأول من وراء ذلك هو بث الرعب والفزع في نفوس الجميع ، ونشر الاضطرابات والفتن ، وإشاعة الفوضى فيصفوف المعادين لمذهبهم ، فراح ضحيتهم كبار الشخصيات في الدولة السلجوقية حتى جردوها من قوتها الفعالة وعقولها المدبرة . مما أدى بها إلى نهايتها المؤسفة ، فلقد قتلوا أعظم وزراء السلاجقة على الإطلاق وأكبر عقلية مفكرة في دولتهم ، ألا وهو الخواجة « نظام الملك » وكان ذلك بأن تقدم إليه أحد الفدائيين من هذه الطائفة على هيئة رجل صوفي ، وطعنه بخنجره طعنة نجلاء ، خر على أثرها صريعا سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) فكان أول شخصية كبيرة تروح ضحية هذه الطائفة[٢] .

وقد قام الولاة والحكام المسلمون بتسليط بعض أفراد هذه الطائفة ضد بعضهم بعضا ، ومن أمثلة ذلك عندما قام الصراع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة أتهم السلطان « مسعود » بأنه هو الذي أوعز الى جماعة من الفدائيين بالتخلص من الخليفة « المسترشد » فقتلوه سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ومثلوا به أشنع تمثيل ، إذ أنهم قطعوا أنفه وأُذنيه ، وتركوه عريانا[٣] كذلك قتلوا ابنه « الراشد) بمدينة « أصفهان » سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) لأن محاربة الخلفاء العباسيين هدف يتفق مع مبادئهم ، كما سبق أن قامت هذه الطائفة باغتيال « أغلمش » نائب الخوارزميين في العراق العجمي ، بإيعاز من الخليفة « الناصر »

---

(١) نفس المرجع ص ٨١ و ٨٢ (ويعزو ذلك للجويني ج ٣ ص ٢٠٤) .

(٢) « المغول في التاريخ » للدكتور الصياد ص ٨٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية م ٦ ج ١٢ ص ٢٠٧ .

وقـد قام صـراع بين الإسماعيلية والـدولة الخـوارزمية سبب للطرفـين خسـائـر فادحة[1] .

ولقد تسابق الخلفاء العباسيون مع السلاجقة في التقرب إلى هذه الطائفة ، وخـطب ودهم ، والإستعانـة بهم في التخلص من الأشخاص المعـادين لهم مع علمهم الأكيد بأن هذه الطائفة تسعى للقضاء عليهم جميعا[2] .

كما قامت هذه الطائفة بأعمال إجرامية ضد الطوائف الإسلامية التي تخالفهم في العقيدة ، فأشاعوا الرعب والارهاب ، وظلموا وجاروا حتى لقد تمنى المسلمون زوال حكمهم بل لقد شجعوا المغول ، وحثوهم على محاربتهم والقضاء عليهم ، فقد ذكر « ابن طباطبا »[3] : (حدثني الملك إمام الدين يحيى بن الافتخاري قال : أذكر ونحن بقزوين إذا جاء الليل جعلنا جميع مالنا من أثاث وقماش ورحـل في سراديب لنا في دورنا غامضة خفية ، ولا نترك على وجه الأرض شيئا خـوفا من كبسات « الملاحده »[4] فإذا أصبحنـا أخرجنـا أقمشتنا ، فـإذا جاء الليـل فعلنا كذلك ، ولأجل ذلك كثر حمل « القزاونة » للسكاكين وكثر حملهم للسلاح وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر « شمس الدين » قاضي قزوين وتوجهه إلى « قاآن » وإحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ـ ما كان) .

ويذكر « الجوزجاني »[5] أن القاضي « شمس الدين أحمد الكافي القزويني »

---

(١) « سيرة جلال الدين منكبرتي » للنسوي ص ٥٥ .

(٢) (المغول في التاريخ) للدكتور الصياد ص ٨٥ .

(٣) « الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٤) إشتهر الإسماعيلية عند خصومهم باسم « الملاحدة » لأنهم غيروا وبدلوا في أركان الدين ، ودعموا آراءهم بالأقوال التي وصلت اليهم عن فلاسفة اليونان كما اقتبسوا بعض المبادىء من مذاهب المجوس . (المغول في التاريخ للصياد)

(٥) طبقات ناصري : للجوزجاني ص ٤١٣ ـ ٤١٤ .

كان على اتصال بالمغول وكان إماما عالما كبيرا ، ذهب مرة الى « منكو خان » وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة ، ويخلص الناس من فسادهم وفي أثناء حديثه ، وبينما كان مندفعا بحماسة المسلم المتدين صدرت منه كلمات جافة أغضبت « منكو خان » وكان لها أثر عميق في نفسه إذ نسب إليه الضعف والعجز ، لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة الذين يدينون بدين يخالف ديانات النصارى والمسلمين والمغول ، وما ذاك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا « منكو خان » بالمال بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته فيخرجون من الجبال والقلاع لينقضوا على البقية من المسلمين ويعفوا آثارهم .

وخلاصة القول أن الطائفة الإسماعيلية كانت من أهم العوامل التي أسهمت في إضعاف المسلمين والدعوة الإسلامية ودعاة الإسلام ، وزيادة الفرقة بينهم وتدهورهم تدهوراً كاملاً سهّل على « المغول » مهمة القضاء عليهم في الوقت المناسب .

خامسا : الخلافة العباسية :

ضعفت الخلافة العباسية ضعفا شديداً في هذه الفترة نتيجة لتسلط طوائف العسكر المختلفة على الخليفة في بغداد ، ومن المعروف أن العسكر إذا تركوا ثكناتهم وانحرفوا عن مهمتهم ، وحركوا قواتهم باتجاه عاصمة الدولة فإن هؤلاء العسكر يضلون الطريق فلا يعرفون طريق العودة إلى ثكناتهم ولا يستطيعون إصلاح الأمور السياسية ، ويورطون أنفسهم والبلاد في مشاكل كثيرة ، ذلك لأن العقلية العسكرية التي تسيطر عليهم تجعلهم يلجأون الى استخدام القوة والعنف في كل المشاكل التي يواجهونها .

فأخذوا يخلعون الخلفاء متى شاءوا[١] وإذا حاول الخليفة دفعهم الى المكان الطبيعي الذي يجب أن يكونوا فيه فإنهم يقتلونه[٢] ، أو يعمدون الى إحداث نقص أو عاهة في جسم الخليفة تبرر لهم طرده لأنه ناقص الأهلية ، فسملوا عيون كثير من الخلفاء[٣] ، ووضعوا أحدهم في كهف وقفلوا عليه بالحجارة والطين دون أن يصغوا لرجائه أو استرحامه بعد أن أذاقوه أشد العذاب[٤] .

جرائم لا يتصور الإنسان حدوثها . يرتكبونها ضد الشخص الذي يمثل الدولة الإسلامية وهيبتها . والويل كل الويل لمن يعترض العسكر ، وما أكثر

---

(١) بالنسبة للمقتدر بالله يقول ابن كثير « . . وضربه احدهم بسيفه على عاتقه فسقط على الأرض ، وذبحه آخر وتركوا جثته ، وقد سلبوه كل شيء كان عليه حتى سراويله وبقي مكشوف العورة مجندلا على الأرض حتى جاء رجل فغطى عورته بحشيش ثم دفنه في موضعه ، وعفا أثره (البدايه والنهاية م ٦ جـ ١١ ص ١٦٩) . وبالنسبة للمستنجد يقول ابن كثير « . . . ثم أدخله الطبيب الى الحمام وبه ضعف شديد فمات في الحمام . ويقال : أن ذلك كان بإشارة بعض رجال الدولة على الطبيب استعجالا لموته » . (البداية والنهاية ح ١٢ ص ٢٦٧) .

(٢) يقول صاحب « الفخري » : « . . . خلع المقتدر وبويع » « عبدالله بن المعتز » فمكث يوما واحدا في الخلافة ثم استظهر « المقتدر » عليه فأخذه وقتله . . . . وجرت بين المقتدر وبين « مؤنس المظفر » ـ أمير الجيوش ـ منافرة أدت الى حرب قتل فيها المقتدر وقطع رأسه وحمل الى بين يدي « مؤنس المظفر » ومكثت جثته مرمية على قارعة الطريق (الفخري ص ٢٦٥) .

(٣) يقول ابن كثير عن الخليفة القاهر « . . . . ثم أمروا باحضاره فلما حضر سملوا عينيه حتى سالتا على خديه . . . . ثم أرسلوه وكان تارة يحبس وتارة يخلى سبيله . . . . فخرج يوما ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس . . (البداية والنهاية م ٦ جـ ١١ ص ١٧٨) .

ويقول صاحب الفخري عن « المتقي بالله » « . . . . فلما رآه « توزون » من أمراء الجيش ـ قبل الأرض وكان قد أوصى جماعة من أصحابه سرا ان يحتاطوا به فاحتاطوا به وادخلوه الى خيمته ثم قبض عليه وسمل عينيه وخلعه . . . » (الفخري ص ٢٨٤) .

(٤) يقول صاحب « الفخري » عن موت « المعتز بالله » : « . . . . فاتفقوا على خلعه وقتله ، فحضروا إلى بابه وأرسلوا اليه وقالوا له : أخرج الينا ، فاعتذر بأنه شرب دواء ، فهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، ثم جعلوه في بيت وسدوا بابه حتى مات ، بعد أن أشهدوا عليه انه خلع نفسه . . . » .

المبررات التي يلجأ اليها هؤلاء المجرمون لتبرير جرائمهم وحماقاتهم ، وتبرير تركهم لواجب الدفاع عن ثغور الدولة وحدودها ليبقوا في الأجواء المعطرة داخل المدن يحاربون ولاة الأمور تحت شعار الإصلاح ، ويقتلون الناس تحت شعار ضمان حريتهم وحرية أمتهم . وما أسهل أن يقتل هؤلاء اخوانهم ، أو يعذبوهم ، أما الثغور الإسلامية ، أما الدفاع عن المسلمين ومحارمهم فهذا شيء عارض ، فإذا جاء وقته وجدتهم لا يجيدون إلا الهروب من وجه الأعداء دون أن يثبتوا في معركة واحدة مشاركين النساء والأطفال ، مبررين ذلك بشتى الحجج والمعاذير الواهية . ويذكرني موقف أولئك الزعماء بقول الشاعر المعاصر(١) .

يـا شعب قـد حلقت زعـا	متـك البـلاد فقـل نعيـما
ولـتـسـقط الاوطـان ولـ	يـبق الـزعـيم لـنـا زعيـما

هذه هي أوضاع الخليفة قبل الحروب التي شنها المغول على البلاد الإسلامية ولا يمنع هذا من ظهور خليفة قوي تساعده بعض الظروف على القيام ببعض الإصلاحات ، ولكنها صحوات تشبه صحوات الذي يعاني سكرات الموت ، إلا أنها كانت على أي حال رمزا لوحدة المسلمين ، ومعقدا لآمالهم ، راجين من الله أن يبعث لها من الرجال من يعيدون لها كامل قوتها وعزها ومجدها .

المبحث الثاني : الأيوبيون في مصر والشام

كان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » شخصية إسلامية فذة ومثلا أعلى للهمة والشجاعة ، وكان قائداً عظيماً ، وسياسياً محنكاً ، نهج نهجا إسلاميا فاقتفى

---

(١) الأستاذ : أحمد فرح عقيلان .

أثر سلفه الصالح السلطان « نور الدين محمود » في تشجيع الدعوة الإسلامية ، فزاد في عدد المدارس الإسلامية التي فتحها سلفه لتخريج الدعاة ولتوضيح الإسلام ولإعادة المسلمين إلى جادة الإسلام باقتفاء أثر السلف الصالح ـ بعد أن أصبح الإسلام غريبا بينهم ـ لأنهما آمنا بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، فأثمرت جهودهما أيما إثمار ، فتوحدت في عهد « صلاح الدين » قلوب المسلمين في مصر والشام وأصبحوا يداً واحدة فتحققت لهم ـ نتيجة لذلك ـ أروع الإنتصارات على أعدائهم الذين كانوا جيمع دول أوربا وممالكها واستطاع أن يأسر في معركة « حطين » سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) عدداً من ملوك أوربا وأمرائها وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى[١] .

وقد فتح الله على المسلمين « بيت المقدس » وعدداً آخر من البلدان والحصون ، التي كانت في أيدي الصليبيين ، كما كان هذا النصر سببا في ضعف الصليبيين والقضاء عليهم فيما بعد .

ولكن بعد أن توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣ م) تفككت أملاكه ، ووزعت بين أبناء البيت الأيوبي ذلك لأنهم اعتبروا مملكته تركة خاصة وقد قسمت إلى خمسة عشر قسماً[٢] ، تزيد وتنقص حسب نتيجة المعارك التي كانوايخوضونها ضد

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جزء ١١ ص ٢٢٤ .

(٢) وزعت مملكةصلاح الدين كالآتي :

(١) الموصل : كانت في عقب عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود (ملكها في هذه الفترة أرسلان شاه) .

(٢) دمشق وما حولها : أعطيت للملك الأفضل نور الدين علي .

(٣) مصر : أعطيت للعزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان .

(٤) حلب : أعطيت للظاهر غياث الدين أبو منصور غازي .

الأيوبيون في مصر والشام
قبيل الغزو المغولي

البحر الأبيض المتوسط
بادية الجزيرة
بادية الشام
بادية العراق
مصر
النفوذ
الجوف
المدينة المنورة
مكة المكرمة
اليمن

بعضهم بعضاً ، أو ضد أعدائهم ، إذ ما لبثت عوامل الإنقسام والشقاق أن دبت بين أبناء « صلاح الدين » أنفسهم ، وانتهز « العادل » ـ أخو صلاح الدين ـ تلك الفرصة ورأى أن يجمع هذا الشتات تحت إمرته فلم يتردد في فرض سلطانه على مصر إلى جانب أملاكه في الشام ، وهكذا لم يمض على وفاة « صلاح الدين » سوى سبع سنوات حتى طوى « العادل » معظم أولئك الأبناء فقد قال : إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب »[1] .

ورغم كل ذلك فان « العادل » لم يستطع أن يسيطر على كل ما تركه « صلاح

= (٥) الكرك والشوبك وبلاد جعبر أعطيت للعادل سيف الدين بن أيوب (أخي صلاح الدين) .

(٦) حماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم : أعطيت للملك المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر (ابن أخي صلاح الدين) .

(٧) اليمن : أعطي للسلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (أخي صلاح الدين) .

(٨) حمص وأرحبة وتدمر : أعطيت لشيركوه بن شاري .

(٩) بعلبك وأعمالها : أعطيت للأمجد بن مجد الدين بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن ايوب .

(١٠) بصرى واعمالها : أعطيت للظافر بن خضر بن السلطان صلاح الدين .

(١١) شيرز : بيد سابق الدين عثمان بن الرايه .

(١٢) صهيون وحصن برزيه : بيد أبي قبيس وناصر الدين بن كورس بن خماردكين .

(١٣) كوب وعجلون : بيد عز الدين أسامه .

(١٤) تل باشر : بيد بدر الدين دلدرم بن بهاء الدين باروق .

(١٥) بعرين وكفر طاب وفاميه : بيد عز الدين ابراهيم بن شمس بن المقدم . (ملخص عن : المختصر في أخبار البشر) .

(١) « السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي » ج ١ ص ١٥٥ . وكتاب « المغول » في التاريخ للدكتور (الصياد) ص ٨٨ .

الدين » بل ظلت الدولة مقسمة إلى سبعة أقسام[1] ، وكثيرا ما استقل بعضها إستقلالا تاما عن مصر ، وخضع لها البعض الآخر خضوعا إسميا[2] ، وكثيرا ما كان يحتدم النزاع بين حكام هذه البلاد فيستعين الواحد منهم على الآخر بعدو ثالث ، بل وصل الأمر الى استعانة بعضهم بالصليبيين على أقاربهم من الأيوبيين[3] .

وعلى هذا فإن بلاد الشام أيضا كانت في حالة من الإنقسام والحزازات والتباغض والشحناء أشد مما كانت عليه ايران ، وخراسان ، والعراق ، أضف الى ذلك أن هذه البلاد كانت قد وصلت الى حالة شديدة من الضعف نتيجة للحروب الصليبية التي خاضتها لمدة قرن من الزمان ، تصد تلك الحملات فلما شن « المغول » غاراتهم المدمرة على البلاد الإسلامية كان من الطبيعي أن يقف حكام تلك المناطق في حالة عجز تام عن مد يد العون لاخوانهم في الشرق ، وكل ما فعلوه أنهم وقفوا يرقبون المعركة في غير اهتمام ولا بعد نظر منتظرين ما سيحل بهم[4] .

---

(١) كانت مقسمه في عهد العادل كما يلي : (عن المختصر في اخبار البشر)
(١) حماه (وتوابعها) للملك المنصور محمد بن الملك المظفر ، تقي الدين عمر (ابن أخي صلاح الدين)
(٢) حمص (وتوابعها) لشيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاري .
(٣) دمشق . للمعظم عيسى بن العادل
(٤) الجزيرة . للاشرف موسى .
(٥) قلعة جعبير : للحافظ ارسلان .
(٦) مصر : للكامل .
(٧) ديار بكر : للاوحد الأيوبى

(٢) حافظ حمدي : الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولي ص ١٢٠

(٣) « المغول في التاريخ » للصياد ص ٨٨ .

(٤) الصياد ـ المغول في التاريخ ص ٨٩

كما أن سلاجقة الروم المسلمين كانوا في نزاع دائم مع الدولة البيزنطية ثم مع الصليبيين ، فهم أول من تصدى للحملة الصليبية الأولى من القوى الإسلامية كما أن حكام هذه الدولة كانوا في نزاع مستمر مع غيرهم من السلاطين المسلمين .

من هذا العرض السريع يمكننا أن نتوقع النتيجة الحتمية للمعركة القادمة التي ستنشب بين المسلمين من ناحية ، وبين القبائل المغولية من ناحية أخرى .

المبحث الثالث: الخلافات المذهبية

كان للخلافات المذهبية أسوأ الأثر في نفوس الناس ، وفي تفرقهم شيعاً وأحزاباً ، وقد قامت بينهم الحروب الطاحنة التي أزهقت كثيراً من الأرواح وخربت بسببها البيوت ، ومن المعروف تاريخياً أن مجتمع بغداد كان يتكون من مسلمين سنيين ، وشيعة ، ونصارى ، ويهود ، وكانت تقوم بين هؤلاء مناقشات دينية تنتهي أحياناً بقتال شديد يضطر الدولة للتدخل بجيشها لإنهائه[1] .

على أن أشد المعارك ضراوة تلك التي كانت تقوم بين الشيعة[2] والسنة والتي

---

(١) « المغول » د . الباز ص ٢١٥

(٢) الشيعة : هم الذين شايعوا أمير المؤمنين على بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وقالوا بإمامته ، وخلافته أيضا ووصايته إما جليا أو خفيا ، وأن الإمامة لا تخرج عنه ، وعن بنيه إلا بظلم من غير ذلك الإمام ، أو بتقية منه لغيره (صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٢٦) قال الشهرستاني في « الملل والنحل » ويجمعهم القول بوجوب التعيين للإمام ، والتنصيص عليه ممن قبله ، وثبوت عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر ، والصغائر والقول بالتولي للأئمة والتبرىء من غيرهم . وقال في التعريف (الشهرستاني) ـ أنظر صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٢٦ وما بعدها) يجمعهم حب علي رضي الله عنه وتختلف فرقهم فيمن سواه ، فأما مع إجماعهم على حبه فهم مختلفون في اعتقادهم فيه ، فمنهم أهل

كانت تتكرر كل عام تقريبا ، ومن ذلك أنه في أواخر عهد المستعصم نشب قتال بين الشيعة وأهل السنة ، فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر بفض هذا النزاع ، فأغار « أبو بكر » على مقر الشيعة في « الكرخ » وزعموا أنه ارتكب كثيراً من الفظائع ، فقتل الرجال ، وسبى النساء ، وسفك الدماء ، وهتك الأعراض[1] ، واستباح الحرمات ، فان لهذا التصرف أسوأُ الأثر في نفوس الشيعة فنقموا على « المستعصم » وعلى إبنه ، وقد ا أثار هذا الحادث كوامن الأحقاد على الدولة العباسية فكرهوها ، وتمنوا زوالها ، كما أن وزير الخليفة « مؤيد الدين بن العلقمي » ـ الذي كان من كبار

غلو مفرط ، وعتر (فروع) زائدة ، ففيهم من أدى به الغلو إلى أن اتخذ عليا إلها وهم « النصيرية » ومنهم من قال إنه النبي المرسل ، وأن جبريل غلط ومنهم من قال إنه شريك في النبوة والرسالة ، ومنهم من قال : إنه وصي النبوة بالنص الجلي ، ثم تخالفوا في الإمامة بعده ، وأجمعوا بعده على الحسن ثم الحسين ، وقالت فرقة منهم : وبعدهما محمد بن الحنفية (صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٢٦ وما بعدها) . وفرقة الشيعة التي نعنيها هنا هي « الإمامية » أو « الاثنى عشرية » وهم القائلون بإمامة أثنى عشر إماما أولهم علي المرتضى ثم إبنه الحسن المجتبى ثم إبنه الحسين شهيد كربلاء (انظر الصفحة المقبلة) وآخرهم هو « محمد الحجة » وهو المهدي المنتظر ، ويقولون إنه دخل مع أمه صغيرا سردابا بالحلة بالقرب من بغداد ففقد ولم يعد ، فهم ينتظرونه إلى الآن ، ويقال إنهم في كل ليلة (ليلة معينة من السنة) يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب إلى مغيب الشفق ينادون : أيها الإمام ، قد كثر الظلم ، وظهر الجور فاخرج إلينا : ثم يرجعون إلى الليلة الأخرى (صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٢٩) وتلقب هذه الفرقة بالموسوية أيضا لقولهم بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه موسى « الكاظم » دون أخيه إسماعيل ـ إمام الإسماعيلية ـ ويسمون أيضا بالروافض لأنهم حينما كانوا يحاربون مع « زيد بن علي زين العابدين » ضد القائد الأموي « يوسف بن عمر الثقفي » في عهد هشام بن عبدالملك ناظرهم زيد في إمامة الشيخين (أبي بكر وعمر) ورأوه يقول بإمامتهما ، ولا يتبرأ منهما ، رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة (انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٩٨ الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م) . قال الشهرستاني في التعريف (الملل والنحل) (وهم مسلمون ؛ إلا أنهم أهل بدعة كبيرة سبابة) ويرون جواز التقية ، وخطأ من أعان الشيخين على الخلافة ، ويقولون ببقاء حكم المتعة ، وهي النكاح المؤقت الذي كان في صدر الإسلام ويقولون باشتراط العصمة في الأئمة .

(١) المختصر في اخبار البشر لابي الفداء ج ٣ ص ١٩٣ .

الشيعة ـ تألم جداً لوقوع هذا الحادث ، وكاتب المغول سراً[1] وهون عليهم أمر احتلال بغداد ، ونصح الخليفة بمصانعة المغول وإرضائهم ببعض المال الذي يوفره من تسريح الجيوش الكثيرة العدد التي ينفق عليها المال بدون حاجة اليها[2] وقد كانت هذه النصيحة القشة التي قصمت ظهر البعير .

ويورد « رشيد الدين » رواية الشيعة الفرس ، التي تعتبر « داودار »[3] الخليفة « أيبك » ـ وهو سني ـ مسئولا عن هذه الكارثة ، إذ أثار خوف الخليفة وذلك بتهديده بعزله عن الخلافة ، فاتهم « أيبك » الوزيرَ ابن العلقمي بأنه يتآمر مع المغول[4] .

على أنه من المؤكد أن ابن العلقمي كاتب المغول بدليل أن المغول لم يتعرضوا له بأي أذى ولا لأهل بيته .

ويدل اختلاف الروايتين على الإنقسام الشديد في بغداد بين أهل السنة والشيعة ، الذي أفاد منه « المغول »[5] إلا أن « المغول » لم يفرقوا في مذابحهم للمسلمين بين سني وشيعي ، وفي هذا عبرة دائمة وتذكرة صارخة .

---

(١) « البداية والنهاية » لابن كثير ج ١٢ ص ٢٠١ .
(٢) المختصر في اخبار البشر لأبي الفداء ج ٣ ص ٢٠٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
(٣) الداودار : كلمة فارسية معناها كاتب .
(٤) « جامع التواريخ » رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ . (الترجمة العربية) .
(٥) « المغول » للدكتور الباز ص ٢١٥ .

المبحث الرابع : انتشار الموبقات في العالم الاسلامي

أولا : الخمر :

﴿ واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾[1] صدق الله العظيم .

حرَّم الإسلام كل مسكر بطريقة سهلة ميسورة وعلى مراحل ، والتزم المسلمون بأمر الله ، فعندما سمعوا قول الله **﴿ يا ايها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ﴾**[2] قالوا : انتهينا يارب ، وقام كل واحد منهم إلى ما عنده من الخمر ، وسكبها « فجرت في سكك المدينة »[3] .

وقد أجمع الفقهاء على أن كثير الخمر وقليله حرام لأن « ما اسكر كثيره فقليله حرام » وأما النبيذ فمسكره محرم ، وقد اجتهد بعض فقهاء الحنفية في العراق ، وحللوا بعض الأنبذة غير المسكرة ، فشرب الخلفاء وبعض الناس هذه الأنواع غير المسكرة ، ثم لم يلبثوا أن تجاوزوا ما حلله الاحناف الى المسكر المحرم من الأنبذة والخمور ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

---

(١) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٢) سورة المائدة آية ٩٠ ، ٩١ .

(٣) أنظر تفسير ابن كثير سورة المائدة .

أَبـاح العـراقي[1] النبيـذ وشـربـه   وقـال حـرامـان المـدامـة والسكـر
وقـال الحجازي[2] الشـرابـان واحـد   فحـل لنـا من بـين قـوليهـما الخمـر
سـآخـذ من قـوليهـما طـرفيهـما   وأَشـربها لا فـارق الـوازر والـوزر[3]

فقد جاء ابن الرومي بمذهب ثالث وهو تحليل جميع أنواع الخمر وتبعه في ذلك كثير من مُجّان الشعراء والناس ، وقد بدأ الخلفاء بشرب النبيذ غير المسكر ، كما ذكرنا ، ثم تورط بعضهم وشرب أنواعا مسكرة ، وتبعهم في ذلك وزراؤهم ونـدماؤهم وكثير من كبار رجال الدولة والأُمراء[4] .

وكان يحلو لهؤلاء الشرب في البساتين بين الأَزهار ذات الروائح الطيبة وتحت الأَشجار الوارفة الظلال بينما يغني المغنون بين أَيديهم .

وقد أَدمن بعض الخلفاء شرب الخمر ، وحولوا قصـور الخلافـة في بعض الأَوقات إلى مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وكذلك كانت قصور كثير من الأُمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ، وعلية القوم[5] .

وكان الخليفة العباسي « الراضي » عاهد ربه ألّا يشرب وظل على ذلـك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائه بالشرب . ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفر عنها . وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء العباسيين « المستكفي » كان قد ترك الشراب ، فلما ولي الخلافة دعا به توا ، وعاد الى شربه[6] .

---

(١) يقصد ابا حنيفه .
(٢) يقصد مالكا .
(٣) ديوان ابن الرومي ج ٣ ص ٩٨٣ ـ ٩٨٤ تحقيق الدكتور « حسين نصار » .
(٤) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني « د . شوقي ضيف » .
(٥) « البداية والنهاية » لابن كثير ج ١١ ص ٣٤ .
(٦) « مروج الذهب ومعادن الجوهر » للمسعودي م ٢ ج ٤ ص ٣٦١ .

وكان الذين يشتغلون في الحانات ـ رجالاً ونساءً ـ من غير المسلمين بل والمشرفون عليها كانوا من اليهود والنصارى ، وكانوا حريصين جداً عل نشر هذه الآفات في المجتمع الإسلامي ، ونشر الشعر الذي يدعو إلى الخلاعة وتلحينه وغنائه ، ونشر الشراب ، ودفع الشباب إلى التفتيش عن المرأة وجمالها ووصلها ، ذلك لأنهم يعلمون أن هذه هي أقصر الطرق إلى تسهيل القضاء على المسلمين ، والدعوة الإسلامية ، بتحطيم المجتمع الإسلامي من الداخل وذلك بدفع الشباب المسلم إلى إشباع البطن والفرج ، وحصر تفكيره ونشاطه في ذلك ، وقد قال الجاحظ :

« ومن تمام آلة الخَمّار أن يكون ذميا ، وأن يكون اسمه « أُذين » أو « مازياد » أو « ازدانقاذار » أو « ميشا » أو « شلوما » ويكون أرقط الثياب .

وكانت الحانات مملوءة بالجواري الفاتنات ، وغالبا ما كن أجنبيات من أجناس مختلفة ، والشباب والشعراء يأتون إليهن ، وكن يعرضن أنفسهن على الشباب والشعراء بلا تحفظ ، وبلا حشمة أو كرامة ، وكن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الشباب ، ويستكثرن من العشاق بطرق غير مستقيمة فكن سببا في كثير من الفجور والمجون وكل شيء حولهن يدفعهن إلى هذا السلوك الآثم [1] .

وصور الجاحظ ذلك فقال [2] : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق ـ بالمنشأ ـ وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث . . . . . و . . . . . وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا تسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى

---

(١) « تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني » د . شوقي ضيف ص ٩٣ و ٩٤ .

(٢) « كتاب القيان » رسائل الجاحظ ج ٢ ص ١٧٦ (الناشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة) .

ثقة ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروى الحاذقة منهم أَربعة آلاف صوت (أُغنية) فصاعداً يكون الصوت فيها بين البيتين إلى أَربعة أَبيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب منْ عقاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة والعشق والصبوة ، والشوق ، والغلمة[1] .

وفي سبيل القضاء على الدعوة الإسلامية وتحطيم الإسلام في نفوس المسلمين حوَّلَ النصارى أَديرتهم إلى دور للعبث ، واللهو الماجن ، وساعدهم على ذلك ما كانت تحويه تلك الأَديرة من خمور معتقة تقدمها لروادها وكانت هذه الأَديرة متناثرة في ضواحي « بغداد » « وسامراء » وفي طول البلاد الإسلامية وعرضها فأَكثر الشعراء والشباب من الإختلاف اليها طلبا للخمر والمجون ، وأَكثروا من التغني بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات حتى لقد أُلفت الكتب في ذلك مثل كتاب « الديارات » « للشباشتي » ، وهو يكتظ بأَشعار ابن المعتز ، وغيره . ومن شعره في ذكر لياليه « بالمطيره » احدى متنزهات سامراء وبالكرخ وحاناته و « بدير السوسي » وراهباته[2] .

يا ليالِيَّ بالمطيرة والكر ... خ ودير السوسيِّ بالله عودي
كنت عندي أُنموذجات من الـ ... جنة لكنها بغير خلود[3]

وكان لكل دير عيد تقريبا يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون ، والهزل ، وكانت هذه الأَديرة تستغل أعياد النصارى لدعوة شباب المسلمين وتسهيل وصولهم إلى الموبقات

---

(١) العلمة . شدة الشبق او الهيج الجنسي .

(٢) لتفصيل أكثر أنظر : « تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني » للدكتور شوقي ضيف ص ٩٤ .

(٣) الديارات . للشابشتي ص ١٤٩ .

ومن تلك الأعياد « عيد الميلاد » الذي كانوا يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران[1] ومنها عيد « الشعانين » أو « عيد الزيتونة » وهو يقع في يوم الأحد الذي يسبق « عيد الفصح » من كل سنة « وعيد الفصح » وكان يحتفل فيه « دير سمالو » شرقي بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول « محمد بن عبدالملك الهاشمي »[2]

ولرب يوم في « سمالو » ثم لي فيه السرورُ وغيبت أحزانُه
فتلاعبت بعقولِنا نشواتُه وتوقدت بخدودِنا نيرانُه
حتى حسبت لنا البساطَ سفينةً والديرُ ترقصُ حولنا حيطانُهُ

وكان يقام في « اكتوبر » عيد للقديسة « أشموني » في « قُطْرَبُّلْ » وهي قرية في شمال بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين ، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب برا ، والسفن في دجلة بحرا متنافسين فيها يظهرونه هناك من زيهم ، وزينتهم ، ومباهين بما يعدونه لقصفهم ، وكانوا يضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط ، وتعزف عليهم القيان ، وهم يحتسون كؤوس الخمر .

وبالمثل كانوا يصنعون في عيد « دير الزندورد » بالجانب الشرقي لبغداد وفيه يقول « جحظله » :

سقيا ورعيا لدير « الزندورد » وما يحوي ويجمع من راح وريحان
دير تدور به الأقداحُ مترعةً من كف ساق حَريص الطرف وسنان
والعود يتبعه ناي يوافقه والشدو يحكمه غصن من البان[3]

(١) « الكامل في التاريخ » لابن الاثير الجزء الثامن ص ٢٢٢
(٢) الديارات« للشابشتي » ص ١٤ .
(٣) الديارات « للشابشتي » ٣٣٨ .

وبالإضافة إلى الأعياد النصرانية التي كانت تقام فيها الحفلات الماجنة الداعرة أحيا الفرس أعيادهم ، وأخذوا يحتفلون بها ويقدمون من الخمور والمأكولات، ما لا يتصوره عقل[1] ومنها « عيد النيروز » في أول الربيع وهو أول السنة الفارسية « وعيد المهرجان » في أول الشتاء ويحتوي ديوان « البحتري » على وصف لبعض ما كان يجري في تلك الأعياد مثل :

لا تخل من عيش يكر سروره أبدا ونيروز عليك معاد

وفي بيت آخر :

وكأن الأيام أوثر بالحسن عليها المهرجان الكبير

ولا شك في أن كل ما ذكرناه أعد لإنتشار المجون والخلاعة في « بغداد » و « سامراء » بل وفي كثير من البلاد الإسلامية ، إذ كانت الخمر في كل مكان تقريبا ، ومعها القيان المبتذلات وعم تبعا لذلك الشعر الصريح بل المفرط في الإباحية ، وفي التعبير عن الغرائز الجسدية التي تدفع الشباب إلى الجري وراء إشباع غرائزه تاركا واجبه نحو الدعوة الإسلامية ، والثغرة التي هو عليها ليؤتى الإسلام من ناحيته ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثانياً : الجواري والنساء والغلمان

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الدنيا حلوة خضره ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فان أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)[2] . صدق رسول الله .

---

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني للدكتور شوقي ضيف ص ٩٥ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري ج ٢ ص ٣١٠ .

انتشر الرقيق في المجتمع ، فقد كان موجودا في كل مكان ، في القصور والأكواخ ، والمصانع والمزارع ، وكان منهم الزنجي الإفريقي والحبشي والتركي والصقلبي ومنهم الصيني ، والخراساني ، والأرمني ، والبربري ، فكان المجتمع الإسلامي في تلك الفترة يجمع كل الأجناس .

ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ في الحرب أسيراً كافراً فقد قلد المسلمون الشعوب الأخرى ، فشاركوهم في تجارة الرقيق وخرجوا بها عن حدودها الشرعية ، فبنوا لها في كل مدينة كبيرة سوقاً خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى « قيم الرقيق »[1] .

ويذكر اليعقوبي أن سوق سامراء في القرن الثالث الهجري كانت مربعة وبها طرق متشعبة ، وفيها الخمر والغرف والحوانيت[2] .

ومن المعروف أن الإسلام منع جميع مصادر الرق ، ولم يبق إلا مصدراً واحداً فقط « وهو الرق عن طريق الحروب » لاستحالة منعه وذلك لأن الذي يأمر بالمنع لا بُدَّ أن يكون مطاعا من جميع الأطراف ، ولما كانت أوامر الإسلام غير مطاعة عند أعداء الإسلام ، فقد أصبح إلزام المسلمين بالمنع تشجيع لأعدائهم على محاربتهم ، وأما مصادر الرق الأخرى فقد منعت تماما .

ثم إن هذا المصدر سلط الإسلامُ عليه طرقاً عدة للتخلص منه ، فجعل كفارة كثير من الذنوب عتق رقبه ، وجعل القربى إلى الله في عتق الرقاب .

ثم أمر بحسن معاملة الرقيق « هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم

---

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني للدكتور شوقي ضيف ص ٨٠ .

(٢) جغرافية اليعقوبي ص ٢٥٩ .

فـاطعموهم ممـا تأكلون ، والبسـوهم مما تلبسـون ولا تكلفوهم مـا يغلبهم فـان كلفتموهم فأعينوهم[١] .

وأمر أن يطعموا من نفس طعام السيـد ، وأن يلبسوا من نفس مـا يلبس السيد ، وبهذا فإن الإسلام حرص على تحرير الرقيق من الداخل وحث على المكاتبة بين العبد ومولاه ، وهي أن يشتري العبد نفسه ، وأن يكتب الثمن دينا عليه[٢] .

لذلك وجدنا كثيرا من الرقيق يصلون ـ بعد تحريرهم ـ الى مناصب عالية في المجتمع الإسلامي أمثال « بلال » مؤذن الرسول ﷺ ، « وسلمان » الفارسي أمير المدائن ، كما أن « طارق بن زياد » ـ فاتح الأندلس ـ كان عبدا لموسى بن نصير ، ومن هؤلاء من كان يتمتع بجاه عظيم مثـل قواد التـرك طوال العصـر العباسي الثاني .

وقد انتشر الخصيان في المجتمع الإسلامي إنتشارا سريعاً مع أن الإسلام حرم الخصاء تحريما قاطعا ، فكان العبيد يُخْصَون خارج حدود الدولة الإسلامية ، ثم يجلبون ويباعون في أسواق الرقيق ببغداد ، وغيرها من المدن الإسلامية ويكفي للدلالة على كثرة الخصيان أن نذكر أنه كان في قصر « المقتدر » أحد عشر ألف غلام خصي[٣] ، ولو كان في الخبر مبالغة فانه يدل عـلى كثرتهم الكـاثرة في المجتمـع يومئذ .

وكان عدد الجواري والإماء في البيوت والقصور أكثر من الخصيان والرجال

---

(١) مختصر صحيح مسلم « للحافظ المنذري » تحقيق الشيخ ناصر الدين الالباني الجزء الاول ص ٢٣٨ رقم ٩٠٤ .

(٢) لتفصيل أكثر يراجع موضوع الرق في الإسلام ـ في كتاب « شبهات حول الإسلام » للأستاذ محمد قطب .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ ص ٢٣٤ ، والفخري في الآداب السلطانية ص ٢٦٠ .

الأَرقاء ، إذ أَباح الإسلام للمسلم أَن يتملك ما شاء من الجواري والإماء وهذا باب من الأَبواب التي تتحرر بواسطتها المرأَة ، فاذا حملت ووضعت أَصبحت حرة لا يباح بيعها لأَنها « أَم ولد » وقد كانت أُمهات عدد من الخلفاء أُمهات أولاد[1] .

وكثيرا من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر اللواتي كانوا يتزوجون بهن ، وهم لا يعرفونهن ، بخلاف الجواري اللائي كن معروضات لهم في الأَسواق وبيوت النخاسين ، فكانوا يختارونهن على حسب وقوعهن في نفوسهم ، ومن أَجل ذلك كان يندر تزوجهم بأَكثر من واحدة من الحرائر ، فقد كفاهم اتخاذ الإماء هذا التعدد ، فأَقبلوا عليه إقبالا كبيرا متخذين من الخلفاء ، والأُمراء قدورة لهم ، ويروي ان المتوكل كان لديه اربعة آلاف جارية[2] .

ويروى أَيضا أَن « زيادة الله بن الأغلب » أَهدى « المكتفي » حين ولي الخلافة مائة وخمسين جارية ، وقد كانت أُمهات كثير من الخلفاء ـ كما ذكرنا من قبل ـ من الجواري خاصة التركيات ، والروميات ، وكن يتدخلن في شئون الحكم[3] .

وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ، ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديدات من الجواري الحسان .

وكثيرا ما كانوا يحملون معهم الهدايا للجواري وللنخاسين ، وكان هذا

---

(١) منهم « الهادى » « والرشيد » وأمهم « الخيزران » والقائم بأمر الله وأمه اسمها « يمنى » و « المقتدي بالله » وأَمه « أُرحوانه » ـ أَرمنية وتدعي « قرة العين » و « المسترشد » وأُمه « تركيه » و « الراشد » وأُمه « أَرمية » . . . . (البداية والنهاية ـ الدوله العباسية لابن كثير في مواضع شتى) .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي التاني للدكتور شوقي ضيف ص ٨٣ (وبعرو دلك لصاحب الاعاني) .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ١٤٦ .

يكلفهم كثيرا من الأموال ، وكانت الجواري يظهرن حبهن الشديد لهؤلاء الزوار ، وكلفهن بهم ، وحزنهن لفراقهم ، أو لتأخرهم في الزيارة ، وربما زودت الواحدة منهن من تظهر له الحب بخصلة من شعرها أو قطعة من ثيابها[1]

وكان النخاسون ـ في سبيل الحصول على المال والهدايا ـ يتغافلون عن سفاهة بعض الزوار الذين كانت تمتد أيديهم للعبث باجسادهن خاصة إذا كُن راضيات عن ذلك ، وفي ذلك يقول (علي بن الجهم) متحدثا عن جواري نخاس يسمى « المفضل » وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن[2] .

أَوانس ما فيهن للضيف حشمةٌ ... ولا ربهن بالمهيبِ المُجبلِ
يُسَرّ إذا ما الضيفُ قلَّ حياؤه ... ويغفلُ عنه وهو غيرُ مغُفَّلِ
ولا يَدفعُ الأَيدي السفيهةَ غيَرةً ... إذا نالَ حَظًّا من لَبوس ومأكلِ
لكَ البيتُ ما دامت هداياكَ جمة ... ودمتَ مليأً بالشراب المعسلِ

ولقد انتشر الغناء والطرب ، وظهر في هذا العصر كثير من المغنين الذين الفَّوا الكتب وصنفوها ، واخترعوا ألحانا ومزامير ، كما ظهر بعض النساء ممن يُحْسِنَّ هذا الفن ، ويتقنَّه أمثال « دنانير البرمكية » وكان ممن أتقن الغناء « فريدة » زوجة « المتوكل » وجاريته « محبوبة » وقد انكب الناس على الغناء والرقص وعلى الدنيا حتى أن آخر الخلفاء العباسيين هاجمه المغول وهو مشغول بمحظيته التي كانت ترقص له[3] .

وكان للجواري في ذلك الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الخلاعة والإنحلال الخلقي بين الشباب ، وكثير من الشيوخ ، وُمجّان الشعراء ، إذ

(١) رسائل الجاحظ القيان ص ١٧٣ .
(٢) تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ص ٨٤ نقل عن ديوان ابن الجهم .
(٣) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٨٢ لابن كثير .

أصبحت قلوبهم مشغولة باللهو والطرب ، والسعي وراء إشباع الغرائز .

كما انتشر في العصر العباسي ، وخاصة الثاني منه حب الغلمان والغزل بهم ، واتخاذهم بدل الخليلات ، وقد انتشرت هذه الموبقات بين قادة الجيوش والسلاطين ، وقد قال أحدهم عن غلامه (. . . . ضياع هذا الغلام مني أشد عليَّ من أخذ « بغداد » من يدي ، بل وأرض العراق كلها)[1] .

وكان أحدهم يقبل « المردان » من غير ريبة أو خجل[2] .

وكانت تقام الحفلات والسهرات ، للغناء والطرب وكان إذا طرب الملك أو السلطان أعطى عطاء لا يتصور[3] .

وكان للزانيات والفساق بيوت تكاد تكون معروفة للجميع ، وتنتشر في « بغداد » وغيرها من البلاد الإسلامية الكبيرة ، وكان يردها عدد كبير من الناس يقتلون فيها ثروتهم وأعمارهم غير مبالين بدين ، ولا هيابين من سلطة ولم لا ؟ والناس على دين ملوكهم[4] .

ولم يقتصر الفساد على الجواري والغلمان ، بل تعداه في أوقات كثيرة الى الحرائر[5] ، ولا شك في ذلك فقد قال رسول الله ﷺ « عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم . . . . »[6] .

---

(١) البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٩١ .

(٢) نفس المصدر لابن كثير ج ١١ ص ٢٩١ .

(٣) نفس المصدر ج ١٢ ص ٩٢ .

(٤) نفس المصدر ج ١٢ ص ٢٢١ .

(٥) نفس المصدر ج ١٢ ص ٣٥٢ .

(٦) وبقية الحديث (. . . . . وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن أتاه اخوه متنصلا فليقبل ذلك منه محقا كان أو مبطلا ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض . رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ـ الحديث صحيح ـ أنظر السيوطي في الجامع الصغير .

وكاد زمان آخر الخلفاء العباسيين ينقضي أكثره في سماع الأغاني ومما اشتهر عنه أنه كتب الى «بدر الدين لؤلؤ» صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب ، وفي نفس الوقت وصل رسول « هولاكو » إلى صاحب الموصل نفسه يطلب منه منجنيقات ، وآلات حصار ، فقال « بدر الدين » « أنظروا الى المطلوبين ، وأبكوا على الإسلام واهله »[1] .

ويجب ألّا يتبادر إلى أذهاننا أن المجتمع الإسلامي كله انقلب إلى مجتمع فاسد بعيد عن الإسلام ، فقد كان المجتمع مجتمعا إسلاميا وكانت طبقة العامة فيه ـ التي تمثل الأغلبية ـ حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه ، وشعائره ، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الاخلاق ، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان . وكانت ساخطة سخطا شديداً على المجّان والمنحلين ، وكان المؤمنون يعمرون مساجد الله ، وكان حملة الدعوة الإسلامية لا يزالون يُذكّرون الناسَ بالله واليوم الآخر ، وأنهم معروضون يوم الحساب فإما الجنة والنعيم وإما النار والجحيم ونشأت في تلك الفترة طبقة من الزهاد ، عاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة[2] .

ولكن الطبقة الفاسدة المترفة هي التي كانت تقود الأُمة ، وتمسك بزمامها ، فقادتها إلى محاربة الفضيلة ، ونشر الرذيلة ، تحقيقا لرغبات هؤلاء المترفين وإرضاء لشهواتهم ثم سيطرت طبقة (العسكر) على أُمور الناس فقادوهم الى محاربة بعضهم بعضا وصولا إلى الحكم ، ولتوسيع رقعة الأرض التي تحت أيديهم ، فأضعفت هذه التصرفات الغبية الأُمة الإسلامية وجعلتها هشة ضعيفة خائرة مثل بيت العنكبوت ، فانهارت تحت ضربات أعدائها المتربصين بها من كل جانب ، كما سنبين ذلك في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية لإبن طباطيا ص ٢٩٠ .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني للدكتور شوقي ضيف ٩ ١٠٥ .

الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

خريطة تبين المواقع التي هاجمها المغول في الدولة الخوارزمية

البحر الأسود
سلاجقة الروم
جورجيا
كنجة
أران
أذربيجان
الجزيرة
الموصل
سوريا
اربل
همذان
نهاوند
قزوين
قم
العراق العجمي
أصفهان
بغداد
العراق العربي
خوزستان
البصرة
بلاد العرب
شيراز
فارس
يزد
كرمان
هرمز
الخليج الفارسي
آمل
الموت
مازندران
نيسابور
زوزن
خراسان
هراة
نسا
مرو
خوارزم
اقليم خوارزم
شهرستان
أوزكند
بخارى
سمرقند
ترمذ
بلخ
بلاد ما وراء النهر
نهر سيحون
نهر جيحون
أترار
خجندة
بنكت
فرغانة
بلاساغون
الدولة الخوارزمية
الغور
باميان
غزنة
كابل
سجستان
قوهستان
بلوخستان
مكران
كراتشي
بشاور
لاهور
مولتان
نهر السند
بلاد الهند
التبت
كاشغر
بارقند
نهرت ريم
دولة الخطا
بحيرة بلكاش
اميل
نهر اميل
نهر ارتش

الفصل الثاني
هجوم المغول على المسلمين

بعد أن وصلت الأمة الإسلامية في تلك المناطق من العالم الإسلامي إلى ذلك الإنحراف الخطير عن الإسلام ، والدعوة الإسلامية ، وبعد أن نسوا الله ، وانحرفوا عن سبيله ، واتبعوا الشيطان ، وتحكم في رقابهم شرارهم ، أصبحت هذه الأُمة جاهزة للسقوط ومهيأة لتلقي عقوبة الهية قاسية بسبب ذنوبها وتفريطها .

وقد صاحب هذا الوضع الإسلامي السيء ، قيام دولة فتية « للمغول » على حدود المسلمين الشرقية ، توحدت تحت قيادة « جنكيز خان » الذي لَمس ـ كما مر بنا ـ تفرق المسلمين ، وخلافاتهم ، وحروبهم فأطمعه ذلك الوضع في ضم بلادهم إلى ملكه ، على ما نبينه في المباحث التالية :

المبحث الأول : القضاء على الدولة الخوارزمية

لقد أصبحت أملاك « جنكيز خان » مجاورة لأملاك الدولة الخوارزمية بعد أن تغلب على جميع القبائل المجاورة له ، ووحدهم تحت سلطانه ، وقد حرص « جنكيز خان » على تأمين طرق التجارة بين أملاكه ودول العالم الأخرى فأبرم معاهدة تجارية مع السلطان « محمد خوارزم شاه » جعلت التجارة حرة بين أملاكهما ، وتعهدا بالمحافظة عليها ، وتوفير الحماية لها في بلديهما إلا أن عامل

السلطان في « أترار » ـ على الساحل الغربي لنهر سيحون ـ اعتدى على إحدى القوافل التجارية ، فقتل التجار الذين كانوا يحملون بضائع مغولية واستولى على ما كان في حوزتهم من بضائع ثمينة ، فغضب « جنكيز خان » غضباً شديداً ، وهاج وماج ، ثم أرسل إلى السلطان مع بعض الرسل يطلب منه أن يسلمه حاكم « أترار » ليعاقبه العقاب الذي يستحقه حقنا للدماء . إلا أن السلطان أخذته العزة بالإثم ورفض طلبه فكانت الحرب بينهما[1] .

كون « جنكيز خان » جيوشا أربعة كان الأول بقيادة ولده « جغتاي » وجّهه إلى « أترار » فاستولى عليها بعد مقاومة عنيفة وخاصة من قبل « ينال خان » حاكم « أترار » الذي أُلقي القبضُ عليه وأُرسل إلى « جنكيز خان » فقتله بطريقة بشعة جدا ، وقتلوا جميع من وجدوهم في طريقهم ، ثم أخذوا بقية السكان أسرى ، ونهبوا جميع ما في المدينة .

توجه الجيش الثاني بقيادة « جوجي بن جنكيز خان » الى « جند » وفعلوا بها كما فعلوا بأترار ، وتوجه الجيش الثالث بقيادة « أُوكيتاى بن جنكيز خان » إلى (بناكت) و « خجند » والوادي الأعلى لنهر سيحون ، ولم تكن هذه المدن أحسن حظا من سابقاتها .

وأما الجيش الرابع الذي قاده « جنكيز خان » نفسه ، يساعده إبنه « تولوي » فقد توجه الى « بخارى » فحاصرها وعرض أهلها عليه التسليم فتظاهر بالموافقة ، وبعد ذلك أخذ سادة المدينة وزعماءها وطلب إليهم أن يخدموا الخيول ويحافظوا عليها ، وبعد أن نهبوا المدينة مزقوا سكانها كل ممزق ، فمنهم من قتل ومنهم من أُسر ، وقليل منهم هرب بعد أن فقد أعز ما يملك من مال وولد

(١) « سيرة جلال الدين منكبرتي » للنسوي ص ٧٨ .

وعرض[1] .

ثم توجه « جنكيز خان » إلى « سمرقند » واحتلها وفعل بها كما فعل ببخارى من قتلٍ ونهبٍ وتشريدٍ وأسر ، وبسقوط هذه الأجزاء من الدولة الخوارزمية أصبحت الأجزاء الأُخرى مفتوحة سهلة الإحتلال أمام الغزاة .

وأما عن السلطان « محمد خوارزم شاه » الذي كان مستأسداً على إخوانه من المسلمين ، فقد فرَّ دون أن ينازل « المغول » في معركة من المعارك ، وبقيت القوات المغولية تلاحقه من مدينة إلى أُخرى حتى وصل الى إقليم « مازندان » ، وعندما سمع بوصول المغول إلى هذا الإقليم ورآهم يهجمون عليه ركب في سفينة وأبحر بها إلى إحدى الجزر في بحر قزوين ، بينما كانت سهام الأعداء تنهال عليه .

ولعل من العبره لحملة الدعوة الإسلامية نقل وصف النسوي لحال السلطان لما فيها من موعظة حسنة لمن يقبل على الدنيا ظنا منه أن عزها دائم ، ولا يدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان .

يقول النسوي « حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب قالوا : « كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة (ذات الجنب) ما آيسه من الحياة ، وهو يظهر الاكتئاب ضجراً ويقول : لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين

---

(1) ويصف إبن الأثير حالة الناس في « بخارى » يوم سقوطها فيقول : (ودخل الكفار البلد فنهبوا وقتلوا من وجدوا فيه . وأحاط بالمسلمين فأمر أصحابه أن يقتسموهم ، فاقتسموهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان ، وتفرقوا أيدي سبأ ، وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضا ، وأصبحت « بخارى » خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا من النساء العظيم ، والناس ينظرون ويبكون ، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم ، فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك ، فقاتل حتى قتل . . . ومن استسلم أخذ أسيرا ، وألقوا النار في البلد والمدارس ، والمساجد ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب)

(الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٣٣٢)

نحفر فنقبر ، فما الدنيا لساكنيها بدار ، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار ، ما هي إلا رباط يدخلُ من باب ويخرج من باب ، فاعتبروا يا أُولي الأبصار »[١] .

عاش السلطان في الجزيرة شهراً في محنة وكرب ثم مات بعد أن عهد بالبيعة لولده « جلال الدين منكبرتي » وكان موته في شوال ٦١٧ - (١٢٢١ م) ، ومن العبر المبالغة أن أتباعه لم يجدوا كفنا يكفنونه به . وأخيرا صنعوا له كفنا من قميص واحد منهم ، ودفن بالجزيرة[٢] .

أَمر « جنكيز خان » أولاده « جغتاي » و « أوكيتاي » و « جوجي » بالتوجه إلى « جرجانية » وبعد أن اجتمعت قواتهم حول المدينة طلبوا من سكانها التسليم ، فرفضوا فحاصرها المغول إلى أن فتحت عنوة فاعملوا السيف في رقاب الرجال ، وأسروا النساء والأطفال ، ويقال إنه خص كل جندي أربعة وعشرون شخصاً[١] .

ثم فتح « نخشب » و « ترمذ » و « بلخ » وبعد ذلك ترك « جنكيز خان » مهمة فتح بقية هذا الإقليم لابنه « تولوي » وسار هو نحو « الطالقان » ليخضعها .

توجه « تولوي » إلى « نسا » فحاصرها واستمر القتال ليلا ونهارا إلى أن سقطت وعندئذ ارتكبوا في الأهالي أشد الفظائع ، وأنزلوا بها أقسى الاهوال[٢] .

---

(١) « سيرة جلال الدين منكبرتي » للنسوي ص ١٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) « المغول في التاريخ » للدكتور الصياد ص ١٢٣ .

(١) « المغول في التاريخ » للدكتور الصياد ص ١٢٣ .

(٢) يقول النسوي : (فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين . . . . كأنهم قطعان الضانيه تسوقها الرعاة ، ولم يمد « التتار » أيديهم إلى سلب أو نهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء بالصغار والنساء ، والضجيج يشق جلباب السماء ، والصياح يسد منافذ الهواء ، ثم أمروا الناس بأن يكتف بعضهم بعضا ، ففعلوا ذلك خذلانا ، وإلا فلو تفرقوا ، وطلبوا الخلاص عدوا من غير قتال والجبل قريب لنجا أكثرهم ، فحين كتفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدا ، وأطعموهم سباع

ثم توجه إلى « مرو » التي كانت تزخر بالمكتبات وتموج بالعلماء والأُدباء[1] وفتحها ولم يبق فيها إلا أَربعمائة شخص من أَرباب الحرف .

ذهب بعد ذلك إلى « نيسابور » فاحتلها وارتكب فيها مذابح فظيعة إذ لم يبقوا فيها أَحدا حتى لقد قتلوا القطط والكلاب ، وعملوا من رؤوس القتلى أهراما ، ليتأكدوا من موت الناس جميعا ، ثم توجه « تولوي » الى « هراة » فاحتلها وقتل من سكانها أثنى عشر أَلفا[2] .

ذكرنا سابقا أن « جنكيز خان » ذهب من « بلخ » الى « الطالقان » وقد فعل بأَهلها مثلما فعل باولئك ، ثم سار الى « باميان » فعصاه أهلها وقاتلوا المغول قتالاً شديداً ، ولكنها فتحت أَخيرا ، فقام « المغول » بقتل كل من فيها حتى الدواب ، والأَجنه ولم يأسروا منها أَحداً قط بل تركوها أَرضا قفرا لا يسكنها أَحد وسموها « ماو باليغ » أي « مدينة البؤس »[3] .

عرفنا أَن السلطان « محمد خوارزم شاه » قد عهد بالملك لإبنه « جلال الدين منكبرتي » وقد أثبتت الأَيام أن « جلال الدين » كان فارسا شجاعاً ، فعندما ولي الحكم جمع جيشا كبيراً من مختلف الأَجناس ، ودخل بهم في معركتين مع المغول في سهول « براون » شمال شرق « غزنه » واستطاع أَن يهزم المغول فيهما هزيمة نكراء ،

الأرض ، وطيور الهواء فمن دماء مسفوكة وستور منهوكة وصغار على ثدي أُمهاتها المقتولة متروكة ، وكان عدد من قتل بلسان من أهلها،ومن انضوى اليها من الغرباء ورعية بلدها سبعين الفا (سيرة جلال الدين منكبرتي ص ١١٤ ـ ١١٥) .

العدى والعدا مقصور عداء ومفرده عدو وهو حجر رقيق يستر به الشيء وعدو كل شيء طواره (والمعنى أنهم أضجعوهم على حجارة رقيقة وذبحوهم) (نفس المصدر هامش ص ١١٥) .

(١) معجم البلدان : لياقوت الحموي ج ٤ ص ٥٠٩ ـ ٥١٠ .

(٢) « المغول في التاريخ » للدكتور الصياد ص ١٣٢ .

(٣) « العراق بين احتلالين » عباس العزاوي ج ١ ص ١٢٦ .

وفكر في مواصلة القتال ضدهم إلا أن قائدين كبيرين من قواده اختلفا على الغنائم فانسحبا بقواتهما ، مما جعل « جلال الدين » عاجزاً عن مواجهة المغول ، فانسحب إلى غرب نهر السند وهناك على الشاطىء وجد نفسه محاطاً بالجيش المغولي ، فاضطر إلى الدخول معهم في معركة غير متكافئة بقواته الصغيرة ، وقد أظهر بطولة نادرة ، ولكنه أدرك في النهاية أنه خسر المعركة ، فعبر النهر هارباً على ظهر جواده ، وتبعه عدد من جنوده الذين مات أكثرهم غرقاً أو بسهام « المغول »[1] .

من هذا العرض السريع لحروب المسلمين ، في هذه المنطقة من العالم الإسلامي ـ مع المغول نجد أن كثرتهم كانوا شديدي الحرص على الحياة ، فكانوا دائما أسرع إلى فقدانها بطريقة بشعة ، وأن هؤلاء الذين كانوا أبطالا شجعانا في محاربة بعضهم بعضاً ، نجدهم رعاديد جبناء وبشكل يثير الإشمئزاز أمام الأعداء ، وأن خلافاتهم لم تنته حتى أثناء خوضهم لأشد المعارك ضراوة مع الاعداء ، وأنهم لم يخفوا لنجدة اخوانهم رغم علمهم الأكيد أن الخصم الذي يذبح إخوانهم فادم لذبحهم لا محالة .

المبحث الثاني : القضاء على الطائفة الاسماعيلية

هناك سببان أساسيان دعوا المغول إلى القضاء على هذه الطائفة :

أولهما : أدرك « المغول » ـ عندما كانوا يفكرون في إزالة الدولة العباسية ـ أن هذه الطائفة ستكون شوكة في ظهورهم ، وأنها قد تحول بينهم وبين تحقيق أطماعهم في السيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي .

---

(١) « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » للنسوي ص ١٦٠

ولابد أنه نمى إلى علمهم ما قام به بعض أفراد هذه الطائفة ـ بعد أن اجناحت جيوش « المغول » الصين ، واوروبا ، وخراسان ، والعراق العجمي وآسيا الصغرى ـ من محاولة لتأليف جميع الشعوب المعرضة للخطر المغولي ـ حتى أُولئك الذين يناصبونهم العداء ـ في حلف واحد لمقاومة المغول ، بل امتدت هذه المحاولة إلى أوروبا . ففي سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٨ م) أَرسلوا الى ملكي انجلترا وفرنسا يطلبون مساندتها ، غير أنهم لم يلقوا آذانا صاغية[1] .

وثاني تلك الأَسباب : الأَعمال الإجرامية ، والعنت ، والإرهاب ، والظلم الذي أذاقته هذه الطائفة للمسلمين الذين كانوا تحت حكم « المغول » في منطقة قزوين لأَنهم كانوا يخالفونهم في المذهب ، فقد ضج هؤلاء المسلمون بالشكوى الى « منكو خان » وأَشاروا إلى أن هذه الطائفة يخالفون في عقيدتهم ديانات النصارى والمسلمين ، والمغول ، ويذكر صاحب طبقات ناصري[2] أن القاضي « شمس الدين أَحمد الكافي القزويني » كان على اتصال بالمغول وكان إماماً وعالماً كبيراً ، ذهب مرة الى « منكو خان » وطلب منه أَن يضع حدا لشر « الملاحدة » ويخلص الناس من فسادهم .

إنطلق « هولاكو » على رأس جيش كبير من عاصمة « المغول » (قراقورم) سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) فسارع أُمراء المناطق في تسهيل الطرق وتنظيمها أَمام هذا الجيش وقدموا له كل مساعدة ممكنة ، وكان موضع تكريم جميع الوجوه والأَعيان ، واحترامهم في إقليم خراسان ، وقد أَسرع هؤلاء إليه يقدمون هداياهم ، وفروض الولاء والطاعة ، وقد وجه « هولاكو » رسائل إلى الملوك والسلاطين في إيران يطلب منهم أَن يساهموا معه في حملته ، فإن فعلوا فسوف تبقى

---

(١) أنظر كتاب البعثة التبشيرية للمغول ص ١٤ . (1) The Mongol Mission P 14

(٢) المغول في التاريخ للدكتور الصياد ص ٢٣٦ نقلا عن طبقات ناصري للجوزجاني ٤١٣ ـ ٤١٤ .

لهم ولاياتهم والآّ فسوف يحل بهم ما يحل بالملاحدة[1] .

كانت الطائفة الإسماعيلية في ذلك الوقت ـ تستوطن الجبال في ولاية « الطالقان » و « دوذبار ألموت » وكان لهم في تلك المناطق حوالي خمسين قلعة حصينة ، أشهرها وأقواها ثلاث هي : ألموت ، وميمون دز ، ولنبه سر وكانت قلعة « ألموت » عاصمة ملكهم كما كان لهذه الطائفة قلاع محكمة أخرى في « قومس » « وقهستان » يحكمها حاكم يقال له« محتشم »[2] .

تقدم القائد المغولي « كُتبغا » في طليعة جيش « هولاكو » الى « قهستان » واستولى على كثير من القلاع الموجودة هناك ، وحاصر قلعة « كردكوه » الحصينة .

وفي غرة ذي الحجة سنة ٦٥٣ هـ (يناير ١٢٥٦ م) عبر « هولاكو) بجيشه نهر « جيحون » وتقدم نحو تلك القلاع المنيعة ، وأخذ هو وقواده يعملون في تحطيمها ، وقد حاصر قلعة « سرتخت » التي كان يعتصم بها محتشم الإسماعيلية « ناصر الدين » وبالترغيب ، والترهيب استطاع « هولاكو » أن يجعله يستسلم له .

وبعد ذلك توجه الى بقية القلاع يفتحها الواحدة تلو الاخرى ، ولم تستعص عليه الا قلعتا « ميمون دز » و « ألموت » وبعد تهديد ، وترغيب وترهيب لملكهم « خورشاه » ـ الذي يأتمرون بأمره ـ ومراوغة هذا ومداورته سلمت قلعة « ميمون دَز » بعد أن تكفل « هولاكو » « لركن الدين خورشاه » بالإبقاء على حياته .

وليحصل « ركن الدين خورشاه » على شروط أفضل ذهب الى « منكو

---

(١) تفصيل هذه الرسالة التي وجهها هولاكو الى الملوك والسلاطين موجود في كتاب (جامع التواريخ ـ لرشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٢٤٦ .

خان » في عاصمته ، غير أنه حينما وصل إلى هناك بصحبة جماعة من المغول رفض الخان أن يستقبله وقال « ما كان لكم أن ترهقوا الجياد في سفارة غير مجدية »[1] ثم أرسل من قبله شخصا قضى عليه ، وتبع ذلك حركة تقتيل في جميع أفراد أسرته وأقاربه من الرجال والنساء ، ولم يستثنوا حتى الأطفال ، وصدرت الأوامر إلى « هولاكو » بالتخلص نهائيا من هذا المذهب فحشد المغول هذه الطائفة متظاهرين بأنهم يريدون إحصاءهم ، ثم أجهزوا عليهم جميعا ، ولم يبق منهم إلا من اعتصم بجبال فارس ، وقد استمر حكم هذه الطائفة في تلك المناطق سبعا وسبعين ومائة سنة[2] .

وبهذا تنفس الناس الصعداء بالقضاء على هذه الطائفة الملعونة الملحدة لكنهم لقوا ما هو أشد وأنكى على أيدي المغول .

المبحث الثالث : سقوط الخلافة العباسية

كان إسقاط الخلافة العباسية ، واحتلال بغداد ضمن الأهداف التي يسعى إليها « هولاكو » لذلك نجده ـ بعد أن قضى على « الطائفة الاسماعيلية » ينطلق الى تحقيق ذلك الهدف .

وفي شهر رمضان سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) أرسل « هولاكو » رسالة الى الخليفة ، فيها تهديد ووعيد له لامتناعه عن إرسال مدد له عندما كان يحارب « الطائفة الإسماعيلية » ، وكانت هذه هي الذريعة التي اتخذها « هولاكو » ، لمهاجمة الدولة العباسية ، وكان يريد منه نفس الحقوق التي كانت للديلم

(١) (٢) جامع التواريخ لرشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٥٨ .

والسلاجقة ، وغيرهم من الهيمنة على الخلافة والتحكم في بغداد[1] .

ولكن الخليفة رد عليه رافضا طلبه ذلك ، وهدده قائلا بأَن المسلمين جميعا رهن إشارته إذا دعاهم لقتاله ، إلا أنه يفضل السلام على الحرب والقتال .

ولما لم يعجب ردُ الخليفة « هولاكو » ولأن الرسالة كانت تحمل تهديدا ووعيدا ـ ولما كانت رسل « هولاكو » قد تعرضوا لأذى العامة في « بغداد » فقد غضب هذا غضباً شديداً ، وحمّل رسل الخليفة رسالة تتضمن إنذاراً نهائياً[2] .

وعلى أثر وصول هذه الرسالة استشار الخليفة أَعوانه ووزيره فأَشار عليه وزيره « مؤيد الدين بن العلقمي » توفير النقود والنفقات التي ينفقها على الجيش ، ويرسلها الى « هولاكو » فإن هذه هي أَحسن الوسائل لاتقاء شرهم .

اتبع الخليفة نصيحة وزيره « إبن العلقمي » فخفض عدد الجيش وانفق ما وفره من المال ، فيما بذله تطوعا من « جزية » للمغول حتى يبتعدوا عنه[3] .

غير أن « هولاكو » طالب بحقوق السيادة على الخلافة ذاتها ، فلم يلق طلب « هولاكو » إلا الرفض[4] .

وبعد استشارة منجميه قرر مهاجمة بغداد ، رغم اعتراض الفلكي (حسام الدين)[5] فأصدر أمره بأن تتحرك جيوش المغول نحو بغداد لتحاصرها من جميع الجهات ، ويقول ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » (. . . وقد سترت « بغداد » ونصبت فيها المجانيق ، والعرادات ، وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر

---

(١) (٢) جامع التواريخ لرشيد الدين مجلد ٢ الجزء الأول ص ٢٦٧ ـ ٢٧١ .

(٣) « البداية والنهاية » لابن كثيرم ٧ ج ١٣ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ ورونسيمان تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٨ ترجمة الباز العريني .

(٤) تاريخ الحروب الصليبية لرونسيمان ج ٣ ص ٤١٨ .

(٥) تفاصيل ذلك في كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

الله سبحانه شيئا ، كما ورد في الأثر « لن يغني حذر من قدر » وكما قال تعالى **﴿ إن اجل الله اذا جاء لا يؤخر ﴾**(١) وكما قال جل من قائل **﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾**(٢) .

لقد أحاطت التتار « المغول » بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب ، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة ، وتضحكه وكانت من جملة خطاياه ، وكانت مولدة تسمى « عرفه » جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك ، وفزع فزعاً شديداً(٣) .

يا سبحان الله ، حتى في هذا الظرف السيء ، والعدو يطرق أبواب بغداد ، والدبابات ، والمجانيق ، تدك أبواب حصونها ، يرقصون ويغنون ويضحكون ، وكأن الأمر لا يعنيهم ، ومن الذين يفعلون ذلك ؟؟ ـ رأس الدولة ـ الخليفة وحاشيته ، أما رعاع الناس فلا تسأل .

فالشباب كان قد فسد ، لأن طغيان النساء ، وتبرجهن وعرض أنفسهن لكل جائع تكون نتيجته الحتمية إنهيار الأخلاق ، وضياع القيم والأشتغال بالملذات التي تغري بترك الجهاد ، وإذا كان الفساد قد تعدى الشباب المراهق ليصل إلى كبار السن ، فلنا والحالة هذه أن نتصور ما آل اليه أمر الدفاع عن ثغور الإسلام وحواضره . .

لم يكن ينقص المسلمين عدد ولا عدة ، ولكنه الوهن الذي ذكرنا والذي حذرنا منه رسول الله ﷺ ، هو الذي نزع مهابة المسلمين من قلوب أعدائهم .

---

(١) سورة نوح آية ٤ .

(٢) سورة الرعد آية ١١ .

(٣) « البداية والنهاية » لأبن كثيرج ١٢ ص ٢٠٠ .

يحدثنا صاحب الفخري عن صديقه « فلك الدين محمد بن أيدمر » فيقول (كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج إلى لقاء التتر « المغول » بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة قال : فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة ، وتحته فرس عربي ، وعليه سلاح تام كأنه الجبل العظيم ، ثم يخرج إليه من « المغول » فارس تحته فرس كأنه الحمار وفي يده رمح كأنه المغزل ،وليس عليه كسوة ولاسلاح ـ فيضحك منه كل من رآه ، ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة ، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الأمر ما كان)[1] .

وفي يوم الأحد ٤ صفر ٦٥٦ هـ (١٠ يناير ١٢٥٨ م) خرج الخليفة من بغداد ، وسلم نفسه مع كبار قادة الجيش ، وكبار الموظفين وعاصمته للمغول دون قيد أَو شرط ، بعد أَن وعده « هولاكو » بالأمان ، فأَجهز « هولاكو » على قادة الجيش وكبار الموظفين جميعا ، ولم يبق إلا الخليفة ، ودخل « هولاكو » المدينة والقصر ، وفي تلك الأَثناء كانت المذابح مستمرة في جميع أَنحاء العاصمة وتعرض للقتل جميع الناس ، سواء من قاتل منهم ، ومن استسلم ، ولم يفرقوا بين النساء والأَطفال والرجال ، ولم ينج من الذبح إلا النصارى الذين لجأوا إلى الكنائس والأَديرة[2] .

دخل « هولاكو » قصر الخلافة وأمر بإحضار الخليفة ، وقال له أنت المضيف ونحن الضيوف ، فيجب أَن تقوم بواجب الضيافة ، فصدق قوله ، وكان يرتعد من شدة الخوف ، حتى أَنه لم يعرف أَين وضع مفاتيح خزائنه ، فأَمر بكسر الأَقفال وأَخرج آلاف الدنانير ، والنفائس ، ومرصعات ، وجواهر عديدة قدمها لهولاكو

---

(١) « الفخري في الآداب السلطانية » لأبن طباطبا ص ٦٩ الطبعة الثانية .

(٢) « تاريخ الحروب الصليبية » لستيفن رونسيمان ج ٣ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١ .

الذي لم يعر تلك الأشياء التفاتا ، ووزعها على أتباعه ، ثم قال للخليفة « هذه الأموال التي تملكها على سطح الأرض أمرها واضح ، وهذه تعتبر غنيمة ، فتكون من نصيب جنودنا ، والآن نريد أن تكشف لنا عن الأموال والدفائن ما هي ؟ وأين توجد ؟ عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر فلما حفروا ذلك المكان ، وجدوه مملوءا بالذهب الإبريز وكانت كل قطعة تزن مائة مثقال)[1] .

وبعد ما يقارب أربعين يوما من سفك للدماء وحرق للبيوت وتدمير للحضارة والعلم أمر « هولاكو » بالكف عن القتل وترك بغداد خوفا من انتشار الأمراض بين جنوده[2] .

وأما عن معاملة « هولاكو » للخليفة فقد عامله معاملة سيئة جدا بحيث أنه حرم عليه الطعام ، فلما أحس الخليفة بالجوع ، طلب طعاما ، فقدم له « هولاكو » طبقا مملوءا بالذهب ، وأمره أن يأكل ، فقال الخليفة المستعصم كيف يمكن أكل الذهب ؟ فرد عليه « هولاكو » إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا احتفظت به ، ولم توزعه على جنودك حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير. ولمَ لم تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام وتسرع إلى شاطيء نهر « جيحون » لتحول دون عبوري ، فأجاب الخليفة « هكذا كان تقدير الله »[3] .

نعم هذه هي نتيجة البخل والشح وعدم الإنفاق في سبيل الله للدفاع عن ديار الإسلام والمسلمين ،خاصة عندما يكون هذا من خليفة المسلمين الذي قتر بتلك الأموال ، وضن بها على الجنود الذين سُرحوا ، حتى لقد أخذ بعضهم يقف على

(١) « جامع التواريخ » لرشيد الدين المجد الثاني ج ١ ص ٢٩٢ .
(٢) « البداية والنهاية » لابن كثيرم ٧ ج ١٣ ص ٢٠٣ .
(٣) « المغول في التاريخ » للدكتور الصياد ص ٢٦٧ .

أبواب المساجد يسأَل الناس لقمة العيش ليمسك بها رمقه بينما البلاد في أمس الحاجة إلى جهاده للدفاع عنها .

وفي يوم الأَربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) رحل « هولاكو » من « بغداد » بسبب عفونة الهواء ، ونزل في قرية صغيرة بالقرب من « بغداد » تدعى « وقف » حيث استدعى الخليفة ، وقضى عليه في ذلك اليوم بعد أن حَسَّنَ ملأٌ من الرافضه ـ منهم الوزير « ابن العلقمي » و« نصير الدين الطوسي » ـ لهولاكو قتل الخليفة ، فقتلوه رفسا ، وهو في جولق وقيل بل خنق خنقا ، ويقال بل أُغرق والله أعلم[1] .

أثر سقوط الخلافة العباسية :

كان لسقوط « بغداد » والخلافة العباسية ، رنة فرح وسرور في نفوس النصارى الذين كانوا يخططون للقضاء على الإسلام والمسلمين ، منذ قرون طويلة ، بنشر الموبقات ـ من الخمر والنساء ـ على الصعيد الداخلي وقد قامت الأَديرة ـ كما مر بنا ـ بنشاط واسع في هذا المجال ، وبالحروب الطويلة ـ ومنها الحروب الصليبية ـ ثم أَخيرا باستعداء المغول ، وتشجيعهم على تحطيم المسلمين ، واستئصال وجودهم ، وذلك بتزويج زعماء المغول بنساء نصرانيات متعصبات أَمثال « طقزخاتون » ـ زوجة هولاكو ـ ، ولذلك نجد النصارى يُعبِّرون عن سقوط « بغداد » بسقوط « بابل الثانية » ، وهللوا لهولاكو وزوجته النصرانية « طقز خاتون » واعتبروهما «قسطنطين وهلينا » وأَنهما ليسا إلا أَدوات الله للأنتقام من أَعداء المسيح)[2] .

---

(١) « البداية والنهاية » لابن كثيرم ٧ ج ١٣ ص ٢٠١ .

(٢) « تاريخ الحروب الصليبية » لرونسمان ج ٣ الترجمة العربية ص ٥٢٢ .

وأما المسلمون فقد شعروا بالأسى والحزن العميقين لفقدان الخلافة التي كانت رمزا لتجمع المسلمين .

فعلى الرغم من أن الخلافة العباسية ظلت منذ زمن طويل تفقد قدراً كبيراً من سلطتها المادية ، فإن مكانتها الأدبية كانت لا تزال قوية . لكن ما حدث من استئصال الأُسرة العباسية جعل زعامة المسلمين شاغرة يتطلع لإحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين[1] .

وإذا كان للحادث العظيم تأثيره العميق في نفوس المسلمين ، فقد كان أثره أشد وقعا وأعظم تأثيراً في نفوس الشعراء المسلمين ، فقد عبروا عن تلك المأساة في كثير من القصائد التي تصف الألم الشديد ، والحزن العميق الذي كان يعصر قلوبهم . جاء في قصيدة للشيخ تقي الدين بن ابراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبدالله التنوخي يرثي بها بغداد[2]

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديار

تاج الخليفة والربع الذي شرفت ... به المعالم قد عَفّاه اقفار

أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثار

يا نار قلبي من نار لحرب وغى ... شبت عليه ووافى الربع اعصار

علا الصليب على أعلى منابرها ... وقام بالأمر من يحميه زنار

ومنها :

وهم يساقون للموت الذي شهدوا ... النار يارب نصلاها ولا العار

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ .

(٢) أنظر النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥١ و ٥٢ .

آل النبي وأهل العلم قد قتلوا　　فمن ترى بعدهم تحويه امصار
ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا　　لكن أبى دون ما أختار أقدار

وذكر ابن شاكر الكتبي نقلا عن الشيخ شمس الدين الكوفي الواعظ قصيدة يتحسر فيها على خراب بغداد ، وقتل الخليفة وقد جاء فيها :-

عندي لأجل فراقكم آلام　　فإلام أعذل فيكم وألام
من كان مثلي للحبيب مفارقا　　لا تعذلوه فالكلام كلام
نعم المساعد دمعي الجاري على　　خديَّ إلا أنه نمّام
ويذيب روحي نوح كل حمامة　　فكأنما نوح الحمام حمام
إن كنت مثلي للأحبة فاقدا　　أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها　　(يا دار ما صنعت بك الأيام)

إلى أن يقول :

ولقيت من صرف الزمان وجوره　　ما لم تخيله لي الأوهام
ياليت شعري كيف حال أحبتي　　وبأي أرض خيموا وأقاموا
مالي أنيس غير بيت قاله　　صب رمته من الفراق سهام
(والله ما اخترت الفراق وإنما　　حكمت علي بذلك الأيام)

ويقول ابن الأثير عن المسلمين (.... فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم ، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه)[1] .

وصدق الله العظيم ﴿ **واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾[2] .

---

(١) « الكامل في التاريخ » لإبن الأثير ج ٩ ص ٣٣٦ .
(٢) سورة الإسراء آية ١٦ .

لقد كان بلاء المسلمين من هذا الصنف من الأُمراء الذين ساروا في الرعية سيرة سيئة ، فارتكبوا الفواحش والمنكرات ، واستباحوا الحرمات وظلموا ، وتجبروا ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وَمَنْ هؤلاء العصاة ؟ . . . إنهم السلاطين والملوك والخلفاء والأُمراء والقادة الذين وكلت إليهم أُمور المسلمين لقد عرفوا الله ونسوه ، فسلط الله عليهم من لا يعرفه ومن لا يرحمهم ، وأي عذاب ذلك الذي حل بالمسلمين الذين نجوا من القتل ؟ إنهم استعملوا حواجزيتمترس بهم الأعداء ، أو أصبح السيد منهم عبدا لسيد من الأعداء وزوجته أمة لسيد آخر . وابنته لسيد ثالث . وهم لا يملكون حينئذ إلا البكاء ، « وَمَا ظَلَمَهُمَ الله ولِكن كَانُوا أَنفُسَهمُ يظلمون .

﴿ وكأيِّن من قرية عتت عن امر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال امرها وكان عاقبة امرها خسرا . اعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولى الألباب ، الذين آمنوا قد انزل الله اليكم ذكرا ﴾[1] .

المبحث الرابع : حروب المغول في بلاد الشام

كان في بلاد الشام في هذه الفترة ثلاث قوى :

قوة الأرمن النصارى ، وهؤلاء وقفوا مع المغول بحماسة شديدة ضد المسلمين ، وقدموا لهم كل مساعدة ممكنة بل لقد قدموا فرقا من الجيش قاتلت مع المغول جنبا الى جنب ، كما سيتضح عند عرضنا للأحداث إن شاء الله .

---

(١) سورة الطلاق الآيات ٨ ـ ١٠ .

القوة الثانية : هي بقية الإمارات الصليبية التي كانت لا تزال في أجزاء من سواحل فلسطين ولبنان، وهذه كانت مترددة وتفضل أحياناً التعاون مع المسلمين ، لأن أمراءها رأوا في المغول عداوة شديدة للانسانية ، وللحضارة معا ، ثم هم رأوا جرائم المغول في اوروبا[1] .

والقوة الثالثة : كانت ممثلة في الامارات الإسلامية : ميافارقين[2] وحصن كيفا ، والكرك ، وحلب ، ودمشق ، وحماة ، وحمص ، والتي كان يحكمها أمراء « ايوبيون » من اسرة « صلاح الدين الايوبي » التي أسسها في الثلث الأخير من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وهي أُسرة كردية .

وكان « الناصر يوسف » صاحب « حلب » و « دمشق » هو اكثر الأمراء الايوبيين قوة واقتدارا « ومما يؤسف له أن كل واحد من هؤلاء الأمراء كان يعتبر نفسه مستقلا ، فلا وفاق بينهم ، ولا سلطان لامير منهم على أمير وكانوا في نزاع دائم ، وخلاف مستمر ، حتى في الوقت الذي بدأ فيه شبح المغول يظهر مخيفا مرعبا ، وأصبح هذا الخطر ماثلا للعيان على أثر احتلال بغداد ، ولو قدر لهؤلاء الأمراء فاتحدوا وتكتلوا لاستطاعوا أن يكونوا سدا منيعا ، يدرأون به خطر المغول عن تلك البلاد »[3] .

بدأت حملة « المغول » على بلاد الشام بالتوجه الى « ميافارقين » فلما اقتربوا منها أرسلوا إلى « الملك الكامل » يدعونه إلى الاستسلام ، فرفض قائلا بأنه لن

---

(١) أنظر كتاب « المغول » للدكتور الباز ص ٢٥٨

(٢) ميافارقين : بفتح اوله ، وتشديد ثانية ثم فاء ، وبعد الالف راء وقاف مكسورة وياء ونون .
أشهر مدينه بديار بكر قالوا : سميت بميا بنت لأنها أول من بناها ، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارقين ، لأنها كانت احسنت خندقها فسميت بذلك . (أنظر معجم البلدان - لياقوت الحموي ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .

(٣) أنظر المغول في التاريخ للدكتور الصياد ٢٩٠

ينخدع بأقوالهم المعسولة ، ولا بوعودهم ،وأنه سيمتشق الحسام ضدهم ما دام على قيد الحياة ، وقرر قتال « المغول » وتوجه إلى أفراد شعبه مقويا من عزائمهم فقال « أنني لن أمنع الفضة والذهب والغلات التي توجد في المخازن ، بل سأوثر بها المحتاجين فاني ـ بحمد الله ـ لست كالمستعصم عبدا للدينار والدرهم ذلك الذي طرح برأسه وبملك بغداد بسبب بخله وشحه »[1] .

ولذلك اتحد معه جميع سكان المدينة ، وأصبحوا طوع أمره ، ورهن إشارته للإشتراك في المعركة .

لقد شاركت فرق أرمنية نصرانية في حصار « ميافارقين » مع المغول واستمر الحصار مدة طويلة ، أظهر المسلمون فيها ضروبا من الشجاعة المنقطعة النظير ، مقتدين بأميرهم الذي قدم للمعركة كل ما يملك .

وكان بين جنوده فارسان بارعان دوخا قادة المغول ، وأوقعوا فيهم الدهشة بسبب بسالتهما واتقانهما للرماية ، وقد أوقعوا بالمغول أفدح الخسائر واعظمها[2] .

ونظرا لطول الحصار فقد نفذت المؤن ، وجاع الناس في داخل المدينة حتى أكل بعضهم بعضاً ، وللأسف الشديد لم يخف أي من الإمارات الإسلامية لنجدتها فسقطت أخيرا بعد أن أكل معظمسكانها بعضهم من الجوع وأما « الملك الكامل » فقد قتله « هولاكو » شر قتله (. . . . ثم أمر بتقطيعه إربا إربا ، وكانوا يضعونها في فمه حتى هلك سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) وكان رجلا زاهداً عابداً ، يعيش من أجر الحياكة)[3] .

ثم توجهوا الى « ماردين » وكان أميرها « الملك السعيد » فأبى إلاّ المقاومة

---

(١) جامع التواريخ لرشيد الدين مجلد ٢ ج ١ ص ٣١٩ ـ ٣٢٣ .
(٢) (٣) جامع التواريخ لرشيد الدين مجلد ٢ ج ١ ص ٣١٩ ـ ٣٢٣ .

وحاصروها ثمانية أشهر إلا أن ابن « الملك السعيد » قتل والده وسلم المدينة للمغول .

وأثناء حصار « ميافارقين » استولى « هولاكو » على « نصيبين » و « حران » و « الرها » وقتل اهالي « سروح » عن آخرهم لأنهم قاوموه ، واحتل « البيره » وعبر الفرات ، واغار على « منبج » وسفك دماء الكثيرين من سكانها .

ثم توجه « هولاكو » الى « حلب » فحاصرها يعاونه في ذلك الأرمن من « قيليقيه » والفرنج من « أنطاكيا » وطلب من أميرها « توارنشاه » التسليم فرفض ، فأخذوا يدكونها بالمجانيق حتى اضطرت إلى التسليم ، فاستباحوها سبعة أيام قتلوا خلالها عددا كبيراً من الناس ، وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال ، وقد استغل « هيثوم » ملك أرمينية تلك الفرصة فاحرق الجامع الكبير ، وأخذ جزءا كبيراً من الغنائم ، وأعاد إليه المغول ما كان أخذه المسلمون من أقاليم وأعادوا إلى « بوهمند » جميع الأراضي التي كان المسلمون قد استردوها منه[1] .

ثم اتجهوا الى قلعة « حارم » التي استسلمت فذبح المغول جميع من كان فيها ، كما استولوا على « حماة » و « المعرة » و « حمص » .

ونتيجة لهذه الانتصارات السريعة الحاسمة ، وما صاحبها من قتل وتشريد وتخريب ، عم الرعب كل بلاد سورية الإسلامية فسارع الأمراء الآخرون بتقديم فروض الولاء والطاعة للمغول .

تقدم المغول بعد ذلك الى « دمشق » وكان المدافعون عنها قد هجروها ولم يحاول « الملك الناصر » الدفاع عنها بل تركها وانسحب الى « غزة » ليكون قريبا من

---

(١) المغول في التاريخ : للدكتور الصياد ص ٢٩٤ .

النجدة التي وعده بها سلطان مصر[1] .

استسلمت دمشق لعلمها بما حل بغيرها من البلدان التي قاومت وقاومت قلعتها قليلا ثم استسلمت في منتصف جمادى الاولى سنة ٦٥٨ هـ ، وعلى أثر ذلك سنحت الفرصة للنصارى المحليين للتشفي بالمسلمين ، والإعتداء عليهم ، فنظموا مواكب عامة تسير في شوارع دمشق يغنون ويرقصون ، ويقولون : « ظهر الدين الصحيح دين المسيح ، ويذمون الإسلام وأهله ، ومعهم أواني فيها خمر ، لا يمرون على باب مسجد إلاّ رشوا عنده خمرا ، وقماقم ملآنة خمرا يرشون منها على وجوه المسلمين وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم ، وحكى الشيخ قطب الدين في ذيله على المرآة أنهم ضربوا بالناقوس في كنيسة مريم . . . . وذكر أنهم دخلوا الى الجامع الأموي ، بخمر وكان في نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرا من المساجد وغيرها »[2] .

ضجر المسلمون من تلك الأفعال فاجتمع القضاة والشهود والفقهاء ودفعوا شكواهم الى « كُتبغا » نائب هولاكو فلم يحفل بهم ، وضرب بعضهم وأخذته موجة من التقوى ، ـ وكان نصرانيا ـ فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم[3] .

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع أتم المغول فتح سوريا ، وقتلوا حامية نابلس ، ثم تقدموا الى « غزة » دون ان يلقوا مقاومة تذكر واستسلمت حامية « عجلوُن » ولكنهم لم يصلوا إلى « بيت المقدس » نفسه[4] .

---

(١) المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ج ٣ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢) « البداية والنهاية » ج ١٢ ص ٢١٩ .

(٣) « دول الإسلام » للذهبي ج٢ ص ١٢٥ ، « السلوك » للمقريزي . ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠ و ٨١ .

(٤) المختصر في اخبار البشر لابي الفداء ج ٣ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

معركة عين جالوت (٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ ، ١٢٦٠ م)

لقد أثرت الانتصارات المتتابعة السريعة للمغول على المسلمين تأثيراً كبيراً جعلهم يعتقدون في قرارة أنفسهم بـأن المغول إنمـا هم بلاء من الله سلطه عـلى المسلمين ، ويبدو أن المغول أنفسهم أحسوا بهذا الاعتقاد فأخذوا يستخدمونه ضد المسلمين ، ويؤكدونه في أنفسهم حتى يقضوا على مقاومتهم ، ويلاحظ ذلك في الرسالة التي وجهها « هولاكو » إلى السلطان « قطز » والتي سنعرضها في مكانها فيما بعد بأذن الله .

العودة إلى الإسلام :

بدأ قادة المسلمين يتحسسون أسباب هذه الهزائم ، ويحاولون علاجهـا ، فنجد السلطان « قطز » يسير سيرة حسنة بين قادته ورعيته ، وإذا دعاهم إلى أي عمل يبدأ بنفسه ، فهو بعـد ان حرك « كـوساتـه »[١] قال : « أنـا ألقى المغول بنفسي »[٢] وأرسل قائده بيبرس مع قوة استطلاعية ليعرف أخبار المغول .

ثم اننا نحس في كلامـه رنة القـائد المسلم التقي الحـريص على مصـالح المسلمين ، يقول عنه ابن كثير : « . . . . وكان السلطان قطز رجلا صالحا كثير الصلاة في الجماعة ، ولا يتعاطى المسكر ، ولا شيئا مما يتعاطاه الملوك »[٣] .

وعندما خاطب الأُمراء ـ الذين كان من رأيهم عـدم قتال المغـول ـ قال : « يا أمراء المسلمين : لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فمن إختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فإن

---

(١) الكوسات : طبول الحرب (المعجم الوسيط) .

(٢) « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي ج ١ ص ٤٢٩ .

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين[1] .

كما نلمس تقواه فيما روى عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء الذين معه وكان اليوم يوم جمعة : « لا تقاتلوهم حتى تـزول الشمس ، وتفيء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم »[2] .

هذا هو إيمان القائد السلطان الذي يملك الأمر والنهي فيما حوله ، لقد كان الإيمان موجودا في نفوس المسلمين من قبل الغزو المغولي ولكنه في قلوب من ليس لهم الأمر والنهي ، فقد كان أولو الأمر يشاهـدون حفلات الـرقص ، والغناء ، والسكر والعربدة ، ويبذلون في سبيل ذلك الغالي والـرخيص بينما الجنـود هناك يقـارعون الأعـداء ، ويتصدون لهم ، وهم عـلى علم بسلوك قادتهم وأمـرائهم وملوكهم ، وسلاطينهم فمن أين يأتي النصر ؟؟ .

أما الآن فالقائد السلطان يبدأ بنفسه ، ويتوجه إلى المعركة في شهر رمضان المبارك ، ويحض جنوده المسلمين على القتال ويذكرهم بما كان من المغول من عدوان على محارم المسلمين ، وقتلهم للشيوخ والأطفال والنساء والحرق والتدمير ، والسبي الذي لم ينج منه إلا القليل ، وحذرهم عقوبة الله تعالى ثم هو يدخل المعركة وقد نصر الله على نفسه ، حرمها الدعة والراحة ، حرمها النوم على الفراش الوثير بين النساء والحريم ، حرمها التمتع بالعز والجاه في مصر ، وذهب لمقارعـة الخطوب ولقتال المغول الذين لم يهزموا بعد خوضهم لعشرات المعارك ، حرمها كل ذلك ، وتوجه للقتال إرضاء لله ودفاعا عن الإسلام والمسلمين ، وعنـدما اشتـد وطيس المعركة نجده يصرخ وا إسلاماه . . . يا الله أنصر عبدك قطز على التتار »[3] فنصره الله .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثيرج ١٢ ص ٢٢٢ .

(٢) نفس المصدرج ١٢ ص ٢٢٦ .

(٣) « النسلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي ج ١ ص ٤٣١ .

وعندما أيقن بالنصر ، ورأى قوة الأعداء تندحر خرَّ راكعا يمرغ وجهه في أرض المعركة ويصلي شكرا لله ، ولم يحتفل بنصره بحفلة سكر ماجنة أو رقص داعر خليع ، نعم ينصر الله عبـاده المخلصين ﴿ **يـا أيها الـذين آمنوا إن تنصـروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم** ﴾[1] .

وقبل تلك المعركة نجد ذلك السلطـان يدعو لإصلاح ذات البين ولتوحيد المسلمين ، فيرسل الى « الملك الناصر » سلطان دمشق وحلب وتوابعها يقسم له الأيمان المغلظة أنه لا ينازعه الملك ولا يقاومه ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، ومتى حل بها أقعده على كرسي السلطنة ، كما ويعرض عليه أن يقدم اليه مع جيشه ، واذا كان لا يطمئن الى حضوره ، فإنه على استعداد لأن يُسيِّر اليه الجيش صحبة من يختاره « وأن اخترتني خدمتك ، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت اليك العساكر صحبة من تختاره »[2] وقد كانت هذه مطمئنة للملك الناصر .

وهكذا نجد هذا السلطان يسير على نهج الله الذي رسمه لعباده يدعو الى الوحدة ، وينبذ الفرقة محققا قول الله تعالى : ﴿ **ولا تنـازعوا فتفشلوا وتـذهب ريحكم** ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[4] .

وهكذا استطاع السلطان « قطز » أن يجمع المخلصين في مصر والشام على طريق الإسلام الصحيح إستعداداً للمعركة الفاصلة .

---

(١) سورة محمد آية ٧ .

(٢) « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤١٨

(٣) سورة الانفال من الآية ٤٦ .

(٤) سورة الصف آية ٤ .

رسالة هولاكو وما فيها من تشخيص للداء :

بعد أن احتل « هولاكو » « دمشق » وقبل أن يغادر الشام عائدا إلى بلاده أرسل رسله يحملون « كتابا » إلى السلطان « قطز » تضمن كل معاني التهديد والوعيد ، يدعوه فيها إلى الإستسلام ، وتقديم فروض الولاء والطاعة وقد جاء في ذلك الكتاب :

« من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم ، بإسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر « قطز » الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الأقليم (1) ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك ، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته ، وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الاعمال أنّا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم ، واسلموا الينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا بالطلب ، فأي أرض تؤويكم وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، فأبشروا بالمذلة والهوان بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم

(1) يشير هنا إلى أصل السلطان قطز الذي يقال أن إسمه محمود بن مودود وأن أمه أخت السلطان « جلال الدين خوارزم شاه » وأن أباه إبن عم السلطان جلال الدين ، وإنما سبي عند غلبة المغول فبيع في دمشق للسلطان الملك المعز ايبك ثم انتقل إلى القاهرة . أنظر تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبرج ٥ ص ٣٧٩ والسلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٥ .

تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ،ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وأن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل ، فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمي نحوكم شرارها فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي العواقب الردى وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر ها هلاون[1] قد أتى ... بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ... ونلحق أطفالا لهم بالأكابر[2]

يبدو واضحا من هذه الرسالة أن المغول ـ كما سبق أن ذكرت من قبل ـ يعلمون علم اليقين سر نكبة المسلمين ، وأنها بسبب إنحرافهم عن دينهم وانغماسهم في المعاصي والآثام ـ خاصة الطبقة الحاكمة التي بيدها الأمر والنهي ـ فقد ظلموا ، وطغوا ، وتجبروا ، وأكلوا الحرام ، وأرتعوا فيه ، وخانوا العهود والمواثيق مع الله ومع الناس ، وتعودت السنتهم على قول ما يغضب الله ويفسد العلاقات بين المسلمين ، عرفوا الله وعصوه « . . . . ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عند الكلام ، وخنتم العهود والايمان ، وفشا

(١) هلاون : صيغة لإسم « هولاكو » وقد وردت في كتب المؤرخين المعاصرين .
« وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي » للدكتور/ محمد ماهر حماده .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ج ١ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .

فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالمذلة والهوان ، بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . . . . » .

لكن هذه المعلومات التي عرفها المغول كانت تنطبق على المسلمين الذين سحقوا أما الآن فإن الله سبحانه وتعالى ـ قد من على المسلمين بحاكم عاد إلى روح الإسلام وقواعده ـ كما بينا من قبل ـ وطبقه على نفسه وعلى من حوله ، فجمع الكلمة على دعوة الإسلام ، ووحد الصفوف على طريقه الصحيح ، وابتعد عن الظلم وعن الخطايا والآثام ، وشجع الأمر بالمعروف واستمع لنصيحة الناصحين وتفانى في خدمة الإسلام والمسلمين ، نصر الله على نفسه فحق على الله أن ينصره ، ومن هنا جاء أول نصر ساحق على المغول كما نبينه إن شاء الله .

موقف السلطان قطز :

تداول السلطان قطز الرأي مع أمرائه فأظهر بعضهم التقاعس وفكروا في الهروب إلى المغرب وقال بعضهم بأن المغول لا يؤمن جانبهم ، فقد قتلوا كثيرا ممن سلم لهم ولكن السلطان قرر محاربة المغول وبدأ الحرب بقتل رسلهم[١] .

فكر السلطان في جمع الأموال من الناس ليصرف منها على الجهاد والمجاهدين . وطلب رأي قاضي القضاة في مصر ـ الشيخ عز الدين بن عبدالسلام[٢] ـ حتى إذا اتفق معه في الرأي وجه القاضي نداء الى الناس يطلب

---

(١) أنظر جامع التواريخ لرشيد الدين م ٢ ج ١ : الترجمة العربية ص ٣١٢ ـ ٣١٣ .

(٢) هو عبدالعزيز بن عبد السلام بن الحسن السلمي الدمشقي الشيخ عز الدين بن عبدالسلام الملقب بسلطان العلماء ، فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد .

ولد في دمشق سنة سبع أوثمان وسبعين وخمسمائة وعاش فيها ، برع في المذهب وجمع علوما كثيرة ،

مخطط معركة عين جالوت

قوات اسلامية

المغول

إمارة صليبية

صيدا

عكا

حيفا

قيسارية

عثليت

يافا

عسقلان

غزه

البحر الأبيض المتوسط

اتجاه القوات الإسلامية

دمشق

اتجاه قوات المغول

بحيرة الحولة

بحيرة طبريا

حطين

الناصرة

نهر الجالوت

نهر اليرموك

بيسان

عين جالوت

نابلس

رام الله

اللد

الرملة

بيت المقدس

أريحا

الخليل

بيت جبرين

بئر السبع

البحر الميت

منهم مساندة الدولة بأموالهم .

وفي هذا الموقف الشديد الحافل بالخطر ، يظهر الرجال المخلصون المؤمنون الأقوياء ، فيتقدم القاضي عز الدين بن عبدالسلام إلى السلطان ليقول له كلمة الحق التي ترضي الله ، وينصحه بما يعود عليه وعلى الإسلام والمسلمين بالخير والبركة ، لم ينافقه بالموافقة على رأيه ، ولم يجعل من الظرف الدقيق الذي تمر به البلاد مبررا لإرضاء الحكام والمسئولين على حساب الأمة الإسلامية والموافقة على طلباتهم وتنفيذها مهما كان ظلمها وجورها ، بل وقف وقال : « لابد أن تدفع أنت وجميع الأمراء والمماليك جميع ما تملكون من ذهب وغيره فإذا لم تكف هذه الأموال دعونا الناس إلى الجهاد بأموالهم ، أما أن يدفع الناس أموالهم وأنتم تكنزون الذهب والفضة ؟ فلا بد أن تضربوا للناس المثل الأعلى »[1] .

وقد تقبل السلطان المؤمن هذه النصيحة بقبول حسن فأمر جميع الأمراء من المماليك بجمع ما لديهم ففعلوا ، عند ذلك تسابق المسلمون إلى المشاركة بكل ما

وأفاد الطلبة ودرس بعده مدارس ، وتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي ، ثم الخطابة بالجامع الأموي . ولما سلم الصالح إسماعيل بن العادل « صفد » و « الثقيف » للفرنج اختيارا أنكر عليه ابن عبدالسلام ذلك العمل ، ولم يدع له في الخطبة فغضب عليه الصالح اسماعيل وحبسه ، ثم أطلقه فخرج الى مصر فاكرمه صاحبها « الصالح نجم الدين ايوب » وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ، ومكنه من الامر والنهي .

وكان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام لطيفا ظريفا يستشهد بالاشعار وله مصنفات حسان منها « التفسير الكبير » ، « الالمام في أدلة الأحكام » و « قواعد الشريعة » و « قواعد الاحكام في إصلاح الآنام » و « ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام » و « الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز » وغيرها .

وتوفي الشيخ عز الدين بن عبدالسلام في العاشر من جمادى الاولى وقد نيف على الثمانين ودفن بسفح المقطم .

أنظر « الإعلام » حرف العين ، « البداية والنهاية » لإبن كثير » ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ ، ٧٣ .

يملكون من أموال وأنفس لأنهم رأوا قيادتهم تضرب لهم المثل الأعلى في البذل والفداء .

وجد السلطان « قطز » أن الهجوم خير وسيلة للدفاع مؤمنا بالحكمة التي رددها علي (رضي الله عنه) « ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا » ولم ينتظر مجيء المغول كما كانت تفعل البلدان الإسلامية ، بل توجه لملاقاتهم .

إنطلق الى « غزة » ومنها إلى « عكا » التي كانت تحت حكم الصليبيين ، فعرضوا عليه أن يسيّروا معه نجدة فشكرهم وخلع عليهم ، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر « المغول »[1] (انظر الخريطة المقابلة) .

وقد عاد إستعمال الطريق الساحلي الذي كان بأيدي الصليبيين بالفائدة الكبرى على المسلمين لأنه أتاح لهم فرصة التمون من الفرنجة ، فلقوا عدوهم وهم على أهبة الاستعداد ، بعد أن أخذوا قسطا من الراحة ، هذا بالإضافة إلى كثرة عدد المسلمين بالنسبة للمغول .

جهز القائد المغولي « كُتبغا » قواته وتقدم بها نحو الجنوب يريد ضرب القوات الإسلامية معتمدا على قوته وسطوته .

ومن ناحية أخرى فإن السلطان قطز أمر بالأمراء فجمعوا ، وحضهم على قتال « المغول » وذكرهم بالجرائم التي ارتكبها المغول في البلاد الإسلامية التي احتلوها من قتل وسبي وحرق وتخريب ، وخوفهم وقوع مثل ذلك في بقية البلاد الإسلامية ، وأن أولادهم ونساءهم ، وهم أنفسهم عرضة للقتل والسبي ،

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ج ١ ص ٤٣٠ .

وحثهم على استنقاذ الشام من المغول ، ونصرة الإسلام والمسلمين وحذرهم غضب الله وعقوبته فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال المغول ، ودفعهم عن البلاد فأمر السلطان حينئذ أن يسير « الأمير ركن الدين بيبرس » بقطعة من العسكر ، فسار حتى لقي طليعة المغول فكتب الى السلطان يعلمه بذلك ، وأخذ في مناوشتهم ، فتارة يقدم وتارة يحجم إلى أن وافاه السلطان[1] .

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) في موقع « عين جالوت »[2] التقى الجيش المغولي ـ تؤيده النجدات الأرمنية والكرجية ـ بجيوش المسلمين حيث دارت بين الفريقين المعركة الفاصلة وكان السلطان « قطز » يدرك أن جيشه متفوق على قوات المغول في العدد ، لذلك أخفى القسم الرئيسي منها في تلال قريبة ، ولم يظهر للعدو إلا المقدمة التي يقودها « بيبرس » ، فحمل « كُتبغا » بكل رجاله على العدو الذي كان أمامه فتظاهر المسلمون بالتقهقر ـ حسب خطة محكمة أعدت من قبل ـ فتعقبهم المغول حتى وصلوا الكمين الذي أطبق عليهم ، وطوق قواتهم جميعها .

وقد شارك السلطان قطز في المعركة ، إذ قاد الهجوم بنفسه وأبلى بلاء حسنا ، وضرب بذلك مثلا من أمثلة الشجاعة النادرة ، وتابعت قوات السلطان الضرب بكل قوة فلجأ المغول إلى الجبل « فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه ، فألقى السلطان المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته « وإسلاماه » وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره . . . . وانهزم المغول ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون ويأسرون وأبلى الأمير « بيبرس » أيضا بلاء حسنا بين يدي السلطان[3] .

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ .

(٢) عين جالوت موقع في فلسطين بين بيسان ونابلس ـ انظر الخريطة .

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٢١

وتبـع الجيش الإسلامي المغـول إلى قرب « بيســان » فرجـع إليهم المغول وتجمعوا في قوة أعظم من القوة الأولى فهزمهم الله وقتل أكـابرهـم ، وعـدد كبير منهم ، وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديداً ، ولكن صرخ السلطان قطز فيهم صرخة عظيمة سمعه معظم العسكر وهو يقول « وإسلاماه » ثلاث مرات « يا ألله أنصر عبدك قطز على التتار » فلما انكسر المغول الكسرة الثانية نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه بالأرض وقبلها وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ، ثم ركب فأقبل الجنود وقد امتلأت أيديهم بالغنائم[١] .

وهكذا بفضل الله ثم بفضل القيادة التي اتخذت الإسلام طريقا والتزمت به سلوكا ومنهجا انهزم المغول لأول مرة في تاريخهم ، بعد أن « كـانت القلوب قد يئست من النصرة عليهم لإستيلائهم على معظم البلاد الإسلامية ولأنهم ماقصدوا اقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه »[٢] .

وبعد ذلك حُمل « كُتبغا » مكبلا إلى السلطان « قطز » فقال له : (أيها الرجل الناكث العهد . ها أنت ـ بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة ، وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيـوتات العـريقة بـالأقوال الـزائفة المزورة ـ قد وقعت أخيراً في الشرك .

ثم حصلت مناقشة سجلت فيها غطرسة « كُتبغا » ووقاحته وكان ختامها أن أمر « قطز » بقتله ففصلوا رأسه عن جسده[٣] .

ثم طارد المسلمون المغول في أكثر البلاد الشامية وطردوهم منها ، وصارت الحـرب سجالا بينهم ، المغـول في العراق وفـارس والأجزاء الشـرقيـة الأخـرى

---

(١) « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي ج ١ ص ٤٣١ .

(٢) المختصر في اخبار البشر لابى الفداء ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٣) أنظر جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣١٥ لرشيد الدين .

والمسلمون في بلاد الشام .

وانطلق دعاة الإسـلام يعرضـون الإسلام عليهم ، ويتحملون الصعـاب والمشقات بلا حماية من دولة ، ولا انتظار أجر دنيوي زائل ، فما هو الدافـع إلى ذلك ؟ وما الذي جعل الدعاة يتحملون كل تلك المشاق ؟ وما هي المميزات الذاتية في الإسـلام العظيم تلك التي دفعت المغـول إلى اعتناقـه ؟ وما هي الـوسـائـل والأساليب الموجودة في هذا الدين التي تسهل نشره وقبوله ؟

هذا ما سنجده إن شاء الله في الباب الثاني الذي يعرض لموضوع الدعوة ويعرف بها .

الباب الثاني

الدعوة الإسلامية

الفصل الأول
تعريف الدعوة ونشأتها وامتدادها

المبحث الأول: تعريف الدعوة

الدعوة لغة :

مصدر دعا يدعو دعوة : أي نادى ,

نقول دعا فلان فلانا : أي صاح به وناداه[1]

والدعوة اصطلاحا :

هي حث الناس على قبول دين الله ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه مع ما يتبع ذلك من إقامة الحجة للدين ورد الشبهات عنه .

ومن هنا يتضح أن الدعوة تشمل أمرين :

الأول : أسلوب توجيه الناس إلى قبول دين الله تعالى وما يتبع ذلك من وسائل .

الثاني : الدين نفسه من حيث هو مبادىء ، وأصول وأحكام . . . . الخ . ولذلك فالناس أمام الدعوة قسمان :

الأول « أمة الدعوة » وهي العالم كله الذي ينبغي نداؤه وحثه على

(١) أنظر المعجم الوسيط ج ١ مادة د. عوض ٢٨٦ ، المفردات لغريب القرآن ص ١٧٠ .

الدخول في دين الله ، وتعريف هذا الدين لأفراده بالأدلة والحجج والبراهين وبالحكمة والموعظة الحسنة .

الثاني : « أمة الإجابة » وهي الذين استجابوا فعلا للنداء ،ودخلوا في الدين والتزموا بأحكامه بموجب الشهادتين ، وهؤلاء أيضا قسمان :

الأول : « الدعاة » وهم الذين درسوا هذا الدين ، وتعلموه وتفقهوا فيه ، وأخذوا يعلمونه للناس .

الثاني : « المدعوون » وهم جمهور الأُمة الذين توجه اليهم هذه الدعوة .

المبحث الثاني: نشأة الدعوة وامتدادها

أولاً : ضرورة الدعوة :

لقد زود الله الإنسان بحواس محدودة تعينه على إدراك بعض ما حوله ، وتعينه على الحياة فوق هذه الأرض ، واستعمارها ولكن هذه الحواس لا تمكن الإنسان من رؤية كل شيء أو سماع كل شيء أو تفسير كل شيء حوله .

وقد أجهد كثير من الفلاسفة عقولهم في رسم طريقة مثلى لحياة الإنسان فوق الأرض ؛ ولكن النظريات التي توصلوا اليها كانت مختلفة ، فمفهوم الحياة المثالية عند « سقراط » مغاير لمفهومها عند « أفلاطون » وهذا وذاك يختلفان مع ثالث ، وهكذا ، ذلك لأن الإنسان محدود بزمان ومكان يتأثر بهما ، ويبني تجاربه على أساسهما ، وهو في ذلك الوضع لا يستطيع أن يعرف ظروف الإنسان الآخر الموجود في مكان مغاير أو الذي سيكون في زمان قادم .

لذلك كله لا يستطيع الإنسان أن يستغني عن دعوة الله سبحانه وتعالى لأنها تحمل معها تعاليم الخالق جل وعلا بدقتها وحكمتها ، فهو يعلم سر من خلق ، وظاهره وباطنه ، ويعلم مصلحة الفرد والجماعة في كل زمان ومكان ، ويعلم المصلحة الدائمة والمنقطعة ، ومن هنا أتت الدعوة الإلهية على فطرة البشر شاملة للجميع واضعة أسس الحياة على مفاهيم ثابتة ، وقواعد متينة ، لا تختلف من مكان الى آخر ، ولا تتغير بمرور الزمن ، ولا تعامل سلالات أو أقواماً معاملة ترفعهم أو تنزل بهم عن مستوى البشر .

والدعوة الإسلامية تسلم الكون لِمَلِكَه ، يضع فيه من الشرائع والأحكام ما يراه نافعا لهذا الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض .

وقد بعث الله للإنسان ـ الذي استخلفه في الأرض واستعمره فيها . الأنبياء والرسل يرشدونه إلى ما ينفعه ، ويبعدونه عما يضره ، ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[1] .

واذا استطاع بعض العقلاء أن يصل إلى معرفة الله والاعتقاد بوجوده ، والإيمان به اعتمادا على عقولهم ، فليس لهم ـ بالرغم من ذلك ـ غنى عن الرسل ، ذلك لأن الرسل يقومون بتفصيل قواعد الإيمان وترسيخها في نفوس الناس ، ويعلمونهم شرع الله ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى . . .** »[2] .

---

(١) سورة النساء من الآية ١٦٥ .

(٢) سورى الشورى من الآية ١٣ .

ثانيا : وجوب تبليغ الدعوة

أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله إلى الناس كافة ليبلغهم دعوته ، ولينقلهم من عبادة المخلوقات إلى عبادة خالق المخلوقات ، ومن ذُل المعصية إلى عز الطاعة قال تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين** ﴾[1] وقال : ﴿ **قم فانذر** ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك . . . .** ﴾[3] .

ومن هذا يتضح أن تبليغ الدعوة واجب أُنيط به ﷺ ثم أُنيط بالمؤمنين من أتباعه فقال تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني . . .** ﴾[4]وقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون** ﴾[5] وقد أمر الرسول صلوات الله وسلامهعليه الصحابة الكرام وجميع دعاة الإسلام وحملة هذا الدين بأن ينقلوا هذه الدعوة إلى الآخرين ، وهناك عدد كبير من الأحاديث التي تحض على ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب »[6] وقال عليه الصلاة والسلام « والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله ان يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »[7] .

ويرى فريق من العلماء بأن الدعوة فرضت على جميع المسلمين ابتداء ولكن

---

(١) سورة الحجر اية ٩٤

(٢) سورة المدثر آية ٢ .

(٣) سورة المائدة من آية ٦٧ .

(٤) سورة يوسف من آية ١٠٨ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

(٦) صحيح البخاري ج ١ ص ٣٥ كتاب العلم باب ليبلغ الشاهد الغائب .

(٧) رواه الترمذي وقال حديث حسن ، أنظر رياض الصالحين باب الأمر بالمعروف ص ١٠٤ .

هذا الفرض يسقط عنهم إذا أداه بعضهم ، ويستدل هذا الفريق بقول الله تعالى : **﴿ كنتم خير امة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾**[1] فالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر واجب على الأُمة الإسلامية ، وقوله تعالى : **﴿ ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ﴾**[2] . وتفيد لام الأمر الوجوب في هذه الآية .

وبرى فريق آخر من العلماء بأن تبليغ الدعوة فرض عين على المستطيع فقط كالحج والزكاة ، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى : **﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ﴾**[3] .

وهذا يدل على أن التبليغ واجب على طائفه من كل فرقة ، وليس على جميع المسلمين ، بل على القادرين منهم .

وإني أُرجح بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم في حدود ما يعلمه هذا المسلم .

هذا وهناك مئات الملايين من البشر بين وثني وملحد لا صلة لهم بالله ، ولا يتبعون دينا أو نبيا ، ومئات الملايين ممن يتبعون عقائد غير صحيحة أو ديانات محرفة ، وفي الوقت الذي ينشط فيه أعوان الشيطان يزينون بضائعهم ويعرضونها على قارعة كل طريق ،ـ وان نشاط العرض وحسنه وليست جودة البضاعة سبب انتشار كثير من المبادىء الهدامة ، والأفكار السخيفة الضحلة ـ نجد في الجانب

---

(١) سورة آل عمران من آية ١١٠ .

(٢) سورة العمران آية ١٠٤ .

(٣) سورة التوبه آية ١٢٢ .

الآخر تقاعس المسلمين ، وإهمالهم في عرض هذا الدين الحق على تلك الملايين من الأُمم الضالة

وقد قسم الإمام الغزالي الناس بالنسبة الى وصول الدعوة الإسلامية اليهم ثلاثة أصناف :ـ

الصنف الأول : من بلغتهم الدعوة الإسلامية واضحة بينه ، وعلموا كل شيء عن الإسلام ورسوله بواسطة الدعاة ، أو المجاورة ، أو المخالطة ، أو غير ذلك .

الصنف الثاني : من لم تبلغهم الدعوة أصلا ، ولم يعلموا شيئا عن الإسلام ورسوله .

الصنف الثالث : من علموا بالدعوة الإسلامية ، وسمعوا عن رسول الإسلام ، ولكن بصورة مشوهة منفرة كأن يُقال لهم « إن كذابا مدلسا اسمه محمد ادعى النبوة ، وأن الإسلام دين الرجعية والتخلف » .

والصنف الأول مكلف ومسئول ومؤاخذ على التقصير ، والصنف الثاني غير مكلف وغير مؤاخذ ، والصنف الثالث في معنى الصنف الثاني لأن ما يعلمه كعدمه[1] .

ومن هنا تظهر جليا مسئولية المسلمين عن الدعوة ، وأن هذه المسئولية ثقيلة جسيمة ، وأنهم لا تبرأ ذمتهم منها حتى يعلموا الجاهل ويصححوا صورة الإسلام في نفوس الناس ، بأقوالهم وأعمالهم جميعا .

---

(١) « الدعوة الإسلامية » للدكتور أحمد غلوش ص ٢٤٧ ، الشيخ محمد الغزالي « مع الله » ص ٦٦ .

ثالثا : نشأة الدعوة وامتدادها :

الحديث عن نشأة الدعوة الإسلامية حديث طويل ، طرقه خلق كثير من المسلمين ولكني سأطرق علامات قليلة في عجالة سريعة أصعها نبراسا في رسالتي هذه :

نشأت الدعوة الإسلامية في مكة وقد واجهت الخصومة الشديدة منذ اللحظة الأولى لظهورها ، وقد أثار أعداؤها عليها غبار الشبهات ، وظلم الاتهامات ، كأي دعوة سماوية حقة ﴿ **ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك** ﴾[1] .

وقد ذهب أعداء الإسلام في تفسيرهم لصدوع الرسول بالدعوة الإسلامية ودعوته إلى توحيد الله وترك عبادة الأوثان ، ذهبوا الى طرق كثيرة فمنهم من اتهم الرسول ﷺ بأنه إنما يريد بذلك أن تكون له الزعامة ـ وهي نفس التهمة التي وجهها فرعون وقومه إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام ﴿ **.... وتكون لكما الكبرياء في الأرض ...** ﴾[2] وهي نفس التهمة التي يواجهها أنصار دعوة الحق دائما حينما يتهمون بأنهم إنما يريدون بدعوتهم الاستيلاء على الحكم .

ومنهم من ظن أنه يفتري الكذب باختراع دين جديد فقالوا : ﴿ **ما سمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق** ﴾[3] ـ وهي نفس التهمة التي لا يزال يواجهها دعاة الإسلام من الطواغيت ـ عبيد الاستعمار وصنائعه ، وادوات الشيطان وحزبه ، فيقولون هذه سياسة ولا سياسة في الدين ولا دين في السياسة .

ومنهم من اتهمه بأنه ساحر يريد أن يبدل الدين والعقيدة بسحره وهي نفس

---

(١) سورة فصلت من الآية ٤٢ .
(٢) سورة يونس من آية ٧٨ .
(٣) سورة ص آية ٧ .

التهمة التي واجهت الأنبياء السابقين ﴿ **وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه اني اخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر في الأرض الفساد** ﴾[1] وهي نفس التهمة التي يواجهها دعاة الحق ، عندما يتهمهم الطواغيت بأنهم « يريدون أن يقضوا على مكاسب الشعب الثورية » . وأمثال ذلك من الدعاوي والزيف ، جاء وفد قريش إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : « يا محمد ، إنا قد بعثنا اليك لنكلمك وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك » .

تفكير دنيوي مادي هابط فماذا كان رده عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قال لهم : « ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم »[2] .

ذهب الى الطائف علّه يجد لدعوته قبولا فلم تواجهه قبائلها إلا بالإعراض والتكذيب ، وسلطوا عليه صغارهم وسفهاءهم وعبيدهم يشتمونه ، ويرجمونه

---

(١) سورة غافر آية ٢٦ .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٥ ، ٦٦ .

بالحجارة ، وتسيل الدماء من رجليه الطاهرتين ، ويذهب الى شجرة يستظل بظلها ويناجي ربه ، « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك على غضب فلا أُبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك »[1] .

اعتدى الكفار عليه وعلى أتباعه ، وعذبوهم بأنواع العذاب ، فكانوا يأتونه يشكون إليه فيطلب منهم أن يصبروا ، ولقد حاصرهم المشركون في شعب بني هاشم ، فأقاموا عل ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا[2] .

ثم هاجر الرسول الكريم وأصحابه إلى المدينة ليؤسس هناك أول دولة اسلامية قائمة على أُسس راسخة فكان هناك الأُمة المسلمة ، والحكومة الإسلامية التي يرأسها الرسول الكريم ، والأرض الإسلامية المتمثلة في المدينة وما حولها والشريعة والمنهج الذي يسيرون عليه ، فكانت مقومات الدولة الأساسية متوفرة لهذه الحكومة .

وحرص عليه الصلاة والسلام على ترسيخ قواعد التعاون بين أفراد هذا المجتمع ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، وعقد « معاهدة أساسية » تضاهي بل تفضل أحسن ما عرف العالم في هذا الباب وهو ما عرف « بالصحيفة » وقد لاحظت عليها ما يلي :-

(١) ميزت هذه الصحيفة المؤمنين عن غيرهم وجعلتهم أُمة واحدة دون الناس ،

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩ و ٣٠ .
(٢) تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام محمد هارون ص ٨١ .

سلمهم واحده ؛ يسعى في ذمتهم أدناهم ، وحرم عليهم مناصرة المشركين أو الكفار ضد المؤمنين .

(٢) ضمنت الحقوق والواجبات لجميع سكان المدينة ، وجعلت كل إمريءٍ بما كسب رهين ، لا يضار أحد بذنب غيره .

(٣) ضمنت حقوق أهل الكتاب الذين يعيشون في هذه الدولة فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، وأعلنت بأن اليهود على دينهم ، وينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأنهم أُمة مع المؤمنين .

« وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الأثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين »[1] .

ثم انطلق دعاة الإسلام بالرسائل التي كتبها رسول الله ﷺ إلى ملوك وأباطرة العالم في ذلك الوقت .

ثم انطلقت الجحافل الإسلامية تفتح البلدان بالنور الذي تحمله للأمم الأخرى .

وقد شيدوا دولة كانت المثل الأعلى للحرية والإخاء والمساواة وما زالت دول العالم ومخلصوه في شرقه وغربه ، يحلمون أن يصلوا بأممهم إلى جزء من السعادة والعدل الذي ركزت دعائمه في تلك الدولة ، التي كان رئيسها لا يميز عن شعبه إلا بكونه أثقلهم حملا وأقلهم مغنما ، ولكنه كان ينام آمنا مطمئنا تحت شجرة في العراء

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢٢ .

حتى استغرب رسول الفرس فقال قولته التي أصبحت مثلا « حكمت فعدلت فأمنت فنمت » .

ورحم الله « حافظ ابراهيم » حين قال :[1]

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا	بين الرعية عطلا[2] وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها	سورا من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقا في نومه فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانيها
فهان في عينه ما كان يكبره	من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم	فنمت نوم قرير العين هانيها

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ص ٩٠ .

(٢) عطلاً : خال من السلاح .

الفصل الثاني
خصائص الدعوة الإسلامية

المبحث الأول : الإسلام دين الفطرة

يعتبر الإسلام ـ إلى جانب ما يتميز به من صفات أخرى ـ دين الفطرة السليمة الواضحة ، ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾[1] لا التواء فيه ولا ألغاز ، ولم يدخل عليه تبديل أو تحريف يجعلان العقل عاجزا عن فهم بعض ما جاء فيه .

فمن ناحية العقيدة يأمر الله سبحانه وتعالى بعبادة إله واحد ليس له شريك في الملك ﴿ **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد** ﴾[2] فلم يقل بآلهة كثيرة ، كما قال المشركون في الأرض وأمثالهم ، اليونان والرومان ، ولم يقل بثلاثة آلهة كما قالت النصارى ﴿ **ثالث ثلاثة** ﴾[3] ولا بإلهين إثنين مُتشاكِسينْ كما قالت « الثنوية » ـ إله الخير وإله الشر اللذين هما في صراع دائم .

والإسلام خال من الأسرار المعقدة التي لا يعرفها حتى رجال الدين كما هو الحال بالنسبة للنصارى الذين لا يستطيع أحد منهم ـ ابتداء بأكابر رجال الدين وانتهاء بأصغر نصراني ـ أن يدرك سر التثليث مثلا ، أو سر القربان وتحوله إلى لحم

---

(١) سورة الروم من آية ٣٠ .
(٢) سورة الاخلاص الآيات ٣ و ٤ .
(٣) سورة المائدة من آية ٧٣ .

المسيح ودمه ، هذه الأمور التي يطالب رجال الدين النصارى أتباعهم الإيمان بها دون محاولة لفهمها .

أما الإسلام فقد وضَّح كل شيء﴿ **اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾[1] . والرسول الكريم عليه صلاة الله وسلامه يقول : « قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي عنها الا هالك »[2] .

ويرفض الإسلام فكرة « الوساطة » بين العبد وربه كما هو الحال في الديانة النصرانية ، تلك الوساطة التي لا يستسيغها عقل ولا فطرة ولا إدراك فهي تجعل حجابا بين الله وعباده ، والله سبحانه هو الذي خلق الناس جميعا وهو أقرب اليهم من أنفسهم ﴿ **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد** ﴾[3] وما دام ذلك كذلك فلمَ الواسطة ولم الحجاب ؟ الذي اختلقه الإنسان بيده الظالمة والصقه في دين الله سبحانه والله يقول في محكم كتابه ﴿ **واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾[4] فإذا أراد الإنسان التوبة فليتجه إلى ربه الغفار الرحيم الذي يعرف حال عبده ، وإذا أراد السؤال فليتجه إليه فهو الكريم المعطاء ، وفي كل الأُمور يتجه العبد إلى الله الواحد الأحد فهذه هي العقيدة الصحيحة التي تتمشى مع الفطرة ، إذ تخرج الإنسان من عبادة العباد الى عبادة رب العباد .

ويعتقد أتباع الديانة النصرانية بأن الإنسان يولد مثقلا بالخطيئة التي ارتكبها

---

(١) سورة المائدة من آية ٣ .
(٢) اخرجه الأمام احمد في مسنده ج ٤ ص ١٢٦ .
(٣) سورة ق : آية ١٦ .
(٤) سورة البقرة : آية ١٨٦ .

آدم جد الإنسانية ، فهو يحمل وزر جده الأعلى الذي خالف أمر ربه بأكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها ، كما يطلبون من أتباعهم الأيمان بقصة « الصلب والفداء ـ صلب المسيح الإله بزعمهم ـ، ليفدي البشر مما لحق بهم من تلك الخطيئة » ، وكيف يدخل عقلا أن الإله القادر القوي يتمكن منه أعداؤه ، ويصلبونه وهو يستغيث ولا مغيث له »[1] .

أما الإسلام فيقرر ما يتمشى مع عقل الإنسان وفطرته حين يقرر بمنتهى الصراحة والوضوح ﴿ **الا تزر وازرة وزر اخرى** ﴾[2] فلا يتحمل الإنسان وزر جده أو وزر والده أو وزر أقرب الناس اليه ﴿ **كل امريء بما كسب رهين** ﴾[3] وأن الانسان يولد بريئا من كل ذنب أو خطيئة .

وأما عن قصة آدم فيقول الله تعالى : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾[4] .

كما يقرر الإسلام بأن الإنسان إذا اعتقد بإله واحد لا شريك له وآمن برسله جميعا ، لا يفرق بين أحد منهم ، وأطاعهم فإنه يصبح مسلما ، وهذا مطلب واضح جدا وبإمكان العقل العادي أن يفهم ذلك بسهولة ، وأن يفهم جميع الشعائر الأخرى التي يقوم عليها الإسلام . هذه الخاصية التي يتميز بها الإسلام ستجعل الناس دائما وأبداً في كل زمان ومكان يؤمنون به ويتحولون إليه إذا وجدوا من يستطيع تقديمه لهم بالطريقة التي رسمها الله وحث عليها رسول الله ﷺ[5] .

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسان إليه للدكتور محمد يوسف موسى ص ٤٣ .

(٢) سورة النجم آية ٣٨ .

(٣) سورة الطور : آية ٢١ .

(٤) سورة طه : الآية ١٢١ و ١٢٢ .

(٥) لتفصيل اكثر راجع كتاب الإسلام وحاجة الإنسان اليه للدكتور محمد يوسف موسى « من خصائص الإسلام » ص ٢٩ .

وقد اختص الله الدعوة الإسلامية بتعهده سبحانه وتعالى بحفظها قال تعالى : ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾ [1]

المبحث الثالث : الإسلام دين الحرية والمساواة

اعتبر الإسلام حرية الإنسان أساسا من الأُسس التي تقوم عليها عقيدته وحياته ، لأن العقيدة لا تكون بلا حرية « ذلك لأن العقيدة في حقيقتها حاجة نفسية عند الشخص المعتقد ، معتمدة على أساس مقدس ، وهذه الحاجة النفسية هي التي توجد الإيمان والتدين عند صاحبها »[2] .

وإذا صح استعمال القوة والقهر والإكراه في بعض أُمور الحياة فإن هذا الإكراه لا يمكن استعماله لإرغام الإنسان على اعتناق دين معين أو فكرة محددة ، ذلك لأن الإيمان حاجة في النفس ، وإذا حصل وأُكره صاحبها فإن هذا الإيمان لا يلبث أن يزول بمجرد ذهاب عامل الخوف قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول امنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين ﴾[3] فلا اعتبار للقول ، ولا للمظهر ، وإنما القيمة للجوهر فقد أَعلن المنافقون ايمانهم ولكن الإسلام نبه اليهم ، وحذر منهم فهم أَشد خطرا على الإسلام والدعوة الإسلامية من الكفار ، فقال الله عنهم : ﴿ . . . هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون ﴾[4] .

ولم يقم الإسلام وزنا لإيمان الذين يؤمنون بالله قسراً أَو اضطراراً كالذي يؤمن أَو يتوب إلى الله عندما تحضره الوفاة ، فقال جل شأْنه : ﴿ وليست التوبة

---

(١) سورة الحجر آية ٩ .

(٢) الدكتور احمد غلوش « الدعوة الإسلامية اصولها ووسائلها » ص ٢٥٨ .

(٣) سورة البقرة آية ٨ .

(٤) سورة المنافقون آية ٤ .

للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار اولئك اعتدنا لهم عذابا اليماً ﴾[1] يقول الرازي « إن الإيمان في الوقت الذي يعاين المرء فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب لا ينفع ، إنما ينفع وقت ما يملك الإنسان القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختارا »[2] .

وقد أعلن فرعون إيمانه عندما رأى البحر يطبق عليه والموت يحيط به فقال : ﴿ آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين ﴾ فرد عليه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ .... الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[3] .

ولما كانت الحرية وحبها والحرص عليها من الأُمور الفطرية ، فقد حرص الإسلام على مراعاتها ، فدعا إلى تحرير عقل الإنسان من الضلالات والتقاليد الباطلة ، ودعا إلى تخليص الضعفاء من سيطرة الأقوياء ، وجعل الناس متساوين لا فرق بين أسود وأبيض أو بين حاكم ومحكوم ، أو رجل وامرأة وجعل معيار التفاضل هو « التقوى » . ﴿ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير ﴾[4] .

ثم يوجهنا الإسلام إلى عدم اتخاذ بعضنا أربابا من دون الله ، فالخضوع للحاكم الذي يأمر بغير ما أنزل الله يعتبر تأليها لذلك الحاكم وفي ذلك يقول سبحانه للكتابيين الذين رفضوا الدخول في الإسلام ، رغم الحجج الواضحة والآيات

---

(١) سورة النساء آية ١٨ .
(٢) مفاتيح الغيب ج ٧ ص ٣٤٥ .
(٣) سورةيونس آية ٩١ ـ ٩٢ .
(٤) سورة الحجرات آية ١٣ .

البينة : ﴿ **قل : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[1] . وقال عن اليهود والنصارى أيضا ﴿ **اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون** ﴾[2] .

ثم إن الإسلام أَعطى للمرأة وضعها الفطري الطبيعي وجعلها مع الرجل على قدم المساواة في التكاليف الشرعية والحقوق والواجبات ، إلا ما اقتضته فطرة كل منهما فحينئذ يقدم الرجل فيما يخصه كالقوامه على البيت ، ويقدم المرأة فيما يخصها كحقها في قبول الزوج أو رفضه ، وحقها في حضانة الأبناء الصغار ، وجعل لها نصيبا في الإرث وندد بعادات العرب في احتقارها فقال تعالى : ﴿ **واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون** ﴾[3] .

وقد حرر الإسلام الإنسان من العبودية لشهواته وهواه فقال تعالى : ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾[4] وندد سبحانه وتعالى بالمتع البهيمية التي يتخذها الإنسان فقال : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم** ﴾[5] .

ومن شدة عناية الإسلام بالحرية أن الله سبحانه وتعالى جعل رسوله هادياً ومبشراً ونذيراً فقط ، ولم يطلب منه أن يكره أَحداً على الإيمان فقال تعالى : ﴿ **لا**

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ .

(٢) سورة التوبة آية ٣١ .

(٣) سورة النحل آية ٥٨ ـ ٥٩ .

(٤) صورة (ص) آية ٢٦ .

(٥) سورة محمد آية ١٢ .

اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي . . . ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[2] . ومن المعروف أن أخا « مارية القبطية » بقي على دينه سنوات . في بيت رسول الله ﷺ قبل أن يسلم[3] ، وقد أمر الإسلام بإحسان معاملة أهل الكتاب فقال عز من قائل : ﴿ ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن . . ﴾[4] ووصى برعايتهم والعدل معهم ، والبر اليهم ، وضمن لهم حرية العبادة ، وصان شعائرهم . كل ذلك انبعاثاً من أصله الأصيل في تكريم الإنسان وإحترام حريته التي جعلها سبحانه وتعالى مناط تكليفه وثوابه وعقابه بعد ذلك .

المبحث الثالث : عالمية الدعوة الاسلامية

كان رسول الإسلام صلاة الله وسلامه عليه يحمل من الصفات الحميدة والأخلاق الطيبة ما يجعله بحق الرسول القدوة للعالم أجمع ، يقول الله سبحانه وتعالى في مدحه : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾[5] ويقول : ﴿ لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[6] .

وقد كانت دعوته للناس جميعا لا للعرب وحدهم قال تعالى مخاطبا نبيه ﴿ وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ﴾[7] وقال : ﴿ وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا

---

(١) سورة البقرة آية ١٢ .
(٢) سورة يونس آية ٢٥٦ .
(٣) ابن سعد « الطبقات الكبرى ج ٨ ، ص ٢١٢ .
(٤) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
(٥) سورة القلم آية ٤ .
(٦) سورة التوبة آية ١٢٨ .
(٧) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

ونذيرا ﴾[1] وقال جل من قائل : **﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾**[2] كما أمر سبحانه وتعالى أن يتوجه للناس جميعا بقوله : **﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾**[3] .

قبل الإسلام كان كل رسول يرسل إلى قومه . فأنبياء بني إسرائيل لم يتوجهوا بدعوتهم إلّا إلى بني جلدتهم ، فكتبهم وأسفارهم لم تخاطب غيرهم والقرآن الكريم يؤكد أن رسالات الرسل السابقين لم تكن عالمية ، وإنما كان يرسل الرسول إلى قومه وحدهم قال الله تعالى : **﴿ انا ارسلنا نوحا الى قومه ان انذر قومك . . . ﴾**[4] وقال : **﴿ والى عاد اخاهم هودا . . . . ﴾**[5] وقال : **﴿ والى ثمود اخاهم صالحا ﴾**[6] وقال سبحانه : **﴿ والى مدين اخاهم شعيبا . . . ﴾**[7] ولكن الرسالة الإسلامية هي أول وآخر رسالة جعلها الله للبشرية كافة فهي خاتمة رسالات الله إلى الناس أجمعين ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . قال رسول الله ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[8] .

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨ .
(٢) سورة الفرقان آية ١ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٥٨ .
(٤) سورة نوح من آية ١ .
(٥) سورة الأعراف آية ٦٥ .
(٦) سورة هود آية ٦١ .
(٧) سورة الأعراف آية ٨٥ .
(٨) رواه البخاري ج ٤ ، كتاب بدء الخلق ـ باب خاتم النبيين ـ ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

وقد كانت مدرسة الرسول عليه الصلاة والسلام خير شاهد على عالمية الرسالة وعالمية المدرسة ، فقد كان من بين صحابته عليه الصلاة والسلام العرب من قريش وغيرها ، وبلال من الحبشة ، وسلمان من بلاد فارس ، وصهيب من بلاد الروم ، ويعتبر هذا من الأدلة التطبيقية على عالمية الرسالة الإسلامية ، هذه المدرسة التي وحدت شعوب الأرض على قدم المساواة لأول مرة في تاريخ الإنسانية ، فقبل رسالة الإسلام « كان الرومان يزعمون أنه من الطبيعي أن يكونوا حكام العالم وغيرهم ليسوا إلا برابرة وخداما لهم ، وكان اليهود والنصارى ، يقولون : ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾[1] وقالوا : ﴿ **لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى** ﴾[2] وكان العرب يرون أنهم وحدهم أهل الفصاحة والبلاغة وأن غيرهم ليسوا إلا عجما[3] ، « وكان البراهمة يعتقدون أن الله خلقهم من أشرف جزء فيه وهو الرأس ، وخلق المنبوذين من أدنى جزء وهو القدم وشتان بين الرأس والقدم »[4] وعلى العموم كان التفاضل بين الناس قبل أن يشرق الإسلام بنوره على الإنسانية ـ قائماً على الجنس أو الدين أو النسب أو المال وكثرة الأبناء ولكن الإسلام ألغى هذه الأسس الجاهلية جميعا واعتبرها عرضاً زائلاً قال تعالى : ﴿ **اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** ﴾[5] وقال رسول الله ﷺ : « كلُّكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى »[6]

---

(١) سورة المائدة من الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية ١١١ .

(٣) الدكتور محمد يوسف موسى « الإسلام وحاجة الإنسان اليه » ص ٣٥ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٥٩ .

(٥) سورة الحديد آية ٢٠ .

(٦) مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤١١ .

فزالت موازين الباطل وجاء ميزان الحق القائم على العدل والمساواة بين أبناء البشر جميعا .

المبحث الرابع : الاسلام دين العقل والفكر

يعرض الله سبحانه دعوته على الناس فينادي أفهامهم وعقولهم في آيات كثيرة ، قال تعالى : ﴿ **إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[2] ويعيب الله سبحانه وتعالى على الذين لا يستعملون عقولهم ، ويضعهم في صف البهائم بل ويعتبر أنهم هيئوا لجهنم قال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون** ﴾[3] .

ومما يسهل قبول الناس للإسلام أن الدين الإسلامي بعيد عن الخزعبلات الفارغة ، والضلالات الممقوتة ، وذلك لأنه يقيم للعقل وزنا كبيرا ، فهو لم يطلب من الناس الإيمان به بلا تفكير أو روية ، بل يطلب اليهم التفكير والتدبر فيما حولهم من آيات تدل على وجوده سبحانه فيقول : ﴿ **انا انزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون** ﴾[4] .

كما يمقت الله سبحانه الذين ينكرون دعوته مكتفين بما وجدوه عند آبائهم

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

(٢) سورة النحل آية ١٢ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

(٤) سورة يوسف آية ٢ .

وأجدادهم من خرافات فارغة ، وأفكار تافهة فقال جل شأنه : ﴿ **واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** ﴾[1] .

فدعوة الإسلام تطلب من الإنسان الإبتعاد عن التقليد واستعمال العقل والتفكير فقال تعالى : ﴿ **قل انما اعظم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . . . .** ﴾[2] .

يقول الدكتور أحمد غلوش : « ومن أجل المحافظة على القدرة الكاملة للعقل لم تقم الدعوة الإسلامية أساسا على المعجزة الحية الخارقة للعادة ، لأن صاحبها لا يثبت بها وحدها أمام المجادلة والشكوك ولذلك لما طلبها المشركون ، وقالوا للنبي ﷺ : ﴿ **. . لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه** ﴾[3] .

ولما طلب المشركون هذه المعجزات الحسية استنكر النبي ﷺ عليهم ذلك وقال لهم كما علمه القرآن : ﴿ **قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا** ﴾[4] وذلك لأن الإيمان يحتاج إلى اقتناع كامل ، ولو تم الإيمان عن طريق المعجرة الحسية لكان تسليما لا يتساوى مع طلعة العقل المدرك الذي يفحص ويفهم[5] .

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٤ .

(٢) سورة سبأ آية ٤٦ .

(٣) سورة الإسراء الآيات من ٩٠ - ٩٣ .

(٤) سورة الأسراء الآية ٩٣ .

(٥) الدعوة الإسلامية للدكتور أحمد غلوش ص ٢٥٦ .

المبحث الخامس : الاسلام دين الشمول

جاء الإسلام شاملا لجميع مناحي الحياة ، واضعاً لها ـ كما أسلفنا ـ أنجع الحلول ، ذلك لأن واضع هذه الحلول هو الله العظيم الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب اليه من حبل الوريد ، وضع القانون الذي ينفع الإنسان ويناسبه في كل زمان ومكان ، وأرسل بذلك رسله وأنبياءه وعندما كملت العقيدة وصلح البناء ولم تبق إلا اللبنة النهائية جاء رسول الله محمد ﷺ ليكمل للمؤمنين دينهم ، وقوانين حياتهم التي وضعها الله لهم لتطاع وتطبق ، ويحكم بها ، لأن الله هو ملك هذا الكون وهو صاحب الحق في أن يضع في ملكه القوانين التي يريدها ، وعلى هؤلاء الذين يعيشون في ملكه أن يلتزموا بأوامره .

وهؤلاء الذين استخلفهم الله في ملكه ، وولاهم أمر عباده إما أن يكونوا ملتزمين بالحكم بما أنزل الله قائمين على شريعته كاملة غير منقوصة فيدخلوا بهذا في عباد الله المؤمنين ، وإما أن يُحكِّموا شرائع أخرى مما لم يأذن به الله فيصبحوا بذلك كافرين ، قال تعالى : ﴿ . . . **ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[1] .

يقول الشهيد « سيد قطب » . . . الذي لا يحكم بما أنزل الله إنما يرفض أُلوهية الله ، فالأُلوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية ومن يحكم بغير ما أنزل الله ، يرفض أُلوهية الله وخصائصها في جانب ، ويدعي لنفسه هو حق الأُلوهية وخصائصها في جانب آخر ، وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك . وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل ـ وهو أقوى تعبيرا من

---

(١) سورة المائدة من آية ٤٤ .

الكلام ـ ينطق بالكفر أفصح من اللسان .

إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل ، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة ، والتأويل والتأوّل في مثل هـذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم . . . وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الواضح الأكيد »[1] .

والشرائع التي يضعها الإنسان تكون ظالمة ذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يعرف أو يقدر ظروف غيره من بني البشر الذين يعيشون في مكان آخر أو الذين سيكونون في زمان آخر . لذلك فإن تشريعه يكون ناقصا ، وتطبيق الشرع الناقص يؤدي الى ظلم العباد ، قال تعالى : ﴿ . . . **ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون** ﴾[2] .

وإذا وجد الإنسان شريعة عادلة سمحة ، ثم عدل عنها بهواه إلى شـريعة أُخرى أو الى مذهب من المذاهب التي وضعها الناس فهو متمرد على دين الله خارج عن حدوده وهذا هو الفسق في قوله تعالى : ﴿ . . . **ومن لم يحكم بمـا انزل الله فاولئك هم الفاسقون** ﴾[3] .

يقول الشهيد سيد قطب : « الكفر برفض أُلوهية الله ممثلا هذا في رفض شريعته ، والظلم بحمل الناس على غير شريعة الله ، وإشاعة الفساد في حياتهم ، والفسق بالخروج عن منهج الله ، واتباع غير طريقة ، فهي صفات يتضمنها الفعل الأول ، وتنطبق جميعها على الفاعل ، ويبوء بها جميعا دون تفريق »[4] .

---

(١) في ظلال القرآن م ٢ ج ٦ ص ٨٩٨ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٤٥ .

(٣) سورة المائدة من الآية ٤٧ .

(٤) في ظلال القرآن م ٢ ج ٦ ص ٩٠١ .

وقد يتذرع بعض الظالمين الفاسقين للخروج على شرع الله بأنهم إنما يريدون بدلك تأليف قلوب الأمة بطوائفها المختلفة وعقائدها المتفرقة فيجمعون الناس على طريق واحد متحدين متعونين ، فنرد على هؤلاء بأن الله الذيأنزل الشرائع خلق الناس هكذا وإذا كان أنبياء الله ورسله قد عجزوا عن توحيد جميع الناس على دين واحد رغم ما أعطاهم الله من إيمان وإخلاص ومقدرة، فهل ينجح المبطلون في ذلك ؟ قال تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ [1]

ثم إن الله اللطيف الخبير الرحمن الرحيم لا يضع لهذا الإنسان من القوانين والإرشادات إلا تلك التي تعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة ، أما الإنسان المنحرف الظالم أو المنافق الذي يتظاهر بالإيمان أو الذي لم يكمل إيمانه فإنه يتحين الفرص للخروج على شرع الله القويم ، ومنهاجه العادل ، أو على بعضه والعودة إلى تحكيم الطواغيت في أموره هدفه في ذلك مسايرة رغباته وشهواته : قال تعالى : ﴿ **وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾[2] .

---

(١) سورة المائدة من آية ٤٨ .

(٢) سورة المائدة الآيات ٤٩ ، ٥٠ .

الفصل الثالث
أساليب الدعوة الاسلامية ووسائلها

اقتضت إرادة الله سبحانه أن تبلغ دعوته إلى الناس كافة ، فوضع الأساليب والوسائل المحققة لذلك في القرآن الكريم ، وفي سنة نبيه ، وفي الأعمال الصالحة التي هدى اليها الصحابة الكرام الذين ساروا على هديه ، على ما نبينه فيما يأتي :-

المبحث الأول : تعريف أساليب الدعوة الاسلامية ووسائلها

أولا : تعريف الأسلوب :

الأسلوب لغة :

يطلق الأسلوب في لغة العرب اطلاقات مختلفة فيقال للطريق بين الأشجار ، وللفن ، وللمذهب ، ويطلق على طريقة المتكلم في كلامه ، ويقال سلكت أسلوب فلان في كذا : أي سلكت طريقه ومذهبه[1] .

والأسلوب اصطلاحا :

هو الطريقة التي يسلكها الداعية لايصال الدعوة الى الناس .

---

(١) المعجم الوسيط ج ١ ص ٤٤٣ ، مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ج ٢ ص ١٩٨ .

ثانيا : تعريف الوسيلة :

الوسيلة لغة :

من الفعل وسل يسل وسلا : أي رغب وتقرب فنقول توسل فلان الى الله : أي عمل عملا تقرب به اليه ، والوسيلة : الوصلة ، والوسيلة ، القربى ، والوسيلة : درجة النبي محمد ﷺ في الجنة[1] .

والوسيلة اصطلاحاً :

هي ما يستعان به على الوصول الى هدف معين .

ووسائل الدعوة الإسلامية :

هي كل ما يستعين به الداعية (من الاشياء) على تبليغ الدعوة الى الناس بشكل نافع مثمر[2] .

ولتوضيح الفرق بين الأسلوب والوسيلة نضرب الأمثلة الآتية :

فعندما يصوغ الشاعر شعره فهذا أُسلوب والكتاب أَو المنشور الذي يحمل هذا الشعر للناس وسيلة ، والكاتب الذي يكتب قطعة أَدبية فكتابته أُسلوب والصحيفة التي تنقل هذه القطعة للقراء وسيلة ، والخطيب الذي يختار كلمات خطبته وعباراتها فعمله هذا اسلوب ومكبر الصوت الذي يحمل هذه الكلمات والعبارات للناس فهو وسيلة ، ومن هذا يتضح أن الوسيلة تخدم الأسلوب .

---

(١) المعجم الوسيط ج ٢ ص ١٠٤٤ .

(٢) اصول الدعوة : للدكتور عبدالكريم زيدان ص ٤٢٩

المبحث الثاني : أساليب الدعوة الإسلامية

للدعوة الإسلامية أساليب كثيرة نذكر منها الأساليب الآتية على سبيل المثال لا الحصر :

أولا : تحديد الداء ووصف الدواء :

يشبه العلماء الداعية بالطبيب الذي يأتي لعلاج مرضاه ، فيقوم بتحديد المرض الموجود في مجتمعه ، ثم يصف الدواء اللازم للتخلص من هذا المرض .

وأصل داء البشر هو جهلهم بالله وكفرهم به ، وتمردهم عليه برفض العبودية الكاملة له سبحانه ، ورفض المنهاج الذي جاء به رسول الله ﷺ ، وغفله الناس عن الآخرة وركونهم إلى الدنيا ، هذا هو الداء الذي يصيب البشرية من حين إلى حين ، وقد يظهر الكفر بجميع مقوماته ، وتظهر تبعا لذلك المفاسد والشرور جميعها ، وقد يظهر جزء من الكفر فيظهر نوع من الفساد بقدر ذلك الكفر الذي ظهر أو تنتشر المعاصي والكبائر التي هي دون الكفر .

وعلاج هذا المرض هو الإيمان بالله وحده لا شريك له ، بالطريقة التي يراها سبحانه والخلوص من الشرك ، والانقياد له بالطاعة ، وهذه هي الرسالة التي جاء بها الأنبياء جميعا ، قال تعالى : ﴿ **انا ارسلنا نوحا الى قومه ان انذر قومك من قبل ان يأتيهم عذاب اليم . قال يا قوم اني لكم نذير مبين . ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون** ﴾[1] . ، وقال سبحانه : ﴿ **ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[2] .

---

(١) سورة نوح الايات ١ و٢ و٣ .

(٢) سورة النحل من آية ٣٦

وقد جاءت التعاليم السماوية التي قصدت اخراج البشر من عبادة البشر إلى عبادة رب البشر ، ومن ذل المعصية الى عز الطاعة لتوكيد معنى العقيدة وغرسها في النفوس فقال تعالى : ﴿ **وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون** ﴾[1] .

وقد بدأ القرآن يتنزل على الرسول الكريم ليثبت العقيدة في نفوس المسلمين طوال العهدالمكي ولم ينقطع في العهد المدني بل استمر التوكيد على تثبيت هذه العقيدة ـ الى جانب التشريع وشعائر الإسلام الأُخرى ـ، في العهد المدني كما يشهد على ذلك كثير من الآيات ، وختام آيات المعاملات التي كانت دائما تحض على الإيمان بالله واليوم الآخر ، كما في الآيات الكريمة ﴿ **ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا . يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا** ﴾[2] .

وعلى الداعي أن يهتم بعلاج أصل الداء والا يبعثر مجهوده بالخوض فيما يهواه الناس ، من أمور فرعية ، أو ثرثرة سياسية قد تبعده عن أصل الداء ، فيكون كمن يبني بناء بلا أساس لا يلبث أن ينهار ، والرسول عليه الصلاة والسلام بدأ بدعوته ببناء العقيدة في النفوس ، ولم يتعرض للفروع والجزئيات حتى قوى الإيمان وانتصر الحق ، فقام المسلمون بتحطيم الأصنام بأقل عناء وهم يرددون قوله تعالى : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنبياء اية ٢٥ .

(٢) سورة النساء الآيات ٥٨ و ٥٩ .

(٣) سورة الاسراء آية ٨١ .

ثانيا : إزالة الشبهات :

المقصود بالشبهات هو ما يثيره أعداء الدعوة من الشكوك والريب في صدق الداعي ، وأحقية ما يدعو إليه ، وهم بإثارتهم لتلك الشكوك والريب يحاولون منع الناس من الاستجابة للداعية أو على الأقل تأخير الاستجابة له حماية لعادة سيئة تعودوها أو حماية لمصلحة ، أو رئاسة ، ويكرر هؤلاء الطواغيت ـ الذين تكون في يدهم المصلحة أو الرئاسة ـ التهم والشبهات أمام العوام مرات كثيرة حتى تثبت في أذهانهم ، وتصرفهم عن دعوة الحق ودعاتها .

ويجب على الداعي أن يدرك أن أعداء الدعوة الإلهية موجودون منذ الأزل ، فما جاء رسول بدعوة إلا وقف هؤلاء الأعداء يثيرون في وجهه غبار الشبهات ، وظلم الاتهامات قال تعالى مخاطبا رسوله محمد ﷺ : ﴿ **ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك . . .** ﴾[1] وقال عز من قائل : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا : ساحر أو مجنون . اتواصوا به بل هم قوم طاغون** ﴾[2] .

فاذا فهم الداعي هذه الحقيقة زال عجبه ، وسكن غضبه فهو ليس أفضل من رسل الله ، ولا أفصح بيانا ، ولا أكثر تأييداً من الله ، ثم ان الامور أولا وأخيرا تجري بإرادة الله ، وما على الداعي إلا أن يبذل طاقته في سبيل الله ، ثم ان التوفيق بيد الله سبحانه ﴿ **والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون** ﴾[3] . ولسنا أحرص من الله على دعوته ، وليعلم الدعاة بأن الله سيحاسبهم إن قصروا في الدعوة الى الله ، ولن يحاسبهم على تحقق هداية الناس ، فالهداية بيده سبحانه يؤتيها من يشاء ، في أي وقت شاء .

---

(١) سورة فصلت من الآية ٤٣ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٢ و٥٣ .

(٣) سورة يوسف آية ٢١ .

يقول الدكتور عبدالكريم زيدان : « والشبهات أنواع ، منها ما يتعلق بالداعي ومنها ما يتعلق بموضوع الدعوة ، ومنها ما يتعلق بعموم المدعوين فالذي يتعلق بالداعي يتمثل بالطعن في شخصه ، وسيرته ، وسلوكه ، والصاق التهم به ، ورميه بالسفه ، والجهالة ، والضلالة ، والجنون والافتراء الى غير ذلك مما يكون المقصود منه تنفير الناس من الداعية وعدم الثقة به .

والذي يتعلق بموضوع الدعوة ، يتمثل في إتهامها بالابتداع والخروج على مألوفات الناس ، وتقاليدهم ، ونظامهم الموروث ، مما يراد به تنفير الناس من الدعوة الى الله وصدهم عن سبيله .

والذي يتعلق بالمدعوين يتمثل بإظهار الحرص على مصالحهم وملتهم ودين آبائهم والحفاظ على نعيمهم ، وحياتهم المطمئنة مما يقصد منه إثارة حماس الناس ضد الدعاة الى الله[1] .

يقول الامام الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ في تصوير مثل هذا :

« سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله وسيحقد عليكم الرؤوساء والزعماء وذووا الجاه والسلطان وستقف في وجوهكم كل الحكومات على السواء وتحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم . وسيثيرالجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة وان يظهروها للناس في ابشع صورة معتمدين على قوتهم وسلطانهم ومعتدين بأموالهم ، ونفوذهم »[2] .

---

(١) الدكتور عبدالكريم زيدان أصول الدعوة ص ٤١١ .

(٢) رسالة بين الامس واليوم ص ٢٩ .

وموقف الداعية هو تفنيد هذه الشبهات ، واظهار زيفها أمام الناس بالحجة الواضحة والبراهين الحسنة ، برفق وصبر ، وتحمل واحتساب ما يلقى من الأذى عند الله ، وله في رسل الله أُسوة حسنة ، وفي القرآن الكريم صور كثيرة لمواقف أعداء الدعوة من الرسل . فقال تعالى عن قوم نوح عليه السلام وما رموه به ، وطريقة رده عليهم : ﴿ **قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، ابلغكم رسالات ربي وانصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون** ﴾[1] .

والقرآن الكريم مملوء بهذا اللون من الأساليب الهادية :

ومن بعض الذين أُترفوا بوجه الدعاة معاندة ومعارضة خوفا منهم على ضياع ما في أَيديهم من ثراء وسلطان قال تعالى : ﴿ **وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ، قال اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون** ﴾[2] فتكذيبهم حاصل حتى ولو إذا وضح لهم أن الذي جاء به الرسول ـ وهو الحق ـ أفضل مما كان عليه آباؤهم .

ثم إن أعداء الدعوة يتعالون على الرسل والذين آمنوا معهم ويحتقرونهم قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾[3] ويقص الله سبحانه وتعالى علينا اجابة نوح عليه السلام

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٦٠ ـ ٦٣ .

(٢) سورة الزخرف آية ٢٣ و ٢٤ .

(٣) سورة هود آية ٢٧ .

فيقول : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان اجرى الا على الله وما انا بطارد الذين امنوا انهم ملاقوا ربهم ولكني اراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم افلا تذكرون ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول اني ملك ولا اقول للذين تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله اعلم بما في انفسهم اني اذاً لمن الظالمين** ﴾[1] .

هذه هي الشبهات الكاذبة والتهم الظالمة التي يحاول أعداء الدعوة الإلهية الصاقها بالرسل الكرام وبدعواتهم الطاهرة ، وبالمخلصين من عباد الله وهي شبهات تتكرر كلها أو بعضها في كل زمان ومكان ولكن الغلبة دائما للمؤمنين المخلصين ، ﴿ **كتب الله لاغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز** ﴾[2] ولنا في أساليب الرسل الأكرمين وإجاباتهم خير أسوة وأكرم قدوة .

ثانيا : الترغيب والترهيب :

الترغيب : هو ذكر كل ما يحبب المدعو ويشوقه إلى الاستجابة وقبول الحق .

والترهيب : هو ذكر كل ما يخيف المدعو ويدفعه إلى الابتعاد عن الباطل والاستجابة للحق والثبات عليه .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آيات كثيرة تعرض لنا الوعود الطيبة التي وعد الله المؤمنين المخلصين من عباده ، ووعيده سبحانه للكافرين المكذبين ، قال تعالى : ﴿ **ان الله يدخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات**

---

(١) سورة هود الآيات ٢٨ ـ ٣١

(٢) سورة المجادلة آية ٢١ .

تجري من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم ﴾[1] . واستمع الى وعيده سبحانه وتعالى للذين يتمردون عليه رغم ما أنعم به عليهم فيقول لرسوله : **﴿ وذرني والمكذبين اولى النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا انكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا اليماً . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾**[2] .

ويعرض الله سبحانه وتعالى صورا ثنائية كثيرة ، واحدة مشرقة جميلة للمؤمنين المخلصين ، وبجانبها صورة قاتمة مخيفة بائسة للمكذبين الكافرين الظالمين[3] ، قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم : **﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين نارا احاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع اجر من احسن عملا . اولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾**[4] .

فان المقارنة بين وضع المؤمنين وهم يتمتعون في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار والكافرين الظالمين الذين يستغيثون مطالبين بشربة ماء فيغاثون بماء كأنه المعادن المنصهرة وعندما يقتربون منه ليشربوا يشوى وجوههم من شدة حره .

---

(١) سورة محمد آية ١٢ .

(٢) سورة المزمل الآيات ١١ ـ ١٤ .

(٣) راجع كتاب التصوير الفني في القرآن للشهيد سيد قطب .

(٤) سورة الكهف الآيات ٢٨ ـ ٣١ .

صورة مروعة حقا ، وإن من يرى الصورتين ببصره وبصيرته يسرع للإنضمام إلى زكب دعوة الحق ويترك صفوف أعدائها .

المبحث الثالث : وسائل الدعوة الإسلامية

كلف الله سبحانه وتعالى المسلمين ابلاغ الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة بالوسائل التي رسمها في كتابه وسنة نبيه ﷺ ، وقد اعتبر الإسلام الداعية نفسه وسيلة من وسائل الدعوة بما يتحلى به من علم ومعرفة وحكمة وموعظة حسنة « وهو وسيلة الوسائل ، وأساسها العملي الذي يحولها إلى تطبيق وتنفيذ »[1] .

وعلى هذا فإن أهم وسائل الدعوة الإسلامية هي القرآن الكريم والسنة النبوية ، والداعية .

أولا : القرآن الكريم :

القرآن هو كليُّ هذا الدين ، وينبوع شرائعه ، وأحكامه ، ومستودع أسراره ونظامه ، ومستقر مبادئه وأصوله كما هو معلوم مقرر . وهو من جانب آخر يعتبر من أهم وسائل الدعوة الإسلامية ، فهو بالنسبة للعرب كتاب محكم قوي أذهلهم بقوة أسلوبه وطريقة عرضه ، على الرغم من أنهم كانوا في تلك الأيام في أوج قوتهم اللغوية ، وكانوا يعقدون الأسواق الخاصة لعرض روائعهم الأدبية ويتفننون بقدراتهم على عرض القضايا التي يريدون عرضها بأساليب مختلفة ، وقد وضعوا محكّمين ليحكموا من هو الأديب القوي ، والشاعر الفحل ، وما هو الانتاج الأدبي الذي يفخر الناس بحفظه وروايته وتناقل الرواة أقوى ما عرض في تلك الأسواق ، حتى لقد علقوا بعضها في الكعبة لقوتها وشدة تأثيرها .

(١) الدعوة الإسلامية للدكتور أحمد غلوش ص ٢٧٤ .

فجاء القرآن بأسلوبه القوي المذهل ، وتحداهم ، وهم في أوج عظمتهم بان يأتوا بمثله ، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم بسورة واحدة من مثله ولكنهم عجزوا عن ذلك ، قال تعالى : ﴿ **وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين** ﴾[1] .

وقد استعمل القرآن الكريم وسائل كثيرة لإقناع الناس جميعا بأن الإسلام هو دين الحق الذي يريده الله لعباده ، فأسلوب القصة وسردها لما حصل للأُمم السابقة التي كذبت الرسل ، ثم استعماله لأسلوب القسم ، وما لهذا الأُسلوب من تأثير على نفس الإنسان ، وضربه للأمثال التي تقرب القضايا إلى ذهن المدعو ، وأُسلوب الجدل الذي يبهت الكفر وأهله ، هذه الأساليب وغيرها جعلت القرآن الكريم أهم وسائل الدعوة الإسلامية ، وفيما يلي عرض سريع لهذه الوسائل التي عرضت فيه .

١ ـ القصة :

تناقل الإنسان القصة منذ العصور الأولى لوجوده على ظهر الأرض فكانت بأحداثها وعناصرها ووقائعها مسليه أو مثيرة أو مشجعة ، وكانت القصة تؤثر في العربي وتجلب انتباهه ، وقد حوى القرآن الكريم كثيرا من قصص الأُمم السابقة وسردها بطريقة مؤثرة على الإنسان فمثلا عرضه لقصة آدم ، وكيف أَن الله أَكرمه وأَسجد له ملائكته ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى**

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣ و ٢٤ .

واستكبر وكان من الكافرين ﴾[1] وأسكنه الله الجنة وأعطاه حرية الأكل مما لذ وطاب من ثمارها إلا شجرة واحدة ، ولكن الشيطان الذي أخذ على عاتقه إضلال آدم وذريته ، ووسوس له ، وأغراه حتى قاده إلى الأكل منها ، فقال : ﴿ **وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه . . .** ﴾[2] فما أجدر الإنسان والحالة هذه بأن يبتعد عن وساوس الشيطان التي تضله . بعد أن تدخل هذه المعاني إلى نفسه عن طريق الحوار القصصي والتسلسل الذي لا ينسى .

ويعرض القرآن قصة نوح عليه السلام ، وتكذيب قومه له وما كان من أثر ذلك على الكافرين ، فقد أرسل الله عليهم الطوفان فقضى عليهم جميعا ، ونجت الفئة المؤمنة بفضل الله وكرمه قال تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون** وازدجر . **فدعا ربه اني مغلوب فانتصر . ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر . وحملناه على ذات الواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر .** ﴾[3] .

ثم يعرض قصة إبراهيم عليه السلام ، فقد دعا والده ـ وهو أقرب الناس اليه ـ بأسلوب قوي مؤثر فقال تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا . اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٥ و ٣٦ .

(٣) سورة القمر الآيات ٩ ـ ١٤ .

(٤) سورة مريم الآيات ٤١ ـ ٤٥ .

ولكن والده ينضم إلى الضالين من قومه ويزجر ولده ، ثم يعميه الضلال عن رؤية الحق واتباعه ، ويعرض القرآن الكريم بقية القصة فيقول تعالى : ﴿ **قال اراغب انت عن الهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرني مليا** ﴾[1] وتنتهي القصة بين إبراهيم عليه السلام ووالده بقوله تعالى : ﴿ **قال سلام عليك ساستغفر لك ربي انه كان بي حفيا . واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي عسى الا اكون بدعاء ربي شقياً** ﴾[2] .

ولقد احتوت القصص التي سردها القرآن الكريم على سلوى وتسرية عن نفس الداعية عندما يلصق به أعداء الدعوة التهم الباطلة ، ويثيرون حوله الشبهات ليضلوا الناس ويبعدوهم عن الهدى ، وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه خير شاهد على ذلك عندما قال فرعون : ﴿ **ذروني اقتل موسى وليدع ربه اني اخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر في الأرض الفساد** ﴾[3] وقالوا للسحرة في موضع آخر عنه وعن أخيه هارون : ﴿ **قالوا إن هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾[4] .

وما أشبه اليوم بالأمس فقد ألصق المبطلون الضالون بدعاة الإسلام نفس الشبهات والتهم وكانوا دائما يرددون نفس الذي قاله فرعون ولكن بتغيير قليل في الأُسلوب فبدلوا قول فرعون : ﴿ **ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ بقولهم : « ليقضوا على مكاسبكم الثورية » وأمثال هذه العبارات والاتهامات التي لا يزال القرآن يعطي لها نموذجاً تذكرةً للدعاة والمؤمنين إلى يوم القيامة .

---

(١) سورة مريم آية ٤٦ .

(٢) سورة مريم آية ٤٧ و٤٨ .

(٣) سورة غافر آية ٢٦ .

(٤) سورة طه آية ٦٣ .

وكذلك عرض القرآن قصة لوط عليه السلام مع قومه الذين قالوا : ﴿ **اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون** ﴾[1] فالتطهر جريمة في نظر أولئك السفلة[2] .

ب ـ استعمال القسم :

ومن الوسائل المؤثرة التي يستعملها القرآن الكريم والتي تؤثر تأثيراً كبيراً في نفوس المدعوين اليه اسلوب القسم . فهو سبحانه ينبه عقول المدعوين الى الشيء الذي يقسم به ، فان كان مخلوقاً ظهرت عظمته للنفوس وبالتالي تُعَظِّم خالقه ، وإن كان المقسم به هو الله فان المقسم عليه يزداد جلالا في النفوس ، فقال تعالى : ﴿ **يس . والقرآن الحكيم . انك لمن المرسلين** ﴾[3] وقال ﴿ **والضحى والليل اذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى** ﴾[4] وقال : ﴿ **والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم** ﴾[5] ومن الأمثلة التي تؤثر في نفوس المدعوين تأثيرا كبيراً قوله تعالى : ﴿ **ويستنبئونك احق هو قل إي وربي انه لحق وما انتم بمعجزين** ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ **لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾[7] وقوله جل من قائل : ﴿ **والعصر . ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[8] .

---

(١) سورة النمل آية ٥٦ .
(٢) لتفصيل اكثر راجع كتاب الدعوة الإسلامية للدكتور غلوش ؟
(٣) سورة يس الآيات ١ و ٢ و ٣ .
(٤) سورة الضحى الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٤ .
(٥) سورة التين الآيات ١ ـ ٤ .
(٦) سورة يونس آية ٥٣ .
(٧) سورة الحجر آية ٧٢ .
(٨) سورة العصر الآيات من ١ ـ ٣ .

فالإنسان خاسر إلا إذا كان من المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويتواصون بالحق والصبر ، ثم قوله تعالى : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون** ﴾[1] وقال أعرابي متعجبا عندما سمع هذا القسم « من ذا الذي أغضب الجليل حتى يحلف : لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين »[2] ويتكرر القسم في القرآن الكريم بأُسلوب قوي مؤثر يجعل الإنسان مهيئا للإيمان بهذه الدعوة الحقة ، إن لم يكن ممن ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

جـ ـ استعمال الامثال :

استعمل العرب الأمثال في اللغة العربية لأنها تقرب المعاني إلى العقول وتجعلها سهلة الفهم ، وقد استعمل القرآن الأمثال ليقرب المعاني وليجعل صورتها مثيرة للمستمع قال تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الأرض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾[4] .

الأمثال وسيلة للدعوة :

للأمثال دور خطير ووظيفة مهمة في الدعوة إلى الله تعالى ومن ذلك :

---

(١) سورة الذاريات آية ٢٢ و ٢٣ .

(٢) ظلال القرآن تفسير سورة الذاريات للشهيد سيد قطب .

(٣) سورة آل عمران آية ٥٩ .

(٤) سورة يونس آية ٢٤ .

(١) تمد الأمثال الداعية بسلاح الصبر والتحمل أمام المعاندين الكافرين كما يقول تعالى : ﴿ **أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب** ﴾[١] .

(٢) ويبين القرآن الكريم بضرب المثل ضعف الآلهة التي يؤمن بها الكفار فيقول تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** ﴾[٣] وقال جل من قائل : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد** ﴾[٤] وقال تعالى عن الكفار والمؤمنين ﴿ **مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون** ﴾[٥] .

وكل هذه الأمثال تجسد المعاني ، وتبرزها إلى الواقع المشاهد كأنها ترى وتسمع فتقرر بذلك المعاني في النفس وتتمكن غاية التمكن .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٤ .

(٢) سورة الحج آية ٧٣ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٤١ .

(٤) سورة إبراهيم آية ١٨ .

(٥) سورة هود آية ٢٤ .

د ـ الجدل :

اتخذ القرآن الكريم من الجدل الهادف إلى إقناع المكابرين بالحجة الدامغة وسيلة من الوسائل التي يقنع بها الناس للايمان به ، يقول الدكتور أحمد غلوش في كتابه « الدعوة الإسلامية » : « ظهر في التعبير اللساني كلمات المناظرة والمجادلة والمكابرة وثلاثتها نقاش بين طرفين متخاصمين إلا أنها تختلف في الأصطلاح لأن المناظرة هي توجه المتخاصمين في النسبة بين الشيئين اظهارا للصواب ، والمجادلة هي المنازعة ، لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم والمكابرة هي المنـازعة ، لا لإلزام الخصم ولكن لمجرد الرد .

فالمناظرة هي الأولى بالاعتبار إلا أنا لاحظنا أن القرآن يأمر بالجدل في قوله تعالى : ﴿ **وجادلهم بالتي هي احسن** ﴾[1] ويقول : ﴿ **ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن** ﴾[2] .

ومحال أن يأمر الله بغير طريق الصواب ، أو يجعل رسله يسلكون غيره ، ومن هنا نرى صاحب المصباح يذكر صوابا ، ويخرج كلمة جادل عن أصلها الأول إلى توسع في استعمالها فيقول : « جادل مجادلة وجدالا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب . هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم »[3] .

على أننا نلاحظ ملاحظة أساسية هنا وهي أن القرآن الكريم يقيد الجدل ـ الذي أمرنا به أو أباحه لنا ـ بقيد « التي هي أحسن » . وأحسن فعل تفضيل ، ومعناه أن القرآن العظيم لم يرض لنا الجدل الحسن ، وإنما طالبنا بما هو « أحسن »

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
(٣) الدعوة الإسلامية ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ .

في بابه ، وهذا غاية السمو في أدب الحوار ، والخصام فكيف يتصور أن يكون الجدل الذي أذن به القرآن محتملا لأدنى وجوه البطلان إنه لا يكون بالحق فقط ، وإنما يكون بالحق في أجلى صوره ، وأعف أساليبه وأنظف وسائله وهذا هو « الأحسن » الذي عناه .

وقد أمر الله الرسول والمؤمنين باتباع اسلوب الجدل الذي يقود إلى افحام الخصم وتسليمه بصحة الدعوة ، والقرآن الكريم مملوء بمثل هذا الأسلوب قال تعالى : ﴿ **الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان اتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا احيي واميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[1] .

وعندما جادل الكفار الرسولَ في القرآن الكريم ﴿ **وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا** ﴾[2] علم الله رسوله كيف يرد عليهم فقال تعالى : ﴿ **قل انزله الذي يعلم السر في السموات والأرض انه كان غفورا رحيما** ﴾[3] والمعنى أن القرآن يحتوي على أخبار وأسرار وألوان من الإعجاز محال أن تتلقى عن بشر ما فمن أين تلقيته إلا ممن يعلم السر في السموات والأرض جل شأنه .

ويؤكد الله سبحانه لرسوله مغالطة الكفار وعنادهم فيقول سبحانه عندما اتهموه بتلقي القرآن من عبد رومي لم يكن يجيد العربية كان يعيش في مكه ، فقال تعالى : ﴿ **ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين** ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

(٢) سورة الفرقان آية ٥ .

(٣) سورة الفرقان آية ٦ .

(٤) سورة النحل آية ١٠٣ .

ثانياً : السنة النبوية :

سنة الرسول ﷺ ـ وهي أقواله وأفعاله وتقريراته ـ تعتبر المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في جميع التشريعات ، وهي الطريق الذي يجب على الداعي أن يسلكه في دعوته إلى الله ، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالأخذ عن الرسول واتباعه فقال : ﴿ **ما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1] وقد استخدم الرسول ﷺ وسائل كثيرة لدعوة الناس إلى الإسلام منها : الإتصال الشخصي والخطابة والكتب والرسائل .

أ ـ الاتصال الشخصي :

فقد سَنَّ رسول الله ﷺ ذلك إذ بدأ الدعوة بهذا الإتصال فآمن له الفرد بعد الفرد ، وكان أول من أسلم عن هذا الطريق من الأحرار أبو بكر ، ومن الموالي زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال ـ كما هو معروف مقرر في السيرة ـ رضي الله عنهم أجمعين .

ثم كان رسول الله ﷺ يكلم زعماء قريش ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويعرض عليهم الدعوة ، رجاء أن يسلموا ، وقد أجابه بعضهم وكفر آخرون ثم كان يذهب إلى زعماء القبائل وأعيانها الذين يفدون الى موسم الحج حاجين أو معتمرين أو موفدين لمصلحة ما وقد ذهب بنفسه إلى الطائف ، إلى أن آمن بها بعض أهل المدينة وعاهدوه على نشر الإسلام هناك[2] .

وللأتصال الشخصي ميزة كبيرة فهي تعطي للداعية فرصة مناقشة المدعو

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

(٢) أنظر تهذيب سيرة بن هشام ص ٩٩ ـ ١٠١ .

والرد عليه بعيدا عن المؤثرات الخارجية ، وتجعله يفكر بحرية ورؤية مما يسهل عليه معرفة الحق واتباعه .

ب ـ الخطابة :

كان الرسول ﷺ بليغا في حديثه مؤثراً في أُسلوبه فقد أَعطاه الله الكلمات الجامعة ميزة له فقال ﷺ : « بعثت بجوامع الكلم »[1] وقد كان عليه الصلاة والسلام على علم تام بلهجات العرب ولغاتها .

وكانت الخطابة من الوسائل المؤثرة في دعوة الناس إلى الإسلام فهي اتصال جماعي وكانت خطب الرسول عليه الصلاة والسلام قصيرة واضحة ينطقها كلمة كلمة حتى أن أكثر السامعين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب أثناء القائها »[2] .

وقد اهتم الإسلام بالخطبة فجعلها يوم الجمعة من كل أُسبوع ، وفي أيام الأعياد ، وفي موسم الحج ، وهذا أُسلوب فريد لم يسبق إليه ، ثم فرض على مستمعي الخطبة الصمت والسكون أثناء سماعها ، وهذه فرصة للخطيب المسلم لا تتاح لأمثاله من الخطباء فيشرح أَحكام الدين ويعرض حجته وبراهينهُ على السامعين مما يسهل استجابتهم للدعوة وتجاوبهم معها .

جـ ـ الكتب والرسائل :

ومن السنة التي اتبعها الرسول عليه الصلاة والسلام إرسال الكتب والرسائل التي تشرح الدعوة وتوضحها لمن أُرسلت اليهم هذه الكتب ، وكان عليه الصلاة

---

(١) ابن حجر « فتح الباري بشرح البخاري » ج ١٧ ص ٥ .
(٢) أنظر زاد المعاد ج ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

والسلام يحسن اختيار من يُحِّمله هذه الكتب ، فلا يرسلها إلا مع من يحسن العرض والجواب إذا سئل ، فقد أرسل إلى هرقل ملك الروم كتابا مع الصحابي دحية الكلبي ، وأرسل إلى النجاشي ملك الحبشة رسالة مع الصحابي « عمر بن أُمية الضمري » وأرسل إلى المقوقس ملك مصر رسالة مع الصحابي « حاطب بن أبي بلتعة »[1] .

وقد أفادت هذه الكتب كثيراً في تبليغ الدعوة . والكتب والرسائل من أساليب الدعوة الناجحة التي تفيد الدعوة الإسلامية كثيراً لو حملها دعاة يعرفون كيف يعرضون الدعوة على الناس ، ويوضحون لهم حقائقها ، ويكونون هم أنفسهم أول صورة حية لجلالها .

ثالثا : الداعية :

الداعية هو حلقة الوصل التي توصل الإسلام إلى قلوب الناس وعقولهم ، فهو الذي يقوم مقام الرسول الكريم بالدعوة التي جاء بها إلى الناس كافة ، ولذلك كان لا بد أن تتوفر فيه صفات معينة تعينه على حمل هذه الرسالة ومن هذه الصفات :

١ ـ إحسان الصلة بالله تعالى :

مهمة الداعية تعريف الناس بربهم ، وقيادتهم إلى الهدى الذي يحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة ، لذلك لا بد له أن يكون مثلا للناس في حسن صلته بالله ، مؤديا لجميع فروضه ـ لأن العبادة هي الحبل الوثيق الذي يربط الناس بالله ـ ومطبقا لسنن نبيه الكريم بصدق وإخلاص ، مكثرا من النوافل وأن يكون مؤمنا

(١) تهذيب سيرة بن هشام ص ٣٢٨ لعبد السلام هارون .

بقضاء الله ، راضيا به ، متوكلا على الله خير التوكل ، متخذا من القرآن الكريم دستورا له وهاديا ، حتى يكون قوله مطابقا لعمله لئلا يكون كما قال القرآن الكريم : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون** ﴾[1] وحتى لا يمقتهم الله كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون** ﴾[2] .

٢ ـ اتقان الصلة بالناس :

فالناس هم مجال الدعوة والمحيط الذي يتحرك فيه الداعية ، ولذلك فلا بد أن يشعرهم بحبه لهم ، وحرصه عليهم ، وألا يفرق بينهم لفقر أو غنى ، للون أو مظهر ، لجاه أو مركز ، فكل الناس لآدم وآدم من تراب ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[3] .

ومن الوسائل التي تحسن صلة الداعية بالناس حرصه على الصفات التالية :ـ

أ ـ الصدق والأمانة :

فالصدق والأمانة من الأخلاق العالية والصفات الراقية ، ومنبع عظيم للثقة لهذا كله فهما من ألزم الصفات للداعية ، فإذا عرف عنه بين الناس أنه ملتزم بالصدق ، متميز بالأمانة سهل عليه نشر دعوته بينهم ، وكسب ثقتهم ، وقد

---

(١) سورة البقرة اية ٤٤ .
(٢) سورة الصف آية ٢ و ٣ .
(٣) سورة الحجرات آية ١٣ .

كانت هذه الصفات هي التي تحلى بها الرسول ﷺ حتى لقب قبل بعثته بالصادق الأمين والله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[1] والرسول الكريم يقول : « عليكم بِالْصِدْقِ فَإِنَ الصِّدقَ يَهدي إلى البِر وَانَّ البّر يَهْدِي إلى الجَنّةْ »[2]

ب ـ أن يكون معتدا بنفسه في تواضع جم :

وعلى الداعية أن يكون معتدا بنفسه بعيدا عن المواطن التي تقلل من هيبته ، مع الحرص على عدم الظهور بالتعالي على الناس ، بل يجب عليه أن يكون متواضعا متذكرا قول الله تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾[3] .

جـ ـ أن يكون حليما عفوا :

وهذه صفات هامة تجمع قلوب الناس حول الداعية ، وتقضي على الخلافات والعداوة بينه وبين الناس ، فالحلم سيد الأخلاق ، قال تعالى : ﴿ **ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ فالآية الأولى بينت مجال الداعية في نفسه ، والثانية حثته على الحلم والعفو فيما بينه وبين الناس . وقال تعالى مخاطبا نبيه الكريم وهو سيد الدعاة : ﴿ **خذ العفو وامر بالمعروف واعرض عن**

---

(١) سورة التوبة آية ١١٩ .

(٢) مختصر صحيح مسلم ـ باب الصدق ص ٢٣٩ تحقيق ناصر الدين الالباني .

(٣) سورة القصص آية ٨٣ .

سورة فصلت الآيتان ٣٣ و ٣٤ .

الجاهلين ﴾[1] .

د ـ أن يكون شجاعاً عزيزاً :

فمن حسن إيمان الإنسان ألاَّ يخشى في الله لومة لائم ، وأن يكون لديه من الشجاعة ما يكفي لإظهار الحق والدعوة اليه ، ومحاربة الباطل والتحذير منه ، ولا يخاف إلا من الله ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[2] لا يخاف نقص رزقه فالرزق على الله ، قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ﴾[3] ولا يخاف نقص عمره فالأعمار بيد الله ﴿ ما تسبق من امة اجلها وما يستأخرون ﴾[4] .

هـ ـ أن يكون كريماً سخياً زاهداً بما في أيدي الناس :

من أحب الصفات إلى الله وإلى عباده أن يكون الداعية سخياً وكريماً ، بعيداً عن البخل والشح ، متخذا من الرسول الكريم قدوة حسنة فقد كان عليه الصلاة والسلام أجود الناس كافة ، وكما يقولون « أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم » يروى أن رجلا أتى الرسول ﷺ وسأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه مسلما وهو يقول لهم : اسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى فاقه »[5]

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩٩ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٧٥ .
(٣) سورة هود من آية ٦ .
(٤) سورة الحجر آية ٥ .
(٥) الشفاء ج ١ ص ٢٣٨ .

و ــ أن يكون واسع الأُفق غزير العلم :

يتمتع الداعية بعز المعرفة ، لأنه يقود الناس إليها فلا بد له والحالة هذه أن يكون غزير العلم ، بعيد الغور ، واسع الاطلاع يحسن فهم القضايا التي يتناولها ويحيط بأَطرافها إحاطة تامة ، فهو المتمكن الراسخ في العلم وأول ما يوجبُ عليه الإسلامُ أن يكون عالما به محيطا بجميع أموره ، مطلعا على كتابه حافظا له عارفا لتفسيره ، ومحيطا بسنن نبيه الكريم وسيرته العطرة عليه الصلاة والسلام ، وأن يكون مطلعا على علم التاريخ ليعرف ما حصل للأُمم السابقة التي عصت الرسل الكرام ، وليُحَذِّر الناس مِن ذلك المصير ، كما ينبغي أن يعرف المناطق الجغرافية ، والبيئات التي يعيش فيها الناس ، وأن يكون مطلعا على علم النفس والاجتماع ـ اذا أمكن ـ ليعرف كيف يؤثر في الناس ، وليسهل عليه قيادتهم وتغيير سلوكهم وأَخيراً ينبغي أن يعرف لغات الناس الذين سيدعوهم إلى الإسلام ، لأن اللغة هي وسيلة التخاطب مع الأمم الأُخرى .

هذه هي الصفات التي ينبغي أن يتمتع بها الداعية ، صلته بالله وصلته بالناس ، وصلته بالعلوم التي توسع ادراكه ، وتزيد احترام الناس واقتداءهم به والايمان بدعوته .

الفصل الرابع
الدعوة الإسلامية والجهاد

لما كان الإسلام حريصا على عرض الدعوة الإسلامية على الناس وهم مالكون لحريتهم ، وغير معرضين لخوف أو ضغط أو إرهاب ، سواء كان ذلك الإرهاب مادياً أو فكرياً ، لذلك فقد شرع الله الجهاد لحماية الذين اختاروا الإسلام ديناً من سطوة الإرهاب ، وخطر ارغامهم على اعتناق ما لا تختاره عقولهم ولتحرير الشعوب من سطوة الطواغيت الذين يحولون بين هذه الشعوب وحريتها والذين يحاولون بشتى الوسائل تحطيم سلطان العقل الذي يقود صاحبه لمعرفة الخير اذا أُعطي الحرية .

فالجهاد في الإسلام يتفق مع فطرة الإنسان التي فطر الله الناس عليها وهو « مبدأ الدفاع عن النفس » والدفاع عن المستضعفين الذين كان الطواغيت يعتدون عليهم ، ويظلمونهم لا لشيء إلا لحرمانهم من ماشرة أولى أنواع الحرية ، وهي حرية اختيار العقيدة التي يؤمن بها عقله ، وترتاح لها نفسه ، وهذا الدفاع حق ثابت لكل إنسان يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين** ﴾[1] .

وكان من أوائل الآيات الكريمات التي قررت مبدأ الجهاد في القرآن المكي قوله تعالى : ﴿ **والذين إذا اصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها**

(١) سورة البقرة اية ١٩٤ .

فمن عفا واصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم ﴾[1] .

إذن فالجهاد الإسلامي إنما جاء لدفع الظلم ، وهو مبدأ حق وعدل لا يختلف عليه اثنان ، لأن الظالم لو ترك لأفسد في الأرض ، وتمكن من رقاب الناس وقد قال العلماء في التفسير[2] إنما يكون العفو عند المقدرة وإذا كان هذا العفو لا يترتب عليه زيادة في الفساد ، أما إذا كان العفو يشجع المفسدين على فسادهم فإنه غير مباح ولا بد من العقاب .

وقد تدرج الإسلام في شرع الجهاد على مراحل ثلاث هي :ـ

أولاً : تقرير المبدأ (في العهد المكي) :

كان المسلمون في هذا العهد يتلقون أذى الناس ، وعدوانهم ولا يردون عليهم ، لضعف المسلمين ولعدم قدرتهم على المدافعة ، ولذلك وجدنا آيات كثيرة تحض المسلمين على الصبر ، وتحمل أذى الجاهلين يقول تعالى : **﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾**[3] ويقول : **﴿ خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين ﴾**[4] .

يقول ابن هشام : « وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم

---

(١) سورة الشورى الآيات ٣٩ ـ ٤٢ .
(٢) أنظر تفسير البيضاوي لهذه الآية .
(٣) سورة المزمل آية ١٠ .
(٤) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

رسول الله ﷺ فيقول : « صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة فأما أُمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام »[1] .

وقد أمر الرسول المسلمين بالهجرة إلى الحبشة فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه »[2] .

يقول الزمخشري عن أصحاب رسول الله ﷺ : « كان يؤذيهم المشركون أذى شديداً فيأتون الرسول ما بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم : اصبروا فإنني لم أؤمر بقتال حتى هاجر »[3] . وهنا نزلت الآيات التي تحدثنا عنها سابقا ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾ فقررت للمسلمين مبدأ الدفاع عن النفس ، والأنتصار من الظالم ولكنها طالبتهم بالصفح والصبر على تنفيذ هذا المبدأ لأنهم ضعاف يومئذ .

ثانيا : في أول الهجرة :

وفي هذه المرحلة أُذِن للمسلمين بالرد على أهل مكة لأنهم ظلموهم وعذبوهم واستولوا على أموالهم . فقال تعالى : ﴿ **أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأنّ الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز** ﴾[4] .

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧١ .

(٢) نفس المصدر ص ٧٢ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٩٠ .

(٤) سورة الحج آية ٣٩ و ٤٠ .

وهكذا أذن الله للمسلمين بالقتال فبدأت مرحلة جديدة نرى فيها المهاجرين الذين أُهينوا في المرحلة الأُولى واستولى كفار قريش على أموالهم يقـومون ببعض السرايا التـأديبية ضـد من ظلموهم وهي التي تمت قبـل معركـة « بدر » . ومن الملاحظ أن جميع رجال هذه السرايا كانوا من المهاجرين مما يؤكد أنها كانت عمليات بقصد الرد عـلى مظالم قـريش ولاسترداد حقـوق المسلمين التي اغتصبهـا أُولئك الظالمون .

ثالثا : مرحلة قتال المشركين عامة :

في هذه المرحلة تحريض من الله للمسلمين على قتال المشركين جميعا فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين** ﴾[1] .

وحتى في هذه المرحلة فإن الجهاد إنما هو رد على عدوان المشركين ولا يعني مطلقا أن هناك تعارضا بين هذه المرحلة وبين الدفاع عن النفس فإنمـا هو قتـال المشركين كافة كما يقاتلون المسلمين كافة .

وشرع الجهاد أيضا لرفع ظلم الطواغيت المستبـدين عن المستضعفين من الناس ، وإعطاء هؤلاء المستضعفين حريتهم ، وفتح المجال أمام تفكيرهم بحرية مطلقة ليميزوا الخبيث من الطيب ، ويتبعوا ما تهديهم إليه عقولهم بلا خوف من حاكم جبار أو زعيم باطش ، « وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية أو الناحية التطبيقية وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين الذين وفقوا

---

(١) سورة التوبة آية ٣٦ .

إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار ، على أنه ينبغي ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد أو عسف المتعصب ولا حتى في مآثر المحارب المسلم ، ذلك البطل الأُسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه وحمل القرآن في اليد الأُخرى ، وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعة الهادئة التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض على أن هؤلاء الدعاة لم يلجأوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلبية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع ، بخلاف ما زعم بعضهم حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمراً مستحيلاً ، يتنافى مع الأساليب السياسية ، فلقد جاء القرآن مشدداً في الحض على هذه الطرق السلمية في غير آية منه مثال ذلك : ﴿ **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرني والمكذبين اولى النعمة ومهلهم قليلا** ﴾[1] ﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله ليجزي قوما بما كانوا** يكسبون ﴾[2]،[3] .

من هذا العرض السريع نعلم علم اليقين بأن الإسلام لم يأمر باستعمال القوة لإرغام أعدائه على الإيمان به كما يدعي، أعداؤه بل إن الإسلام حريص أشد الحرص على ألّا يقهر أي انسان على اتباعه ، وان إسلام القبائل المغولية - كما سنعرض في الباب القادم إن شاء الله - وهم في أوج قوتهم والمسلمون في منتهى ضعفهم لدليل أكيد وآية واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار على أن الإسلام هو الدين الذي يتمشى مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها .

---

(١) سورة المزمل الآيات ١٠ و ١١ .

(٢) سورة الجاثية اية ١٤ .

(٣) الدعوة الى الإسلام ارنولد ص ٢٨ ، ٢٩ .

الباب الثالث

المغول يدخلون الاسلام

المغول يدخلون الإسلام

بعد أن فرغنا من حديثنا عن المغول وغزوهم للعالم الإسلامي واستقرارهم في الأجزاء الشرقية منه ، وعن الدعوة الإسلامية والمميزات التي تميز بها الإسلام على غيره من الأديان الأُخرى في البابين الأول والثاني .

فسنتكلم في هذا الباب عن صلة أُوروبا بالمغول ومحاولة النصارى اغـراء المغول بالقضاء على المسلمين واستئصالهم ومنع انتشار الإسلام بينهم وشدهم إلى النصرانية ومحاولة دعاة الإسلام نشر الإسلام بين المغول ونجاحهم في ذلك ، ثم حمل المغول للدعوة الإسلامية ونشرها بين الشعوب الأُخرى . هذا ما سنعرضه في الفصول والمباحث التالية .

الفصل الأول
عداء المغول والنصارى للإسلام

تمهيد :

لقد تعرض شرق أوروبا لهجوم مغولي شرس . فقد قاد « باطو » ـ الذي التف حوله عدد كبير من الأُمراء المغول أحفاد جنكيز خان ـ جيشا مغوليا في عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) إلى « أوكرانيا » فنهب « شريجوف » و « بريسلافل » واستولى على « كييف » في عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، وقد قام المغول بذبح أكثر سكان تلك المدينة[١] .

كما تحركت قوة أُخرى بقيادة « بايدو بن جغتاي » إلى « بولندا » فقام هذا الجيش بنهب « ساندومير » و « كراكوف » ، ورغم المساعدة التي قدمها الفرسان التيتون النازلون على ساحل البلطيق فإن هزيمة ساحقة حلت بهم بعد معركة عنيفة دارت رحاها في « فاهلشتان » قرب « ليبجنتز » وفي أثناء ذلك توجه « باطو » و «سيبوتاي» نحو الجنوب إلى المجر وقد دخلا في معركة مع « بيلا » ملك المجر ، فهزم هذا الأخير هزيمة ساحقة في سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) نفذ بعدها المغول إلى « كرواتيا » وواصلوا زحفهم حتى وصلوا سواحل بحر « الأدرياتيك » وقد ذبح المغول عشرات الألوف من السكان بعد هذه المعارك الطاحنة[٢]

كما وجه « أوكتاي » جيشا ثالثا مؤلفا من خمسة عشر ألف جندي للحرب في

(١) رونسمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ترجمة د الباز العريني

(٢) المغول ص ١٨٢ ـ ١٨٤ د . الباز العريني .

أوروبا ، وقد كان القائد الفعلي لهذا الجيش هو « سيبوتاي » وقد استطاع أن يدمر مملكة البلغار التركية الواقعة على نهر « قاما » وفي سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) هاجم المغول الوثنيين الأتراك الذين عرفهم المسلمون باسم « القبجاق » وأعلن جانب من هؤلاء « القبجاق » الخضوع والإذعان للمغول وهذا هو العنصر التركي الذي أضحى أساس سكان خانية المغول المعروفة باسم « خانية القبجاق » والتي صارت معروفة باسم القبيلة الذهبية والتي خضعت لسلطان بيت جوجي [١] .

وقاد « بركه خان » حملة أخرى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٣٨ م) اكملت خضوع القبجاق فالتجأ ملكهم « كوتال » مع أربعة آلاف خيمة إلى المجر حيث اعتنق النصرانية في سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) [٢] .

وقد اكمل المغول اخضاع البراري بجنوب روسيا سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) بعد أن استولوا على مدينة مقاص أو (منقاص) التي كانت عاصمة « اللان » [٣] وقتذاك كما سير المغول حملة أُخرى لمهاجمة الإمارات الروسية ، وقد ساعد على نجاح الحملة تفرق الأُمراء الروس ، فقد تعرضت كثير من المدن الروسية للسلب والنهب والتدمير وعلى رأسها « موسكو » نفسها ، كذلك مدينة « سوزدال » التي اشتعلت فيها النيران ، ومدينة « فلاديمير » التي سقطت بالقوة في سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) . وشهدت عند سقوطها أفجع المناظر ، ودارت مذبحة في كل السكان الذين لجأوا إلى الكنيسة وسط لهب النار ، كما دارت المعركة الفاصلة على نهر « سيتا » أو « سيتي » من روافد « فولقا » وحلت هزيمة بالأمير « يوري الثاني » الذي لقي مصرعه بها ـ ولم ينقذ « نوفجورد » إلا ما حدث من ذوبان الجليد ، فتحولت الأرض إلى مستنقعات يتعذر اجتيازها .

---

(١) (٢) أنظر كتاب البعثة الدينية للمغول كرستوفر داوسن ص ١٣ و ١٤ .
(٣) احدى الامارات الروسية ـ أنظر المغول للدكتور الباز ص ١٨١ .

ونتيجة لهذه المعارك أصبحت جميع مدن أوروبا تعيش في ذعر شديد وعدم اطمئنان ، وكادت تـركع جميعهـا للمغول ، ولم ينقـذها إلا مـوت الخان الكبـير « أوكتاي » الذي اضطر « باطو » الى العودة إلى « قـرة قورم »[1] للمشـاركة في انتخاب الخان الكبير ، وبذلك نجا شطر أوروبا الغربي من الخطر المغولي .

وتـرتب على ذلـك أيضا أن امتـد سلطان بيت « جـوجي » في غـرب نهر « الفولقا » وأصبحت تلك الأملاك الشاسعة ـ وفقا لوصية جنكيز خان ـ من أملاك « باطو » قانونا .

لقد جاءت هجمات المغول على الممالك الأوروبية في وقت لم تكن فيه أوروبا على استعداد للقائهم . فلم تحفل دول غرب أوروبا بحرب المغول في شرقها عندما اجتازوا جبال « القوقاز » وانسابوا في بعض المناطق الروسية أيام جنكيز خان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) ولكن حادثين وقعا بعد ذلك جعلا الملوك النصارى يدركون ما ينتظرهم من أخطار .

فالحدث الأول : ما قامت به البعثة التي أوفدتها الطائفة الإسمـاعيلية الى ملكي انجلترا وفرنسا سنة ٦٣٦ هـ (١٢٢٨ م) يطلبون مساندتها ضد المغول ، إلا أنهم لم يجدوا منها أُذنا صاغية ، بدليل أن أسقف مدينة ونشستر بانجلترا نصح بعدم التدخل فيما ينشب من قتال بين المسلمين والمغول لأن ذلك سيكون في صالح النصرانية وكان مما قاله : « دع هؤلاء الكلاب يحطم بعضهم بعضا وعند ذلـك سنرى الكنيسة الكاثوليكية العالمية تقوم على حطامهم وسوف لا يوجد إلا قطيع

---

(١) النص الأنجليزي :

Fortunately for Europe the death of the great Khan Ugedey in December 1241, and the dissen sions between the Mongol leaders in the West, Batu and Guyuk and Buri, caused the with-drawal of the Mongol armies, at least as far as Russia, in 1242.

واحد وراع واحد »[1] .

وأما الحدث الثاني : فهو اندفاع القوات المغولية بقيادة « باطو » ورفاقه ـ كما ذكرنا من قبل ـ الى قلب القارة الأوروبية وتهديد جميع ممالكها ومدنها بالدمار والهلاك .

وقد أدرك الإمبراطور فريدريك الثاني (امبراطور المانيا) فعلا خطورة الموقف فكتب رسالة مهمة إلى ملك بريطانيا يطلب منه فيها القيام بعمل مشترك للوقوف في وجه الخطر المغولي الداهم .

كما أدركت الكنيسة ما تتعرض له أوروبا من الخطر فأعلنت اللجوء الى الصوم والتماس الرحمة .

ولكن نظرا لانشغال الناس بما كان بين البابا والإمبراطور فردريك الثاني ، فإن الداعين إلى الوقوف صفاً واحداً في وجه المغول لم يجدوا أي نتيجة أو مساندة أو اتحاد . بل إن جهل الناس وغفلتهم واستخفافهم جعلهم يعتقدون بأنه إذا لم تتحرك أوروبا نشب القتال بين المسلمين والمغول وتحطم الجانبان ولم يكن يهمهم في ذلك الوقت إلا ما يتعلق بالحروب الصليبية .

---

(١) "Let these dogs destroy one another and be utterly exterminated and then we shall see the universal Catholic Church Founded on their ruins and there will be one fold and one shepherd.

مأخوذ من كتاب البعثة الدينية للمغول لكرستوفر داوسن ص ١٤ .

المبحث الأول :
النصارى يحاولون تنصير المغول ويسلطونهم على المسلمين

ادرك البابا « انوسنت » الرابع حقيقة الخطر المغولي وفكر في خطتين اساسيتين لانقاذ العالم النصراني .

فالخطة الأولى تتلخص في المبادرة الى قتال المغول ، والدعوة الى حشد الجيوش لحربهم ، ولتحقيق ذلك امر بحشد كل القوات وتوجيهها لقتالهم ، وجعل للحملة من المكانة والهيبة ما كان للحملات الصليبية ، بان منح المحاربين من الامتيازات الدينية والروحية ما يماثل ما كان يمنح للصليبيين ، غير ان هذه الجهود لم تسفر عن شيء له اهمية .

والخطة الثانية كانت تصور البابا انه لو تحول المغول إلى النصرانية فسوف يكفون عن مهاجمة أوروبا ، لأن الدين يمنعهم من ذلك ، وعلى هذا فقد إعتقد بأن هناك فرصة لأن ينجح الراهب فيما فشل فيه الفارس .

وبناء على هذه السياسة ارسل البابا سفارته الأولى الى بلاط الخان الكبير في « منغوليا » سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) برئاسة الراهب الفرنسيسكاني « يوحنا بيان دل كاربيني »[١] . فانطلقت هذه السفارة من « ليون » في ابريل وقد امضت في طريقها خمسة عشر شهرا حتى وصلت الى المعسكر الأمبراطوري في « سيرااوردو »

---

(١) أنظر كتاب كرستوفر داوسن : البعثة البابوية للمغول ص ١٥ .

II. The Mission of John of Plano Carpini (1245—7)

This was recognized by the new pope, Innocent IV, and the first of the missions described in this volume was despatched by him in 1245 to avert the threatened danger.

for this purpose he chose two Franciscans, Lawrence of Portugal and John of Plano Carpini "Men proved by years of

بالقرب من « قره قورم » سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) وكان مجلس « قوريلتاي » منعقدا لانتخاب « كيوك » خانا كبيرا ، ولما كان عدد مستشاريه من النساطرة النصرانيين كثيرا فقد أحسن « كيوك » هذا استقبال رسول البابا ، ولكنه عندما قرأ رسالة البابا والتي يطلب منه فيها أن يعتنق النصرانية رد عليه في رسالة يطلب من البابا فيها ان يعترف بسيادته العليا ، وان يأتيه هو وجميع أمراء الغرب ليقدموا له يمين الولاء والطاعة ، ولما عاد « يوحنا بيان دل كاربيني » إلى المجلس البابوي في سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) قدم الى البابا « انوسنت الرابع » مع هذه الرسالة المخيبة للآمال تقريرا مفصلا أشار فيه الى أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح[١] .

ورغم ذلك فان البابا « انوسنت الرابع » لم يسمح لأوهامه وآماله ان تضيع نهائيا ، فارسل سفارته الثانية برئاسة الراهب الدمنيكاني « اسكلين اللومباردي » .

تحركت هذه السفارة الى الشرق ، ومرت بسوريا وفي سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) وصلت « تبريز » حيث التقت بالقائد المغولي « بيجو » وكان هذا القائد ذا طبيعة عدوانية يميل الى الحرب والهجوم ، ورغم هذه الصفات فانه أعرب عن استعداده لمناقشة قيام تحالف مع الدول الأوروبية لمحاربة الأيوبيين ، لانه كان يخطط لغزو بغداد ، ووجد من مصلحته اشغال الأيوبيين في بلاد الشام في حرب صليبية تمنعهم من تقديم أي عون للخلافة العباسية في بغداد ضده .

وعلى ذلك فقد أرسل « بيجو » رسولين هما « سيركيس » « النسطوري » و « ايبك » « ليصحبا » « اسكلين » في عودته إلى روما ، ورغم أن هذين الرسولين لم يكن لهما شيء من السلطات التي تكون عادة للسفراء الا انهما كانا سببا في انتعاش الآمال في الغرب . وبقي هذان الرسولان عند البابا حتى سنة ٦٤٦ هـ

---

(١) أنظر كتاب رونسيمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٤٦ ترجمة الدكتور الباز .

(١٢٤٨ م) عندما أُخطر بوجوب العودة إلى « بيجو » إذ لم يطرأ شيء جديد على التحالف الذي كان مأمولا .

وفي سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) وصل الى قبرص مبعوثان نسطوريان هما « مرقص » و « داود » من قبل القائد المغولي « الجيهيداي » - المندوب السامي للخان الكبير في الموصل ، ورغم العبارات الجافة الغليظة التي احتوتها الرسالة التي حملاها ، فإن لويس التاسع قد أعرب عن سروره ، واغتباطه ، وبادر بإرسال بعثة سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٩ م) مؤلفة من رهبان دومنيكان برئاسة « اندرو لونججيمو » وأخيه ، وكان هذان الأخوان يجيدان التحدث باللغة العربية ، وحمل الأخوان كنيسة متنقلة هدية مناسبة للخان البدوي ، وبعض الهدايا الأخرى ولما وصلا « الجيهيداي » أرسلهما هذا إلى منغوليا ، وعندما وصلا العاصمة « قره قورم » وجدا أن الخان « كيوك » قد مات ، وأن أرملته « أغول قاميش » قد أصبحت وصية للعرش فاستقبلتهم استقبالاً طيباً ، واعتبرت الهدايا اتاوة يدفعها التابع لسيده . وبعد ثلاث سنوات عاد « أندرو » يحمل كتابا من الوصية على العوش إلى الملك لويس التاسع تشكر فيه اهتمامه بها كتابع لها ، وطلبت منه أن يبعث لها بهداياه كل سنة ، فكان هذا الرد مصدر قلق وخوف للملك لويس إلا أن الأمل ظل يراوده في أن يتحقق التحالف مع المغول ضد المسلمين[1] .

لقد سيطرت على الملك لويس التاسع وعلى فئة كبيرة من الأوروبيين أفكار شريرة جعلتهم دائمي التفكير في كيفية محاربة المسلمين ، والقضاء عليهم ولذلك وجدنا الملك لويس يتجرع الاهانات الكثيرة من المغول ، والمعاملات السيئة ، والردود الجافة السخيفة التي كانوا ينظرون اليه فيها وكأنه تابع ذليل أمام سيد كبير

---

(١) أنظر كتاب رونسيمان · الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٧٧ - ٤٤٨ ترجمة الدكتور الباز .

غير مؤمن بدين ، كل ذلك تجرعه في سبيل محاربة المسلمين مع علمه اليقين ان المغول أعداء للحضارة الإنسانية والتقدم البشري وانهم قاموا بمذابح ضد المسلمين في الشرق ، وضد النصارى في اوروبا تفرض على كل انسان محاربتهم أو على الأقل عدم التعاون معهم .

وعندما وصل الى عكا سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) تقريرٌ بأن الأمير المغولي « سارتاق بن باطو » قد تحول إلى النصرانية قام لويس التاسع بإرسال راهبين دومنيكانيين هما « وليم روبروك » ، « وبارثو لوميو الكريموني » لكي يحثا الأمير المغولي على النهوض لمساعدة اخوانه النصارى في سوريا ضد المسلمين ـ رغم أن ذلك الأمير كان أقل واضعف من أن يوقع حلفا كهذا ـ فقصد المبعوثان الخان الكبير في « قره قورم » بمنغوليا ، وَمثَلا بين يديه في سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٤ م) ووجدا أن حكومة الخان تستعد فعلا لمهاجمة المسلمين ، إلا أنهما أدركا أن الخان لا يقبل أن يكون في العالم سيد غيره ، فهو يعتبر أصدقاءه أتباعا له وأما أعداؤه فينبغي محاربتهم والقضاء عليهم . ولم يستطع « روبروك » أن يستخلص من الخان إلا وعدا بان يتلقى مساعدة كبيرة إذا ما قدم أمراؤهم الولاء لسيد العالم ، الأمر الذي لا يستطيع ملك فرنسا لويس التاسع التفاوض عليه . وفي سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) غادر « روبروك » «قرة قورم» بعد أن أيقن أن « ملوك الشرق لا يفقهون تقاليد الدبلوماسية الغربية أو مبادئها »[1] .

ولقد كان للنصارى الشرقيين طريقة مختلفة عن الطرق التي لجأ اليها زعماء وأمراء النصارى الأوروبيين في دعوة المغول إلى التنصر ، ومحاربة المسلمين ، فقد لجأوا إلى إعلان الولاء والطاعة للخان المغولي ، وقاموا بتزويج أميرات فاتنات

---

(١) رونسيمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥١١ .

ذوات شخصيات قوية لعدد من خانات المغول وأمرائهم ، فقد كانت أم هولاكو « سورجقتاني » نسطورية ، وكذلك كانت زوجته « طقزخاتون » وكانت الأميرة « ماريا » البيزنطية زوجة « لأباقا بن هولاكو » كما تزوج « منكو » خان المغول الأعظم عددا من النصرانيات وعلى رأسهن « كوتوكتاي » وكانت هؤلاء الأميرات شديدات التمسك بالنسطورية[1] حريصات أشد الحرص على مساعدة النصارى حاقدات حقداً أعمى على المسلمين[2] .

أما من ناحية الولاء فقد أرسل الملك « هيثوم » ملك ارمينيا كتابا الى « بيجو » يفيض بالولاء والاحترام[3] كما أرسل اخاه الكندسطبل « سمباد » في سفارة الى بلاط الخان الكبير سنة ٦٥٤ هـ (١٢٤٧ م) قبيل وفاة « كيوك » فاستقبله هذا استقبالاً جيداً ، وأظهر له كل مودة خاصة عندما عرف بان « هيثوم » على استعداد لأن يعتبر نفسه من اتباع الخان الكبير ، كما وعد الخان بأن يبذل للأرمن كل مساعدة تلزم لاسترداد المدن التي انتزعها السلاجقة منهم ، كما وأعطى الخان « سمباد » تقليداً يكفل سلامة ممتلكات « هيثوم » ووحدتها[4] .

وعندما سمع « هيثوم » بوفاة « كيوك » وان خانا آخر تولى العرش ذهب بنفسه الى « قره قورم » لتقديم فروض الولاء والطاعة ، وقد كان هو مختلفا عن جميع الحضور ، فقد كان الحاضرون إما تابعين استدعاهم الخان رغم إرادتهم ، أو ممثلين للملوك زعموا لأنفسهم الأستقلال[1] .

لذلك فقد أقام له « منكو » حفل استقبال رسمي في سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) منحه فيه وثيقة تكفل لشخصه وممتلكاته السلامة ، وعدم انتهاك

---

(١) النسطورية : فرقة نصرانية سبق شرحها .

(٢) (٣) (٤) رونسيمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٠٨ ـ ٥١٢ ، الدكتور الباز : المغول ص ١٨٨ .

حرمتها وعاملوه على أنه كبير مستشاري الخان النصارى في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا ووعده « منكو » بأن يعفي كل الكنائس والأديرة النصرانية من الضرائب[2] ، ثم بشره بخبر يدخل السرور على نفسه فقد قال له بأن أخاه « هولاكو » الذي استقر في فارس ـ قد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد وتدمير سلطان الخلافة وتعهد أنه إذا تعاونت معه كل القوى النصرانية فسوف يعيد إلى النصارى « بيت المقدس » ذاتها[3] ، وعلى هذا فقد أصبح على هيثوم أن يدخل النصارى في حلف مع المغول .

ثم غادر هيثوم « قره قورم » بالهدايا بعد أن تكللت جهوده بالنجاح وفي طريقه إلى بلاده عرج على « هولاكو » بفارس وقدم له فروض الولاء والطاعة ثم وصل أرمينيا سنة ١٢٥٥ م سنة ٦٥٣ هـ .

ولقد لقيت محاولة هيثوم لإقامة تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول قبولا حسنا من قبل النصارى الشرقيين ، فأعلن « بوهمند » أمير أنطاكيا تأييده لهيثوم وقد عبر النصارى الذين يعيشون في البلاد الإسلامية عن تأييدهم المطلق للمغول وقد مر بنا كيف دمر المغول جميع المصالح الإسلامية في بغداد ، وكيف ذبحوا المسلمين ، وانهم لم يتعرضوا لكنائس وأديرة ودور النصارى بأي أذى ، ومر بنا كذلك كيف فعل النصارى بالمسلمين في دمشق عندما خضعت لحكم المغول فمكنوا للنصارى أن يهينوا المسلمين .

وفي سنة ١٢٦٧ م (٦٦٥ هـ) اشترك ملك « اراغون » مع البابا « كليمنت الرابع » في ارسال « جيمس الاريك بريجان » سفيرا الى ايلخان المغول « أباقا » ليعلن له أنهما قد عزما على إرسال حملتين صليبيتين ، وليقترح عليه عقد حلف

---

(١) (٢) (٣) رونسيمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٠٨ ـ ٥١٢ .

عسكري ، ونظرا لأن « أباقا » كان منصرفا انصرافا تاما لقتال القبيلة الذهبية فإنه لم يعطه إلا وعوداً غامضة ، وقد كان من مظاهر عجز هذا الخان أنه لم يستطع إنقاذ انطاكيا من المماليك ، إلا أن « أباقا » كتب إلى الملك لويس سنة ١٢٧٠ م (٦٦٨ هـ) كتابا يتعهد فيه بأن يبذل مساعدة عسكرية للصليبيين متى ظهرت حملتهم في فلسطين .

وفي سنة ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ) كتب أرغون بعد اعتلائه للعرش على أثر مصرع الخان المسلم « أحمد تكودار » كتب إلى البابا « هونوريوس الرابع » يقترح عليه القيام بعمل مشترك ضد المسلمين ولكنه لم يتلق إجابة ثم قرر سنة ١٢٨٧ م (٦٨٦ هـ) ارسال « رابان سوما » في سفارة إلى الغرب ، فاستقبله الإمبراطور البيزنطي « اندرونيقوس » استقبالا ودياً ووعده ببذل كل مساعدة ممكنة من موارده الضئيلة . وعندما وصل « نابولي » وجد معارك حربية بين اسطولي « اراجون » و « نابولي » أدخلت في روعه أن الغرب غارق في خصوماته ، وقبل وصوله إلى روما مات البابا ، ووجد الكرادلة في منتهى الجهل يناقشونه في الخلافات المذهبية .

ذهب بعد ذلك إلى فرنسا فقابله ملكها « فليب الرابع » باحترام بالغ ، ووعده بأن يتولى بنفسه حملة صليبية لتخليص « بيت المقدس » ثم عين معه سفيرا هو « جوبرت هيلفيل » ليرافقه إلى بلاط الايلخان وليعد تفاصيل التحالف مع المغول .

ثم اجتمع بعد ذلك بملك انجلترا الذي كان أكفأ سياسي يلتقي به في أوروبا ولكنه لم يكن بوسعه ـ ولا بوسع ملك فرنسا ـ تحديد موعد للقيام بالحملة الصليبية المقترحة نظراً لانشغاله في محاولات الاستيلاء على « ويلز » وفتح « اسكتلندا » كما أنه وجد أن الرأي العام لم يكن له قيمة في نظر الملوك وأن الروح الصليبية قد أوشكت على الفناء ، وعندما وصل « رابان سوما » ومعه « جوبرت هيلفيل » استقبله

« ارغون » بكل مظاهر التشريف إلا أن جوبرت لم يكن يستطيع أن يحدد بدقة ما سيبذله ملك فرنسا[1] .

وفي سنة ١٢٨٩ م (٦٨٨ هـ) أرسل « ارغون » رسولاً جنويا اسمه « بوسكارد جيزولف » برسائل إلى البابا ، وملكي فرنسا وانجلترا ، وقد قال في رسالة إلى ملك فرنسا بأنه عازم على التوجه إلى سوريا في يناير سنة ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) وأنه سيصل دمشق في فبراير سنة ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) . وإذا قدم له الملك المساعدة واستولى المغول على « بيت المقدس » فانه سيجعلها له ، ويحذرهم بأنه إذا تأخر عن مساعدته فإن الحملة ستتبدد .

ولكن « بوسكارد » عاد بإجابات لا تبشر بشيء ، إلا أن « أرغون » أرسله واثنين من المغول النصارى مرة ثانية ولكنه أضاع وقته سدى أيضا في هذه الرحلة فقد قضى المسلمون على آخر معاقل الصليبيين في الشرق ، ومات الايلخان « ارغون »[2] .

رغم جميع الجهود المضنية الجبارة التي بذلها النصارى لإغراء المغول بدينهم ، ورغم تزويجهم بالأميرات الفاتنات إلا أن أعداداً قليلة جدا اتخذت النصرانية ديناً لها ، ذلك لوجود تناقضات واضحة بين تعاليم النصرانية التي يدعون اليها والواقع الفعلي الذي كان عليه النصارى .

فقد دعا المسيح عليه السلام إلى المحبة والتسامح وكان قادة النصارى ـ ابتداء من البابا والملوك النصارى مرورا بالقادة والفرسان وانتهاء بالجنود ـ يدعون إلى كره المسلمين ، ومحاربتهم واستئصال شأفتهم من الوجود ، وذلك بانشاء الاحلاف العسكرية ضدهم مع أُناس أقل ما يقال عنهم أنهم أعداء للإنسانية

---

(١) و (٢) أنظر رونسيمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٦٨ حتى ٦٧٧ .

والحضارة البشرية أينما كانت وحيثما وجدت .

والمسيح عليه السلام يدعو إلى السلام ويقول ـ فيما نسبه له انجيل النصارى ـ من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » وهؤلاء القادة ورجال الدين يدعون إلى الحرب والقتال والعدوان تحت أسماء دينية والنصرانية منها براء .

ثم إن الديانة النصرانية تحتوي ـ بظلم من محرفيها ـ على طلاسم لا يستطيع فهمها أي إنسان ، وخاصة العلاقة بين الأب والإبن وروح القدس ذلك لأن هذه الخزعبلات من صنع البشر ، حاول الإنسان بظلمه إدخالها في الدين ، وإخراج ما يتعارض معها ، فأوقعوا أتباعهم وأنفسهم في حيرة لا خروج منها . وعندما قدموها لغيرهم ضحك هؤلاء عليهم ، وسخروا من معتقداتهم لأنها مخترعات بشرية باطلة ، ولا تمت لدين الله الصحيح بأدنى صلة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم . وانت على كل شيء شهيد** ﴾[1] .

وقد قارن « كانون تايلور » بين النصرانية والإسلام فقال : « . . . كان أئمة اللاهوت في افريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة : ذلك انهم حاولوا ان يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء ، وسموا بالبكورية الى مرتبة الملائكة ـ فكان اعتزال العالم هو الطريق الى القداسة ، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة ـ وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون

---

(١) سورة المائدة الآيات ١١٦ ، ١١٧ .

زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد ، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم ، فأزال الإسلام بعون من الله ، هذه المجموعة من الفساد والخرافات ، لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى ، ولقد بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به ، وتفويض الأمر إليه ، وأعلن أن المرء مسئول ، وأن هناك حياة آخرة ويوما للحساب أعد الله فيه للأشرار عقابا أليما ، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير ، ونبذ الفضائل الكاذبة ، والدجل الديني ، والترهات والنزعات غير الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين وأحل الشجاعة محل الرهبنة ، ومنح العبد رجاء ، والإنسانية إخاء ، ووهب الناس إدراكا للحقائق الاساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية » والفضل ما شهدت به الأعداء .

المبحث الثاني :
اضطهاد المغول للمسلمين

لقد تعرض المسلمون خلال حروبهم مع المغول الى اهوال شديدة ، وفظائع مزلزلة ، فقد تفنن المغول في ايذائهم تارة بالذبح ، ذبح الناس جميعا ، لا فرق بين طفل وامرأة ورجل ، وقد يذبح الطفل أمام والديه ، وقد اعتدوا على أعراض النساء أمام الرجال وهم ينظرون . فظائع ما عرفت الإنسانية مثلها في تاريخها الطويل قام بها أناس لا تعرف قلوبهم رأفة ولا رحمة ، ولا تلين لبكاء أو استعطاف . فكم من سيد أصبح بين يوم وليلة رقيقا يباع في سوق النخاسة ، أو مملوكا لجندي جلف لا يعرف من الحضارة شيئا ، ولا للإنسانية قيمة ، وكم من

---

(١) الدعوة إلى الإسلام أرنولد ص ٩٠ .

صاحبة عز وجاه أصبحت مباحة لجنود أجلاف لا ترق قلوبهم ولا تلين ولا ترحم .

لقد ذبح المغول جميع أهل مدينة « نيسابور » وليتأكدوا من أنهم ماتوا جميعا قطعوا رؤوسهم ، وعملوا منها ثلاثة أهرامات ، هرما لرؤوس الرجال وهرما لرؤوس النساء ، وثالثا لرؤوس الأطفال ، حتى الأطفال لم يبقوا على حياتهم[1] .

وفي مدينة « بخارى » ذبحوا من ذبحوا ، ثم أخرجوا الناس وقسموهم بين جنودهم وفرسانهم فكان الأب من نصيب فارس ، وزوجته من نصيب فارس آخر وأبناؤه من نصيب جنود غيرهم « وكان ذلك اليوم يوماً فظيعاً كان بكاء الناس فيه يشق عنان السماء » .[2]

فقد روى ابن الأثير وصفا مؤلما لتلك الغزوات فقال : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا اقدم رجلا وأؤخر اخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أُميَ لم تلدني و ﴿ **يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** ﴾[3] إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً ، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين . فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقابلها ولا ما يدانيها . ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله « بختنصر » ببني إسرائيل من القتل ، وتخريب البيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل

---

(١) أنظر كتاب المغول في التاريخ للدكتور الصياد ص ١٣٢ .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الاثيرج ٩ ص ٣٣٣ .
(٣) سورة مريم من آية ٢٣ .

مدينة منها أضعاف البيت المقدس : وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا ؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة »[1] .

وقد انتهز النصارى هذه الفرصة فحاولوا عن طريق الأميرات اللائي زوجوهن لقادة المغول وملوكهم ، وعن طريق الزعماء النصارى الذين أعلنوا الولاء والطاعة لهؤلاء الأجلاف مستغلين بالإضافة إلى ذلك رغبة المغول وحبهم لسفك الدماء وغريزتهم المحبة للتعذيب ، وعداوتهم للإسلام والمسلمين بل حاولوا استئصال شأفة المسلمين والقضاء على من بقي منهم على قيد الحياة قضاء تاما ، خاصة عندما لاحظوا أن هؤلاء الذين بقوا أحياء نشطوا في الدعوة إلى الإسلام لدرجة أن كثيرا من المغول ، بل وبعض النصارى أنفسهم بدأوا يدخلون في الدين الإسلامي بشكل أزعجهم ، فقد ذكر « الجوزجاني » قصة سمعها حينما كان في دلهي على لسان رجل يدعى السيد أشرف الدين وكان هذا قد قدم إلى « سمرقند » : « . . . . ومن ثم حكى السيد الأجلّ أن أحد النصارى في سمرقند دخل في ساحة الإسلام ، فحاطه أهل الورع من المسلمين في هذه المدينة بالرعاية ، واحلوه من أنفسهم محل الإحترام والإجلال ووالوا عليه الخيرات . وإذا بأحد رجالات المغول من الكفار ببلاد الصين يصل الى « سمرقند » وكان كبير النفوذ عظيم الجاه ، كما كان ذلك اللعين يميل الى النصارى ، فجاء النصارى في هذه المدينة إلى ذلك المغولي ، وبثوه شكواهم قائلين : « ان المسلمين يحرضون اولادنا على التحول عن النصارى ، ويحولون بينهم وبين المسيح عليه السلام ، ويدفعونهم الى اعتناق دين المصطفى عليه السلام . واذا لم يسد هذا الباب في وجه المسلمين تحول أبناؤنا جميعا عن النصرانية فدبر بمالك من قوة وسلطان حلا لقضيتنا . فأمر

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

المغولي بإحضار الشاب الذي تحول إلى الإسلام . وحاولوا اغراءه بالعدول عن دينه الجديد بالرفق والمال والثراء، ولكنه أبى أن يرتد عن دينه ، وأن ينزع من قلبه وروحه هذا الثوب الجديد وهو عقيدة الإسلام .ومن ثم ضاق الحاكم المغولي بهذا الشاب وأخذ يتحدث عن العقاب الصارم فسلط كل ما في استطاعته من ألوان العقاب أو ما دبره من صنوف القسوة على هذا الشاب الذي لم يرتد عن دينه بسبب حماسته البالغة لدين الإسلام ، ولم تستطع ضربة ذلك الكافر العنيد أن تجعل جرعة الدين اللذيذة تفلت من يده ، ولما ظل الشاب ثابتا على دين الحق، ولم يكترث للوعد والوعيد اللذين لقيهما من هذه الجماعة المفسدة ، أمر المغولي اللعين بانزال العقاب بهذا الشاب امام الملأ . وقد فارق هذا العالم وهو في سعادة الدين ـ أجزل الله له المثوبة والأجر »[1] .

وقد نتج عن حروب المغول أن أصبحت المدن التي كانت قبلة العلم والعلماء أطلالا مندرسة ، وأما عن الفقهاء والعلماء والدعاة فقد كانوا بين قتيل وأسير وقد سن « جنكيز خان » عددا من القوانين التي أظهرت حقده على الإسلام والمسلمين ، وفيها الأمر بقتل كل من يذبح حيوانا على الطريقة الإسلامية ، وسار على نهجه « قوبيلاي » فقد عين مكافآت لكل من دل على من يذبح على الطريقة الإسلامية[2] .

وقد عانى المسلمون اقصى ضروب العسف والشدة في عهد « كيوك » ٦٤٤ ـ ٤٦٨ هـ (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨ م) الذي القى بزمام الدولة الى وزيريه النصرانيين ، والذي امتلأ بلاطه بالرهبان من النصارى[3] .

وكثيرا ما تعاون قساوسة النصارى مع الكهنة البوذيين ضد الدعاة المسلمين

(١) ارنولد : الدعوة الى الإسلام ص ٢٥٥ .
(٢) (٣) ارنولد : الدعوة الى الإسلام ص ٢٥٦

لعلهم يستطيعون أن يقفوا أمام زحف الدعوة الإسلامية الذي بدأ يتحرك من جديد في هذه الفترة بشكل نشيط جدا أزعج النصارى ، والبوذيين ، وكان هؤلاء أحيانا يتظاهرون بأنهم يريدون مقارعة دعاة الإسلام الحجة بالحجة بين يدي ملوك المغول ، أو حكامهم ، حتى إذا ما غلبوا ، وأعيتهم الحجة ، ووضح زيف دعواهم ، ووضحت حجة دعاة الإسلام وظهرت على حججهم ، لجأوا إلى العدوان عليهم والغدر بهم واستعمال أخس الوسائل ضدهم مستغلين صلتهم بالحاكم ، وعداء هذا الحاكم للإسلام ودعاته .

وقد أورد« الجوزجاني » الحادثة التالية التي تدل على مدى الكيد وخسة الوسائل التي انحدر إليها أصحاب هاتين الديانتين في حربهم لدعاة الإسلام فقال :

« فقد روى بعض الثقات أن كهنة البوذية كثيرا ما كانوا يوغرون صدر ذلك الأمير على المؤمنين ويحملونه على اضطهادهم . وكان في هذه البلاد أحد أئمة المسلمين ، وهو « نور الدين الخوارزمي » . . . وقد التمس بعض العلمانيين والقساوسة النصارى ، وفريق من كهنة البوذية من عبدة الأوثان التمسوا من « كيوك » أن يستدعي ذلك الإمام ليناظروه ، ويحاجوه ـ طالبين منه اقامة الحجة على تفوق الدين الإسلامي ، واثبات رسالة محمد ـ والا كان مصيره القتل اذا أعيته الحجة ، وقد أجابهم الخان الى طلبهم ، وبعث في طلب الامام وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد النبوة وسلوكه في حياته مع موازنته بسلوك غيره من الانبياء . ثم كانت ادلة هؤلاء الملاعين ضعيفة خالية من قوة الحق ، نفضوا ايديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ورسموا خطة من خطط الظلم ، والسخط على صفحات ذلك التدبير الذي عقدوا العزم على تنفيذه . فسألوا « كيوك خان » أن يأمر هذا الإمام بأن يسجد سجدتين وفق قواعد الشريعة الإسلامية وتعاليمها حتى تبين امامهم وامام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة . فأمر « كيوك » ذلك

الإمام والمسلم الآخر الذي كان معه بأداء الصلاة حسب الأوامر الدينية المعروفة عند المسلمين . فلما خر الإمام الورع والمسلم الذي كان معه على الأرض ساجدين ، قام بعض الكفار الذين دعاهم « كيوك » وأسرفوا في ايذائهما ، وأخذوا يضربون رأسيهما في الأرض في شدة وعنف واقترفوا معهما بعض الأعمال المخزية ، على أن ذلك الإمام الورع لم يأبه لكل العنت والمضايقة وأدى الصلاة وآدابها من غير أن يقطعها ، ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم شخص ببصره الى السماء وقال : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾[1] ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ ثم طلب الى « كيوك » أن يأذن له بالإنصراف وعاد الى بيته[2] .

وقد اضطهد ارغون (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ) (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) رابع ايلخانات المغول في فارس - المسلمين في بلاده ، وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها ، في القضاء ، والمالية كما حرم عليهم الظهور في بلاطه[3] .

وقد ضيق « جغتاي » على رعاياه المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التي ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام ، وفرائض الوضوء ويذكر « الجوزجاني » أن « جغتاي » هذا كان من ألد أعداء المسلمين بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة « مسلم » في حضرته - اللهم إلا إذا أُريد بها التحقير والحط من شأنها[4] .

---

(١) سورة الأعراف من الآية ٥٥ .

(٢) الجوزجاني : طبقات ناصري ص ٣٠٥ (وهذا هو النص باللغة الفارسية)

(٣) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٧ .

(٤) الجوزجاني : طبقات ناصري ص ٢٨١ - ٣٩٧ .

الفصل الثاني
توجيه الدعوة الإسلامية إلى المغول

تمهيد

عرضنا من قبل الجهود المضنية التي بذلها النصارى في سبيل استئصال الإسلام والقضاء على المسلمين ، وعرفنا كيف ان تلك الجهود ذهبت ادراج الرياح في اكثر ما ذهبوا اليه ، نعم لقد استطاعوا اغراء المغول ـ بواسطة الأميرات الفاتنات ـ بذبح المسلمين ، فقتلوا منهم أعداداً هائلة وقضوا على كثير من المؤلفات والكتب والثقافة الإسلامية ، الا انهم اخفقوا في تحقيق جميع الأهداف الأخرى ، فلم يقض على الإسلام . بل بقي الإسلام شامخا عاليا قويا كالطود الاشم ، محفوظا في كتابه الكريم كما تعهد بذلك رب العزة **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾**[1] **﴿ والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾**[2] .

فالإسلام لا يحميه البشر ، ولا ينتشر أو يتقلص بإرادتهم ، فكم من طاغوت حارب الإسلام ودعاته بكل ما اوتي من قوة ولكن هلك أولئك الطواغيت جميعا وبقي الاسلام ، وكم من طائفة قامت على أسس خبيثة وخططت للقضاء على الإسلام ففنيت تلك الطوائف وذهبت في التاريخ عبرة لمن يعتبر ، وبقي الإسلام ،

---

(١) سورة الحجر آية ٩ .

(٢) سورة يوسف من آية ٢١ .

فأين القرامطة[1] وجرائمهم ، وأين الزنج[2] وفسادهم ؟ وأين المقنع[3] وعصابته ؟ وأين الصليبيون وجيوشهم الجرارة ؟ لقد ذهب اولئك جميعا وبقي

---

(١) القرامطة : هي حركة من حركات غلاة الشيعة ثارت ضد الدولة العباسية وتظاهرت بالدعوة الى محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وتنسب الى رجل نبطي اسمه حمدان ويلقب بقرمط ـ ولقب بذلك لاحمرار عينيه ـ قامت هذه الحركة باعمال السلب والنهب في كثير من بلاد الشام والعراق وقتلت الشيوخ والنساء والأطفال وأبادت مدناً بكاملها . دأب أعضاؤها على الوقوف في طريق الحجاج وقتلهم وسلب ما معهم وقد فاجأ « ابو الطاهر سليمان بن الحسن الجنابي » ـ والذي آلت إليه زعامة القرامطة ـ فاجأ الحجاج سنة ٣١٧ هـ يوم التروية وقتلهم قتلاً ذريعاً في فجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون باستاره واقتلع الحجر الاسود وأخذه الى الإحساء حيث كانت دولتهم ويقال انه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يصرعون حوله في المسجد الحرام وهو ينشد

انا لله وبالله انا يخلق الخلق وافنيهم انا

ويقال انه كان زنديقا لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي فرائض الإسلام وقد اصيب بمرض تقطعت بسببه اوصاله واطرافه وهو ينظر اليها ومات بعد ان طال عذابه ورأى في جسده العبر ، وخلفه اخوه الذي رد الحجر الأسود الى مكانه ثم ضعف القرامطة بعد ذلك واضطروا الى الدخول في طاعة الخلافة العباسية ونبذ عقيدتهم القرمطية.(الدكتور شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ص ٢٣ ـ ٤٢) .

(٢) الزنج : هي حركة ثورية أعد لها وأشعلها رجل فارسي ادعى أنه علوي ثار ضد الدولة العباسية ثم رأى أن يستغل الزنج الذين كانوا يجلبون من شرق أفريقيا ويسخرهم كبار الملاك الاقطاعيين في كسح السباخ وفي زرع أرضهم ولا يدفعون لهم ما يسد رمقهم ولا يقدمون لهم من الكساء ما يسترهم فاعلن انه انما يريد انصافهم وتحريرهم وزعم انه يوحى اليه فالتف هؤلاء ـ ومعهم عبيد الفرات ـ حوله ولكنه استباح في حروبه استرقاق الاحرار مما يؤكد انه لم يكن يفكر جديا في الغاء الرق ، وقد شكت اليه امرأة استرقها احد اتباعه ـ وهي من ولد الحسن بن علي ـ وطلبت ان يعتقها او ينقلها الى غيره فقال لها « هو مولاك واولى بك من غيره » وكان يستحل قتل النساء والشيوخ والأطفال ويرى انه ينبغي قتال المسلمين واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية ، وقد استمرت هذه الثورة أربعة عشر عاما ويقال أنه راح ضحيتها مليون ونصف من المسلمين (الدكتور شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني من ص ٢٦ ـ ٣٠) .

(٣) المقنع : ثائر من اهل مرو كان رجلا ساحرا ادعى الربوبية واطاعه جماعة كثيرة بنى قلعة سماها « سنام » واتخذها قاعدة ينطلق منها للسلب والنهب والقتل ولنشر فساده ، سمي بالمقنع لانه كان يخفي تشويه خلقته بقناع من ذهب ، قضي عليه وعلى اتباعه في عهد ابي جعفر المنصور (المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ٩) .

الإســلام شـاهــداً عــلى وفــاء الله بعهــده ﴿ . . . . ومن اوفى بعهــده من الله . . . . ﴾[1] .

نعم لقد كلف الله المسلمين حمل الرسالة وتوصيلها للآخرين ، ولم يطلب منهم ادخال الناس في دينه قسرا ، كما لم يطلب منهم الخروج عن بعض أوامر الإسلام في سبيل ارضاء الغير وادخاله الإسلام ، فلم نسمع مثلا بأن مسلما زوج ابنته أو أخته كافرا أملا في هدايته إلى الإسلام أو في سبيل تسليطه على عدو من أعداء الإسلام .

لم ينتشر الإسلام بالقوة كما يهذي بعض خصومه ، فهذه قوة المسلمين قد تحطمت ، واصبح المسلمون محكومين مغلوبين على أمرهم لا حـول لهم ولا قوة مسحوقين بين اسير ذليل يباع في اسواق النخاسة ، وجارية مسكينة لا تملك من امرها شيئا وبقية امة تبكي بين الاطلال على من فقدت من احباب وامجاد الا ان هؤلاء الضعاف الذين ضاعت منهم الدنيا حرصوا اشد الحرص الا تضيع منهم الآخرة ، فأخلصوا لدينهم ، ودعوا المغول الى الإسلام من تلك النقطة المتناهية في الضعف ، وشرحوا لهم الإسلام ـ دين الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، ولم يعتورها الالتواء ، والانحراف أو التبديل ، أو التحريف الذي يجعـل العقل عاجزا عن فهم بعض ما جاء به وادراكه ـ قدموا لهم هذا الدين وأدوا الواجب الذي كلفهم الله به رغم ما كانوا عليـه من الضعف وتركـوا الباقي عـلى الله سبحانـه وتعالى .

فماذا كانت نتيجة هذا الصراع الهائل بين الحق والباطل ؟ وإلى أي طريق انتهى المغول الذين دار حولهم هذا الصراع المرير بين الاتجاهين ؟ وماذا صنعت الدعوة الأسلامية بجبابرة المغول وطواغيتهم الذين أزعجوا الدنيا وروعوا الناس وهددوا الحضارة الإنسـانية كلهـا بالفنـاء ؟ هذا مـا سنحاول الإجـابة عليـه في الصفحات التالية إن شاء الله .

---

(١) سورة التوبة من اية ١١١ .

المبحث الأول :
من الذين حملوا الدعوة الاسلامية الى المغول

احدث احتلال المغول للبلاد الإسلامية وتحطيمهم للخلافة ، ردة فعل قوية في نفوس المسلمين جعلتهم ينشطون في الدعوة الى الإسلام نشاطاً قوياً نتج عنه اقتناع الاغلبية الساحقة من المغول بالإسلام ونستطيع ان نرجع دخول المغول في الإسلام الى الأسباب الآتية :ـ

أولا : قام دعاة الإسلام بنشاط كبير بين الأُمم من غير المسلمين بلا حماية من دولة أو قوة مسلحة معتمدين على الله وحده آملين في ثوابه ، وقد نتج عن ذلك اقتناع أعداد كبيرة بالإسلام ، فمنهم من أشهر إسلامه ، ومنهم من أسلم سرا خوفا من الطواغيت الذين كانوا في الحكم[١] . وقد بلغ من شدة نشاط الدعاة في هذه الفترة أن أبناء النصارى بدأوا يدخلون الإسلام بشكل أزعج آباءهم . فقد شكى النصارى إلى أحد الحكام المغول من هذا النشاط قائلين « إن المسلمين يحرضون أولادنا على التحول عن النصرانية ، ويحولون بينهم وبين المسيح ـ عليه السلام ـ ، ويدفعونهم إلى اعتناق دين « المصطفى » ـ عليه السلام ـ وإذا لم يسد هذا الباب في وجه المسلمين تحول أبناؤنا جميعا عن النصرانية ، فدبر لنا بمالك من قوة وسلطان حلا لقضيتنا »[٢] ويقول أرنولد في موضوع آخر « لا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي (ﷺ) قد انتشروا في طول امبراطورية المغول وعرضها مجاهدين في طي الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة

---

(١) أنظر اسلام تغلق تيمورخان ـ المبحث الرابع من هذا الفصل ص ٢٢٧ .

(٢) ارنولد : الدعوة الى الإسلام ص ٢٥٥

الإسـلام ، ففي عهـد « جغتـاي » نقـرأ عن اسـلام بـوذي يـدعي « كورجوز » "Kurguz" كان حاكما على بلاد الفرس من قبل المغول[1] ، ومن هذا يتضح ان نشاط دعاة الإسلام اصبح قويا لدرجة ان حكـاما يتحولون الى الإسلام والنصارى يضجون بالشكوى ويستغيثون بحكام المغول لوضع حد لنشاطهم .

ثانيا : وقد قام المغول ـ عند احتلالهم للبلاد الإسلامية بأسر اعداد ، غفيرة من المسلمين فمنهم من كان داعية ، ومنهم من كان فقيها ، ومنهم من كان صانعا ، وانتشـر هؤلاء بين المغـول ، وفي بيوتهم يبـاشرون طقـوسهم الـدينية ، ويـدعون اليهـا كلما اتاحت لهم الفـرصة ، وهـذه صفة في المسلمـين يتمسك بهـا اكثرهم حتى في أكـثر الأوقات حـرجا ، يقـول أرنولد : « حتى المسلم الأسير ، يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة آسرية أو ـ إخوانه في الأسر ـ الى دينه ، وقد تسرب الإسلام إلى أوروبا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم ، سيق أسيراً . . . . »[2] .

وكم من فقيه ساقه المغول اسيراً الى بلادهم من عشرات المدن الإسلامية التي احتلوها .

ولم يكن نشر الإسلام من عمل الرجال وحدهم ، بل لقد قـامت النساء المسلمات أيضا بنصيبهن في هذه المهمة الدينية ـ فيرجع الفضل في إسلام كثير من رجال المغول وأمرائهم إلى تأثير جارية مسلمة اتخذت زوجة . يقول أرنولد : « لا يبعد أن تكون سبايا المسلمين قد قمن بدور هام في تحويل المغول إلى الإسلام » ، وقال عن « محمد خدابنده » : وعمد باسم « نيقولا » على أنه لم يلبث أن أسلم بعد

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الإسلام ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٥٣ .

موت أمه (النصرانية) وهو لا يزال شابا في مقبل العمر وذلك بتأثير زوجته »[١] .

وقد تسلم عرش الأسرة الجغتائيـة الملك « مبارك شـاه » ٦٦٣ هـ الموافق (١٢٦٤ م) الذي ربته أمه المسلمة « أُرغانه Orghana » على الإسلام[٢]

كما وأثر في المجتمع المغولي ما جلبه الحكام المغول إلى بلادهم الأصلية من صناع وحرفيين عند انتصارهم على البلاد الإسلاميـة فقد أثـار إخلاص هؤلاء واتقـانهم صناعـاتهم إعجاب المغول ودفع بعضهم إلى تقليدهم واعتناق دينهم .

ثالثا : لقد شجع المغول التجارة ، وسمحوا للتجار بالتجول في طول بلادهم وعرضها ، وقد اغتنم التجار المسلمون هذه الفرصة وأخذوا يدعون الى الإسلام كلما اتاحت لهم الظروف ومثال ذلك التجار الذين خلوا « ببركة خان » وشرحوا له الإسلام شرحا مقنعا انتهى باعتناقه لهذا الدين[٣] . والتجار الذين دخلوا ارضا خصصها الأمير « تغلق تيمور » للصيد فجيء بهم اليه وحصلت مناقشة بينهم وبينه وعرض الشيخ « جمال الدين ـ الذي كان معهم ـ الإسلام عليه بطريقة جَريئة وانتهت القصة بإسلامه[٤] .

رابعاً : وقد قام عدد من القادة المسلمين الذين خدموا مع المغول بنشاط ملحوظ لإقناعهم بالإسلام ومثال ذلك القائد « نوروز » وإلحاحه على غازان ، وعرض الإسلام عليه من حين إلى حين حتى انتهى بإسلامه[٥] .

خامسا : كان لقرب بلاد المغول الأصلية من اطراف العالم الإسلامي أثر كبير في

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الإسلام ص ٦٥ والحاشية .
(٢) أنظر المبحث الرابع من هذا الفصل ص ٢٢٦ .
(٣) أنظر المبحث الثالث من هذا الفصل ص ٢١٧ .
(٤) أنظر المبحث الرابع من هذا الفصل ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٥) أنظر اسلام غازان المبحث الخامس من هذا الفصل .

قدرة سكان تلك المناطق على عرض الإسلام وشرحه لهم لأن بعض المتجاورين يفهم لغة جيرانه ، ومن المعروف أن الأُمم المتجاورة تكون متقاربة في العادات والتقاليد والأمزجة ، وهذه أُمور سهلت على دعاة الإسلام في تلك المناطق طريقة تقديم الإسلام لهم وعرضه عليهم .

سادسا : ثم إن المغول أنهكتهم الحروب المتواصلة ، وخبروا الأمم ، والشعوب والملل والنحل ، وأصبحوا يتطلعون إلى مذهب في الحياة فلم يجدوا أفضل ولا أتم من الإسلام لأنه دين الفطرة وهم كانوا أقرب إلى البداوة والسذاجة الأولى لم تفسد فطرتهم بحياة المدن والحضارات وإن كانوا غلاظا شدادا نتيجة الجهل وعدم وجود دين سليم يتعلمون منه الخير .

ولقد أتاح حكمهم للمسلمين ومخالطتهم إياهم فرصة كبيرة للإطلاع على أحوال هؤلاء المسلمين وكيفية تطبيقهم للإسلام ، ورأوا عدالة القضاء الإسلامي الذي يسوي بين الغني والفقير ، والقوي والضعيف ، كما أتاح لهم رؤية بساطة الإسلام ووضوحه وسهولة شعائره وبعدها عن الطلاسم والخزعبلات الموجودة في غيره من الأديان والملل الأُخرى فدفعهم هذا كله على المدى الطويل ، وبالتأثير الهادىء البطيء للتحول من العداوة الحاقدة إلى المسالمة ثم المصادقة للمسلمين ثم الإعجاب . وبتوفيق من الله سبحانه شرحت صدور اعداد كبيرة من المغول للإسلام ، وأصبحت النفوس مهيأة للدخول في دين الله « أفواجا »[1] وكأن هذه السورة الكريمة قد نزلت حينئذ ﴿ **اذا جاء نصر الله والفتح ، ورايت الناس يدخلون في دين الله افواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا** ﴾[2] .

من هذا العرض السريع نجد أن المسلمين في تلك الفترة ـ بجميع فئاتهم من

---

(١) أنظر اسلام غازان ، المبحث الخامس من هذا الفصل ص ٢٤٢ .

(٢) سورة النصر .

فقهاء ، وتجار ، وصناع ، وقادة ، وأسرى ، وسبايا ـ حملوا الدعـوة الإسلاميـة مستعينين بالله ثم بأساليب الدعوة الإسلامية العالميةووسائلها والتي عرضناها في الباب السابق .

والآن نعرض ـ إن شاء الله ـ كيف أصبح الإسلام دين الأغلبية الساحقة من المغول ، ثم كيف أصبح الدين الرسمي لجميع خانيات (ممالك) المغول التي قامت في موطنهم الأصلي ، وفي البلاد الإسلامية التي فتحوها واستقروا فيها .

المبحث الثاني :
انتشار الاسلام بين المغول القبجاق (القبيلة الذهبية)

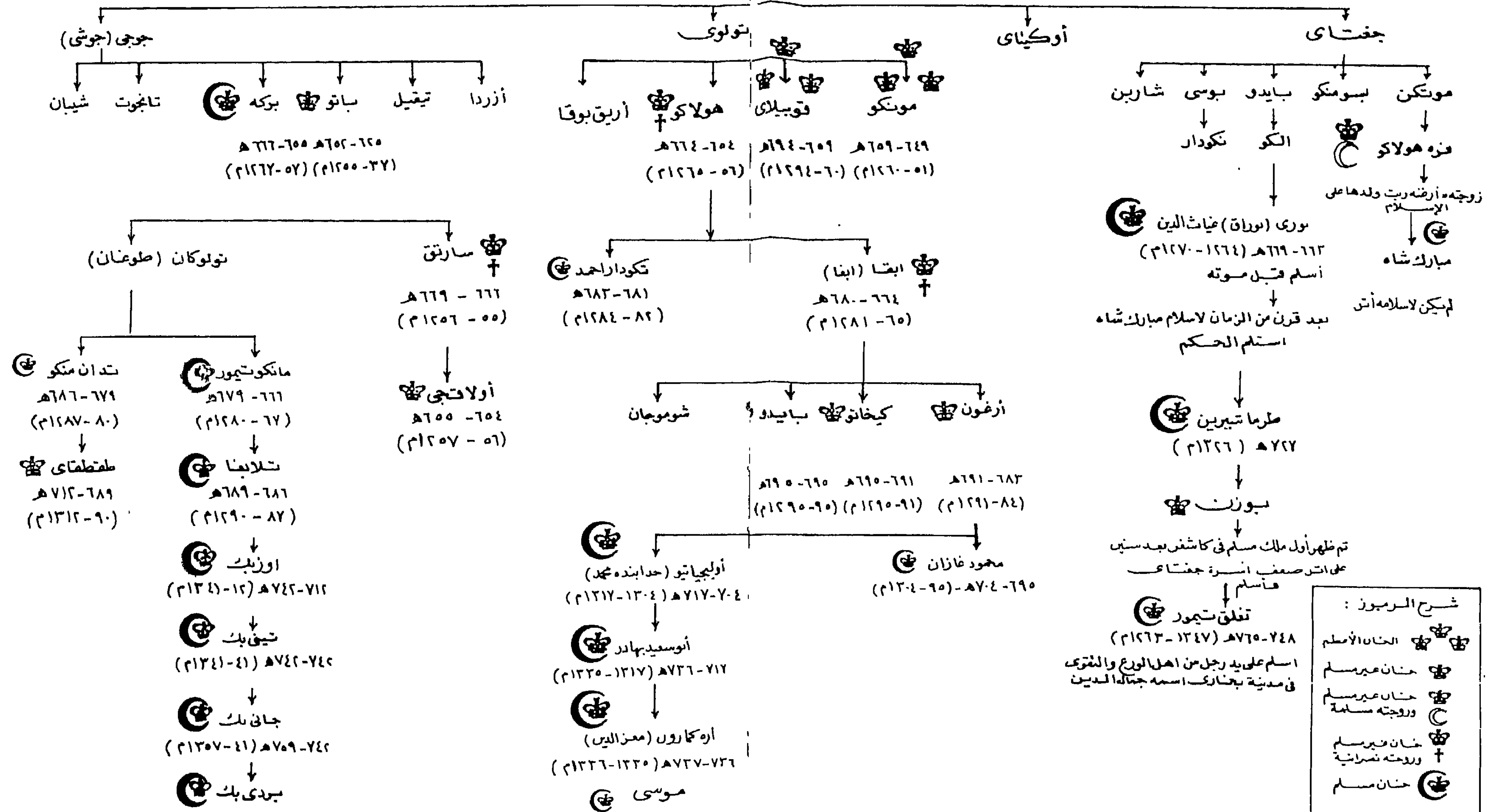
عندما توفي جنكيز خان قسمت امبراطوريته بين أبنائه الأربعة

(١) اختير « اوكيتاي » Ugutay خانا أعظم للمغول ، وكان مقره في بـلاد والده الأصلية أي في منطقة هضبة منغوليا وسلاسل جبال « تيان شـان » وجبال « التاي » وما بينها من سهول ، وكانت عاصمته « قره قورم » .

(٢) وأما « جغتاي بن جنكيز خان » فقد أُعطى الجزء الأوسط من الامبراطورية ويشمل تركستان ، وكاشغر ، والصاغون ، والشاس وفرغانه وسائر ما وراء النهر من البلاد .

(٣) وقد أعطي « تولوي بن جنكيز خان » أعمال خراسان وعراق العجم والري إلى عراق العرب ، وبلاد فارس ، وسجستان ، والسند .

(٤) وكان من نصيب « باطو بن جوجي بن جنكيز خان » ـ خان القبيلة الذهبية ـ بلاد القبجاق ومنها صراى ، وبلاد الترك ، وشمال البحر الأسود ، وشرق



جنكيز خان
٦٠٣-٦٧٤هـ
(١٢٠٦-١٢٧٧م)
جوجي (جوشي)
تولوي
أوكيناي
جغتاي
أزردا
تيقيل
باتو
بركه
تانجوت
شيبان
٦٢٥-٦٥٢هـ ٦٥٥-٦٦٦هـ
(٣٧-١٢٥٥م) (٥٧-١٢٦٢م)
أريق بوقا
هولاكو
قوبيلاي
مونكو
٦٥٤-٦٦٤هـ
(٥٦-١٢٦٥م)
٦٥٩-٦٩٤هـ
(٦٠-١٢٩٤م)
٦٤٩-٦٥٩هـ
(٥١-١٢٦٠م)
شاربن
بوسى
بايدو
بسومنكو
موتكن
نكودار
الكو
مزه هولاكو
زوجته أرضعت ولدها على الإسلام
مبارك شاه
لم يكن لاسلامه أثر
بورى (بوراق) غياث الدين
٦٦٣-٦٦٩هـ (١٢٦٤-١٢٧٠م)
أسلم قبل موته
بعد قرن من الزمان لاسلام مبارك شاه استلم الحكم
طرما شيرين
٧٢٧هـ (١٣٢٦م)
بوزن
تم ظهر أول ملك مسلم في كاشغر بعد سنين على اثر ضعف أسرة جغتاي فأسلم
تغلق تيمور
٧٤٨-٧٦٥هـ (١٣٤٧-١٣٦٣م)
اسلم على يد رجل من اهل الورع والتقوى في مدينة بخارى اسمه جمال الدين
تولوكان (طوغان)
سارتق
٦٦٦ - ٦٦٩هـ
(٥٥ - ١٢٥٦م)
أولاقجي
٦٥٤ - ٦٥٥هـ
(٥٦ - ١٢٥٧م)
تكودار احمد
٦٨١-٦٨٣هـ
(٨٢ - ١٢٨٤م)
ابقا (ابغا)
٦٦٤-٦٨٠هـ
(٦٥-١٢٨١م)
تدان منكو
٦٧٩-٦٨٦هـ
(٨٠-١٢٨٧م)
طقطقاي
٦٨٩-٧١٢هـ
(٩٠-١٣١٢م)
مانكوتيمور
٦٦٦-٦٧٩هـ
(٦٧-١٢٨٠م)
تلابغا
٦٨٦-٦٨٩هـ
(٨٧-١٢٩٠م)
اوزبك
٧١٢-٧٤٢هـ (١٢-١٣٤١م)
تيني بك
٧٤٢-٧٤٢هـ (٤١-١٣٤١م)
جاني بك
٧٤٢-٧٥٩هـ (٤١-١٣٥٧م)
بردى بك
شوموجان
بايدو
كيخاتو
أرغون
٦٨٣-٦٩١هـ
(٨٤-١٢٩١م)
٦٩١-٦٩٥هـ
(٩١-١٢٩٥م)
٦٩٥-٦٩٥هـ
(٩٥-١٢٩٥م)
أولجايتو (خدابنده محمد)
٧٠٤-٧١٧هـ (١٣٠٤-١٣١٧م)
محمود غازان
٦٩٥-٧٠٤هـ (٩٥-١٣٠٤م)
أبوسعيد بهادر
٧١٢-٧٣٦هـ (١٣١٧-١٣٣٥م)
اره كاوون (معز الدين)
٧٣٦-٧٣٧هـ (١٣٣٥-١٣٣٦م)
موسى
شرح الرموز:
الخان الأعظم
خان غير مسلم
خان غير مسلم وزوجته مسلمة
خان غير مسلم وزوجته نصرانية
خان مسلم

الجزء الشرقي من العالم الإسلامي
في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي

المغول القبجاق
من القبيلة الذهبية
البحر الأسود
المغول الجغتائية
المغول الإيلخانية
المماليك البحرية
البحر المتوسط
الخليج
خوارزم
بلاد ما وراء النهر
فرغانه
بخارى
سمرقند
كابل
قزوين تبريز
همذان
نيسابور
هراة
كرمنشاه
كرمان
شيراز
هرمز
بغداد
بادية العراق
بادية الشام
النفود
الدهناء
عمان
الربع الخالي
حضرموت
اليمن
المدينة المنورة
مكة المكرمة
القاهرة
الإسكندرية
دمشق
حمص
حماه
قونيه
قبرص
نهر السند
لاهور
كراتشي
غزنه
باميان
بلخ

بحر قزوين حتى خوارزم[1] . (أنظر الخريطة) إلا أنه لم يبق من هذه الأسر الا ثلاث[2] .

كيف اسلمت القبيلة الذهبية (القبجاق) :

كان بركة خان ـ زعيم القبجاق ـ مسلما يكتم إسلامه ، لأن معظم قبيلته كانوا شامانيين وقليل منهم نصارى أو بوذيين ، وكان السبب الرئيسي في إسلام قبيلته ما هيأه الله من علاقة ودية بينه وبين الظاهر بيبرس ، فقد احتفى هذا الأخير بمجموعة من جنود القبيلة الذهبية يبلغ عددها مائتين ، كانت تقاتل بين جنود « هولاكو » ، فلما وقع الخلاف بين هذا الأخير وبركة خان ، واشتعلت الحرب أمر بركة خان جنوده ـ الذين كانوا يقاتلون في جيش هولاكو ـ بالمسير اليه وترك جيش هولاكو ، وإذا لم يستطيعوا ذلك عليهم أن يذهبوا إلى بلاد المسلمين في طاعة السلطان الظاهر بيبرس .

ترك أولئك الجنود جيش المغول ، وساروا إلى سوريا ثم إلى مصر وهناك

---

(١) ابن خلدون · كتاب العبر ج ٧ ص ١٢١٩ ـ ١٢٢٢ .

(٢) ظهرت لدى أبناء هؤلاء نية الاستقلال فحاول « كيوك بن اوكيتاي » خان المغول الأعظم في ذلك الوقت أن يمنع ذلك فكان لا بد ان يصطدم « بباطو » زعيم بيت جوجي ـ أكبر أبناء جنكيز خان ، وفي سنة ١٢٤٦ حدث بينهما توتر كاد يؤدي إلى قتال إلا أن كيوك مات سنة ١٢٤٨ م وعلى أثر ذلك أصبحت لباطو زعامة بيت جنكيز خان فجعل همه الأكبر استبعاد اسرة « اوكيتاي » من ولاية عرش المغول ولما كانت قد توافرت في بيت « تولوي » ـ الذي يترعمه « منكو » أكبر أبناء تولوي ـ من الأمانة والاستقامة والنزاهة ما كان ينتشده « باطو » فقد وجد من الحكمة ترشيحه ليكون خانا أعظم للمغول وقد أقر مجلس الأمراء (قورلتاي) انتخابه في ١٢٥١ م رغم اعتراض أسرتي اوكيتاي وجغتاي على ذلك وقد لقي هذا الانقلاب مقاومة من أمراء جغتائيين واوكيتائيين وأعوانهم إلا أنهم فشلوا وانتقم منهم الخان الجديد بالقتل والتشريد وبهذا قضي على بيت (اوكيتاي) وانتقلت ولاية العرش الأمبراطوري الى بيت « تولوي » ولم يبق إلا ثلاث أسر هي الجغتائيين وايلخانات فارس والقبجاق ـ القبيلة الذهبية (لتفصيل اكثر راجع كتاب الدكتور الباز المغول ص ١٩٣ والحاشية) .

استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط السلطان الظاهر بيبرس الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه[1] .

وكان من نتيجة اختلاف المغول والقتال الذي حدث بين « بركة خان » وابن عمه « هولاكو » أن اضطربت بلادهم وكثر هروب جماعات من المغول إلى بلاد الشام المجاورة لهم بحثا عن النجاة ، وذلك راجع إلى ما سمعوه عن معاملة السلطان الظاهر بيبرس لهؤلاء الوافدين من استقبال واكرام وانعام مما جذب الوافدين وقد زاد عددهم حين وصلت طائفة من المغول مستأمنين في شهر ذي القعدة سنة ٦٦١ هـ (سبتمبر ١٢٦٣ م) عدتها فوق الألف والثلاثمائة فارس من المغول ، فلما علم السلطان بهم كتب إلى نوابه بحسن استقبالهم والإحسان إليهم « فلما رأوه نزلوا عن خيولهم وقبلوا الأرض بين يديه ، فأكرمهم وعادوا الى القلعة ، ثم خلع عليهم ، ثم جاءت طائفة أخرى من المغول فاحتفل بهم السلطان واستقبلهم ، وجاءت طائفة ثالثة فأكرم وفادتهم ، وأقر أكابرهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا ، وختنوا بأجمعهم »[1] .

وأنزلهم في دور بنيت لهم في « اللوق »« وهي المعروفة الآن بباب اللوق » وبعث اليهم الخلع والأموال وأمَّر كبراءهم وأدمج بعضهم في سلك المماليك . ومنحهم بعض الإقطاعات وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة أن تكاثر عدد الوافدين من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينا لهم[2] .

وهكذا بتوفيق الله سبحانه ثم بإخلاص السلطان بيبرس تحول عدد كبير من

---

(١) المقريزي ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ و ١٨٧ .

(١) فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٨٣ .

(٢) المقريزي : خطط ج ٢ ص ٥٠٠ - ٥٠١ (دار التحرير للطبع والنشر عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .

جنود هذه القبيلة إلى الإسلام . وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا الى « بركة خان » وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر أن لكل أمير وأميرة في بلاط « بركة خان » إماما ومؤذنا خاصا وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس[1] .

والحق إن بركة خان كان له من اسمه نصيب فقد كتب الله على يديه هداية اكثر قبيلته وكشفت منه الأيام قائدا مؤمنا وإماما هادياً كما سيأتي تفصيل هذا الأمر فيما بعد إن شاء الله .

المبحث الثالث :
أعمال ملوك هذه القبيلة لخدمة الإسلام

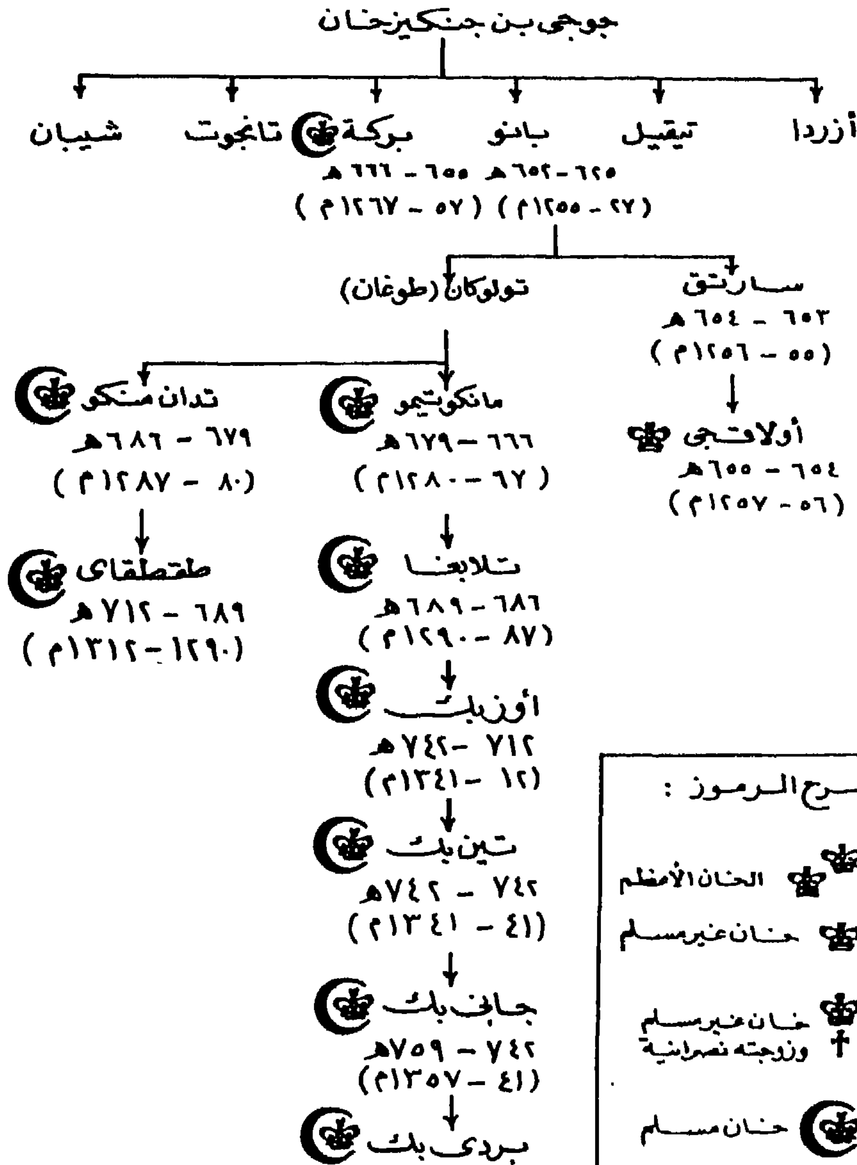
أولاً : بركة خان (من سنة ٦٥٥ هـ ٦٦٦ هـ) (١٢٥٧ م - ١٢٦٧ م)

هو بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان ، أخذ الملك بعد أن توفي « طرطق خان » بن باطو بن جوجي بن جنكيز خان . كان بركة خان أول من أسلم من ملوك المغول ، وقد اختلفت الروايات في كيفية إسلامه ، فمن قائل أنه التقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى فاختلى بتاجرين منهم وسألهما عن الإسلام فشرحاه شرحا مقنعا انتهى إلى اعتناق « بركة خان » لهذا الدين والإخلاص له ، وقد كاشف أصغر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الإسلام وحبب إليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين[2] .

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الإسلام ص ٢٥٩ نقلا عن المقريزي .

(٢) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩ (نقلا عن ابو الغازي ج ٢ ص ١٨١) .


القبيلة الذهبية - المغول القبجاق
جوجي بن جنكيزخان
أزردا
تيقيل
بانو
٦٢٥-٦٥٢هـ
(٢٧-١٢٥٥م)
بركة
٦٥٥ - ٦٦٦ هـ
(٥٧ - ١٢٦٧م)
تانجوت
شيبان
سارتق
٦٥٣ - ٦٥٤هـ
(٥٥ - ١٢٥٦م)
تولوكان (طوغان)
أولاقجي
٦٥٤ - ٦٥٥هـ
(٥٦ - ١٢٥٧م)
مانكوتيمور
٦٦٦ - ٦٧٩هـ
(٦٧ - ١٢٨٠م)
تدان منكو
٦٧٩ - ٦٨٦هـ
(٨٠ - ١٢٨٧م)
طقطلقاى
٦٨٩ - ٧١٢هـ
(١٢٩٠ - ١٣١٢م)
تلابغا
٦٨٦ - ٦٨٩هـ
(٨٧ - ١٢٩٠م)
أوزبك
٧١٢ - ٧٤٢هـ
(١٢ - ١٣٤١م)
تيني بك
٧٤٢ - ٧٤٢هـ
(٤١ - ١٣٤١م)
جاني بك
٧٤٢ - ٧٥٩هـ
(٤١ - ١٣٥٧م)
بردي بك
شرح الرموز :
الخان الأعظم
خان غير مسلم
خان غير مسلم
وزوجته نصرانية
خان مسلم

خان مسلم

وأما الجوزجاني فيذكر أن بركة خان قد اعتنق الإسلام منذ طفولته ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن الكريم على يد أحد علماء مدينة « خوند » . وقد اهتم بنشر الإسلام بين أفراد قبيلته وجنوده حتى أصبح جميع جيشه مسلما ، وكان كل فارس في جيشه يحمل سجادة للصلاة حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم(1) .

ومما يدل على صدق إسلام « بركة خان » ورجال قبيلته أنه لم يكن في جيشه من يتعاطى مسكرا وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء والمفسرين ورجال الحديث ، والفقهاء ، وعلماء الكلام ، وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين كما كانت معظم مجالسه ومحاوراته مع العلماء ، وكانت المحاورات الدينية تشغل اكثر مجالسه ، كما كان سنياً شديد التمسك بدينه ، مدعما للدعوة الإسلامية ساعيا لنشرها بين رعيته وعائلته حتى لقد أمر أن يكون في حاشية كل واحدة من زوجاته وكل أمير من أمرائه إمام ومؤذن لإقامة الشعائر الدينية(2) .

وقد أثر إسلامه ـ وكذلك صلاته الطيبة مع المماليك ـ تأثيرا طيبا في انتشار الإسلام بين أفراد القبيلة الذهبية ، فقد حذا حذوه كثير من زعماء وأُمراء المغول في تلك البلاد ـ رغم مقاومة بعضهم لهذا الدين ، وحيلولتهم دون انتشاره بينهم ، حتى أنهم فكروا في خلع « بركة خان » حين أعلن إسلامه وعرضوا التاج على « هولاكو » ألد أعدائه .(3)

وقد كان « بركة خان » شديد التمسك بالإسلام ، ومخلصاً للمسلمين مدافعا عنهم ، وقد عرف عنه أنه كان يؤثر المسلم مهما كانت جنسيته على غير المسلم

---

(1) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩ .

(2) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١١٣ .

(3) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٧١ .

ولو كان اميراً مغولياً ، حتى أنه أعلن الحرب على ابن عمه « هولاكو » لأنه قضى على الخلافة الإسلامية ، وذبح المسلمين ودمر مدائنهم ومدنيتهم في كثير من البلدان ، وكان بذلك متمثلا بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون** ﴾[1] .

وقد بعث لسلطان مصر الظاهر بيبرس بعدة رسائل تظهر مدى تمسكه بدينه ، وتفضيله المسلمين من غير المغول على ابن عمه وأهله ذلك لأن الإسلام فرق بينهم فقد جاء في احدى رسائله : « قد علمت محبتي للإسلام وعلمت ما فعله « هولاكو » بالمسلمين فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نصطلمه (نستأصله) أو نخرجه من البلاد وأُعطيك جميع ما كان بيده من البلاد »[2] .

ويقول في رسالة أُخرى :

« . . . . فيعلم السلطان أنني حاربت « هولاكو » الذي هو من لحمي ودمي لإعلان كلمة الله العليا تعصبا لدين الإسلام ، لأنه باغ والباغي كافر بالله ورسوله ، وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان ، ووجهت « ابن شهاب الدين غفاري (صاحب ميافارقين) » معهم لأنه كان حاضرا في الوقعة ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال ، ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق بالخيرات والسعادات لأنه أقام أماماً من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لا سيما لما بلغني توجهه

---

(١) المجادلة : آية ٢٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٨ .

بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار »[1] .

وقد شرح في رسالة أخرى الأسباب التي دعته لمحاربة ابن عمه وقال : أنه قام واخوته الأربعة بمحاربة « هولاكو » من جميع الجهات لإقامة شريعة الإسلام وأنه أخذ بثار الأئمة والأمة ، وأنه أقام الأذان والصلاة وقراءة القرآن في بلاده[2] .

ومن هـذا نعلم أن أهم أسباب الخلاف بين « بـركة خـان » وابن عمـه « هولاكو » غضب مغول الشمال من تصرفات هولاكو في أراضي المسلمـين من تخريب وتدمير وقتل للمسلمين بالإضافة إلى قتل الخليفة المستعصم بالله »[3] .

ومن حسنات « بركة خان » أو من أكبر تلك الحسنات كسره لهولاكو ، وفك الأسارى من يده ، وكان يناصح الملك الظاهر بيبرس ويكرم رسله ويهاديه وكان لا يقطع مكاتبته ومراسلته « . . . . وكما أنه كسر قوة هولاكو وشوكته وصده بذلك عن قصد بقية بلاد الإسلام كذلك قوى قلوب ملوك الإسلام ، وحرضهم على قتاله وأعانهم بإرسال العساكر على ذلك ، حين جبنوا عن مقاتلته ، وخشوا بطشه وفرقوا من سطوته ، حتى انتعشوا بذلك ونهضوا بقوة الجأش لمحاربته »[4] .

ثانياً : منكوتمر (٦٦٦ ـ ٦٧٩ هـ ١٢٦٧ ـ ١٢٨٠ م)

تولى الحكم بعد « بركة خان » ابن اخيه (منكوتمر) الذي سار على نفس الطريق الذي سار عليه عمـه « بركـة خان » حيث قـاد قواتـه وانطلق لمحـاربة

---

(١) فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص٢٠٩ .

(٢) فايد حماد عاشور : نفس المصدر ص ٨١ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٢٢ .

د . فايد حماد عاشور : العلاقة السياسية بين المماليك والمغول ص ٢١٠ ـ ٢١١ ويعزوه إلى تلفيق الاحبار ص ٤٢٧ .

« ابغـا » بن هولاكـو وأرسل سفـارة إلى السلطان الظاهـر بيبرس سنـة ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) وقد حملت السفارة رسالة تؤكد عزم « منكوتمر » على مواصلة القتال حتى يتم استرداد الأملاك الإسلامية التي استـولى عليها « هـولاكو » وطلب من الظاهر بيبرس مساندته حتى يتم استئصال أُسرة « هولاكو » .

ولقد أرسل الملك المنصور قلاوون سفارة إلى منكوتمر سنة ٦٧٩ هـ الموافق (١٢٨١ م) ولكنها عندما وصلت وجدت أن « منكوتمر » قد توفي وأن اخاه « تدان منكو » قد تربع على الحكم من بعده وقد أرسل هذا سفارة الى مصر تحمل رسالة مكتوبة الخط المغولي تتضمن بأن « تدان منكو بن طوغان بن باطو بن جوجي بن جنكيز خان » قد أسلم ويريد أن ينعت نعتا إسلاميا وأن يجهز له علم من الخليفة ، وعلم من السلطان يقاتل بهما أعداء الدين ، فأجاب السلطان قلاوون طلبه وذلك سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م)[١] .

ومعنى هذا أن الإسلام أصبح في تلك الأصقاع من القوة بحيث دفع الحكام إلى إعلان التبعية للخلافة الإسلامية في القاهرة وتشوقهم لذلك ، كما وأن الشعب هناك أصبح مخلصـاً للإسـلام والشعارات الإسـلامية حتى حـرص الحاكم عـلى الحصول على نعت إسلامي ليجعل شعبه شعباً مطيعاً له متفانيا في الحروب التي يخوضها لأن القاعدة في الإسلام طاعة أُولى الأمر ـ الذين يلتزمون بطاعة الله ـ جزء من طاعة الله . . . ﴿ **اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[٢] .

جهز السلطان قلاوون هدية سنية إلى « تدان منكو » خان المغول القبجاق « القبيلة الذهبية » ، ومبلغ الفي دينار وذلك لتجهيز جامع وتكتب عليه القاب

---

(١) فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٢١١ ويعزوه الى السلوك ح ١ ق ٣ ص ٩٤٢ .

(٢) سورة النساء آية ٥٩ .

السلطان .

تنازل بعد ذلك « تدان منكو » عن الملك وأظهر التزهد والإنقطاع إلى العلماء وتولى بعده ابن اخيه « تلابغا بن منكوتمر » سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) ولكنه اغتيل في عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) بتدبير من « طقطقاى » الذي تولى الحكم[١] . ولكن « طقطقاى » هذا لم يكن مسلما ، وانما كان على دين المغول وكان له ولد مسلم إلا أن ولده المسلم توفي قبل والده وقد توفي « طقطقاى » سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) وتولى الحكم بعده ابن اخيه « ازبك » .

ثالثاً : محمد أُزبك (٧١٣ ـ ٧٤١ هـ ١٣١٣ ـ ١٣٤٠ م)

لقد كان محمد أُزبك متحمساً لنشر الإسلام فقد حذا حذو « بركة خان » في نشر الإسلام في بلاده (فأخلص للإسلام غاية الإخلاص ، وأظهر التدين والتمسك بالشريعة وحافظ على الصلاة)[٢] (أصبح الإسلام ثابت الأركان في عهده يقول عنه ابن بطوطة « . . . . وهذا السلطان عظيم المملكة ، شديد القوة ، كبير الشأن ، رفيع المكان ، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى ، مجتهد في جهادهم ، وبلادهم متسعة ومدنها عظيمة منها التكفار والقرم والماجر وازاق وسرادق (سوادق) وخوارزم وحاضرته (السرا)[٣] وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها . . » [٤] .

وقد كان متحمسا لنشر تعاليم الدين الإسلامي، حريصا على تحويل كثير من

---

(١) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٢١٢ (السلوك ج . ق ٣ ص ٧١٦) .

(٢) دول الإسلام ج ٢ ص ٢٦٩ ، النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٢٦ .

(٣) السرا : تقع على الضفة اليسرى لنهر الفلجا شرق مدينة (ستالينجراد) التي تقع على الضفة اليمنى (أنظر المسلمون تحت السيطرة الشيوعية ص ٥٦ للأستاذ محمود شاكر) .

رحلة ابن بطوطة ص ٣٣١ .

الناس إليه حتى لقد حاول أحد كبار المغول أن يقنعه بترك الحماس للإسلام والعمل إليه والتفاني في اقناع الناس بدخول الإسلام فقال له « اقنع بطاعتنا . وماذا يهمك من ديننا ؟ ولماذا تترك دين جنكيز خان لتعتنق دين العرب ؟ ولكن محمد أُزبك نجح - على الرغم مما لقيته جهوده من مقاومة شديدة في جذب كثيرين ، وتحويلهم إلى هذا الدين الذي كان هو من أشد أتباعه حماسة وصلابة ، وإليه يرجع الفضل في توطيد دعائمه ، وتثبيت اركانه في البلاد التي كانت تحت سلطانه »[١].

ومما يدل أيضا على نفوذ « أُزبك » ما نجده في القبائل الأزبكية في أواسط آسيا ، التي اشتقت اسمها من اسمه والتي لا يستبعد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام في عهده ، ويقال إنه وضع خطة لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاد الروسيا[٢] .

ورغم حماسته لنشر الإسلام إلا أنه كان كثير التسامح مع النصارى حتى لقد سمح لهم بموالاة التبشير لدينهم ونشره في بلاده ، ومن أهم الوثائق التي تسترعي الانتباه عن التسامح الإسلامي ذلك العهد الذي منحه « أُوزبك خان » للمطران بطرس سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) وقد جاء فيه أنه لا يحل لأحد أن يتعرض لكنيسة بطرس ، أو قساوستها ، أو خدامها بسوء ، ولا يعتدي على ممتلكاتها ، وأن من يفعل ذلك آثم جزاؤه القتل ، وأن تكون الكنائس والأديرة والمعابد التابعة له محل احترام وتعظيم »[٣] .

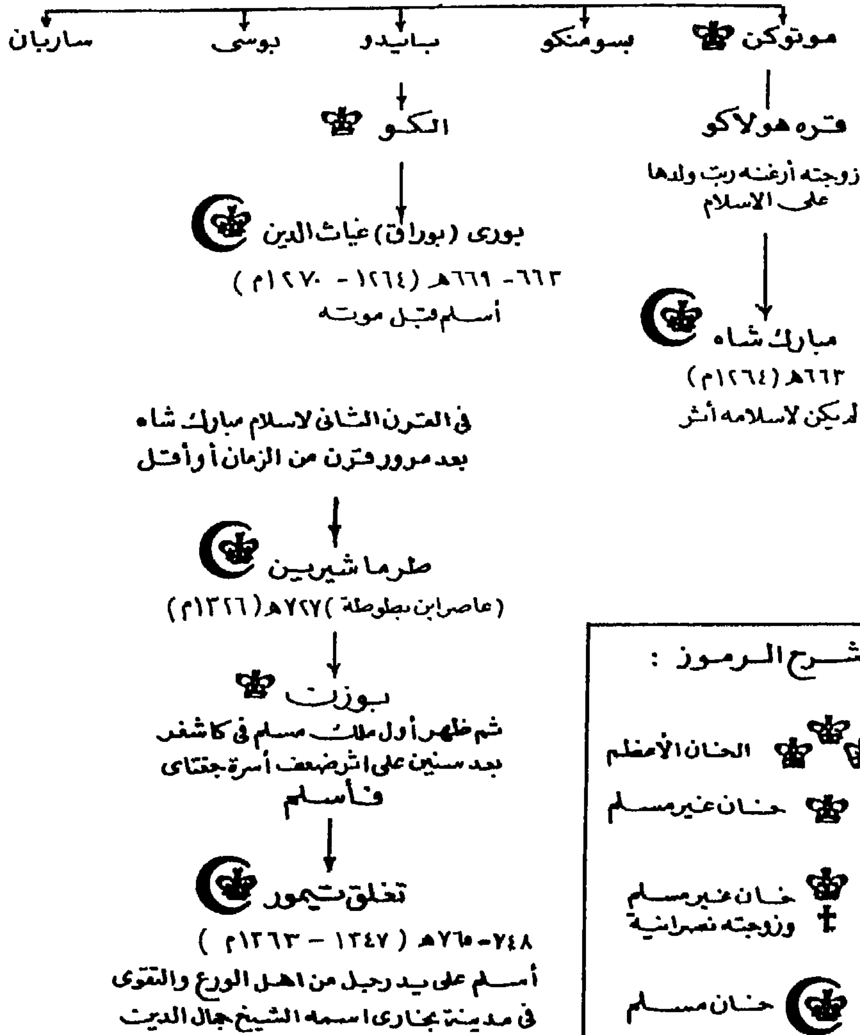
تولى الملك بعد السلطان محمد أُزبك ولده « تين بك » لمدة يسيرة ثم قتل وتولى بعده أخوه « جان بك » وهو خير من أخيه وأفضل[٤] .

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٧١ ويعزوه إلى ابو الغازي ج ٢ ص ١٨٤ .

(٢) ارنولد . الدعوة إلى الإسلام ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٣) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٧٢ .

(٤) رحلة ابن بطوطة ص ٣٣٧ .



الأســرة الجغتائيــة
جغتــاى جنكيزخان
موتوكن
بسومنكو
بـايدو
بوسى
ساربان
قـره هولاكو
زوجته أرغنه ربت ولدها
على الاسلام
الـكـو
بورى (بوراق) غياث الدين
٦٦٣ - ٦٦٩هـ (١٢٦٤ - ١٢٧٠م)
أسلم قبل موته
مبارك شاه
٦٦٣هـ (١٢٦٤م)
لم يكن لاسلامه أثر
فى القرن الثانى لاسلام مبارك شاه
بعد مرور قرن من الزمان أو أقل
طرما شيرين
(عاصر ابن بطوطة) ٧٢٧هـ (١٣٢٦م)
بـوزن
ثم ظهر أول ملك مسلم فى كاشغر
بعد سنين على اثر ضعف أسرة جغتاى
فأسلم
تغلق تيمور
٧٤٨-٧٦٥هـ (١٣٤٧ - ١٣٦٣م)
أسلم على يد رجل من اهل الورع والتقوى
فى مدينة بخارى اسمه الشيخ جمال الدين
شرح الرموز :
الخان الأعظم
خان غير مسلم
خان غير مسلم
وزوجته نصرانية
خان مسلم

المبحث الرابع :
انتشار الإسلام بين المغول الجغتائيين

ينسب مغول هذه الخانية الى « جغتاي بن جنكيز خان » وتشمل اراضي هذه الخانية ـ كما ذكرنا من قبل ـ تركستان ، وكاشفر ، والصاغون ، والشاس ، وفرغانه ، وسائر ما وراء النهر من البلاد (أنظر الخريطة ص ٢١٣) .

إن المعلومات التي وصلت إلينا عن انتشار الإسلام بين أفراد هذه القبيلة قليلة لا تشفي غليل الباحث ، ولو أنه ثابت لدينا أن كثيرا من أعقاب هذه الخانية كانوا يستعينون بوزير مسلم على الرغم من أنهم لم يبدوا أي ميل للإسلام ، وقد سن « جغتاي بن جنكيز خان » قوانين في مملكته سببت إحراجا شديداً للمسلمين ، وضيقت عليهم مباشرة شعائرهم الدينية خاصة فيما يتعلق بذبح الحيوانات والوضوء[١] .

ويذكر الجوزجاني أن « جغتاي » ـ مؤسس هذه الأُسرة ـ كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته ، اللهم إلا إذا أُريد بها التحقير والحط من شأنها[٢] .

تزوج « قرة هولاكو بن موتوكن بن جغتاي » امرأة مسلمة اسمها « أرغانة » وخلفت منه ولداً ربته على الإسلام وعندما تنازع الأمراء المغول في هذه المنطقة على عرش خاقانية « مملكة » « جغتاي » تقدم ولدها وتسلم الملك باسم « مبارك شاه » سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ولكن لم يلبث ابن عمه « براق خان » أن خلعه عن

(١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٥ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

العرش ، ويبدو أن إسلام مبارك لم يترك أي أثر للدعوة الإسلامية حتى ان أولاده لم يكونوا مسلمين[1] . ويقال إن « براق خان » قد ادركته البركة بتلقيه نور العقيدة قبل موته في ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) بأيام قليلة وتسمى باسم السلطان « غياث الدين » إلا أنه دفن وفقا لشريعة المغول ، ولم يدفن على الطريقة الإسلامية ، ويبدو أن الذين أسلموا في عهده ارتدوا إلى وثنيتهم وأن الإسلام لم ينتشر بين أفراد هذه الأسرة إلا في القرن التالي لإسلام « مبارك شاه » وذلك على أثر إسلام « طرماشيرين Tarmasharın » حوالي سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) وقد بقي المغول الذين أسلموا في هذه المرة متمسكين بدينهم . ولكن « بوزن Buzon » ـ الذي طرد « طرماشيرين » عن العرش وأخذ مكانه ـ اضطهد المسلمين[2] .

تغلق تيمور خان (٧٤٨ ـ ٧٦٥ هـ ١٣٤٧ ـ ١٣٦٣ م)

Tiluq Timur Khan

قامت ـ على أثر ضعف أسرة جغتاي ـ مملكة في « كاشغر » استطاعت أن تستقل بحكم تلك البلاد ، ويذكر بعض المؤرخين[3] أن إسلام « تغلق تيمورخان » ملك كاشغر كان على يد رجل من أهل التقوى والورع في مدينة « بخارى » يقال له الشيخ « جمال الدين » تقول القصة : (إن هذا الشيخ وكان معه جماعة من التجار ـ اعتدوا على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر أن توثق أيديهم وأرجلهم وأن يمثلوا بين يديه ، ثم سألهم في غضب ، كيف تجرؤون على دخول هذه الأرض ؟ فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ولا يعلمون أنهم

---

(١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٦ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤١٤ .

(٣) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٦ .

يجوسون أرضاً محرمة ، ولما علم الأمير أنهم من الفرس قال : إن الكلب أغلى ثمنا من أي فارسي . فأجاب الشيخ : نعم ، قد لا نكون أغلى ثمنا من الكلب لو أننا لم ندن بالدين الحق . وراع الأمير ذلك الجواب فأمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا تعني بهذه الكلمات ؟ وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ الإسلام في غيرة وحماسة تفطر لها قلب الأمير حين اكتشف ضلال معتقداته وفسادها وقال : ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم . فلتمهلني قليلا ، فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادي فعد إلي [1] وذلك إن امبراطورية جغتاي انقسمت في ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتي نجح « تغلق تيمور » في توحيد الأمبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضاً شديداً فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح » « تغلق تيمور » يوما ما ملكا عظيماً فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه مني السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي » ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب الى معسكر الخان ـ وكان قد استرد عرش امبراطورية آبائه ـ تنفيذا لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيرا لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة ، ففي ذات يوم أخذ يؤذن في الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان ، وأثار غضبه ، فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه ، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس « تغلق تيمور » وعده ، وقال : « حقا ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر ، والآن فأنت على الرحب والسعة » ، ثم نطق

---

(١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٧ .

بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك اليوم » وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر . . . . ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق ، ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحداً واحداً ويعرض عليهم الإسلام فمن قبله جُوزي الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون ، وعباد الأصنام « وكان أول من عرض عليه منهم الأمير « تولك Tıluq » فقال له الخان : « ألا تدخل في الإسلام ؟ » عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال : « قد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال الدين في « كاشغر » واصبحت مسلما منذ ذلك الحين ، ولكني لم أصرح بذلك خوفا منك » فنهض « تغلق خان » وعانقه ثم جلس ثلاثتهم ، وهكذا عرض الإسلام على سائر الأمراء فقبلوه جميعا إلا واحداً منهم اسمه « جراس Jaras » فقد أبى أن يدخل في هذا الدين ، واقترح عقد إمتحان في القوة الجسمانية بين الشيخ وخادمه « خادم ذلك الشخص الذي أبى الإسلام » وكان ضخم الجثة وقد بلغ من شدة قوته أنه كان يستطيع أن يرفع بيديه جملا ثنيا (ابن حولين) فقبل الشيخ المبارزة وقال لذلك الأمير : « إذا لم أصرعه فلن أطلب إليك أن تدخل في الإسلام ، وإذا قضت إرادة الله أن ينال المغول الشرف ببركة هذا الدين فإنه سوف يهب لي بلا ريب ، قوة أستطيع بها أن أظهر على هذا الرجل » وقد حاول تغلق وغيره من الذين اعتنقوا الإسلام جهدهم أن يصرفوا ذلك الشيخ الورع عن تلك المبارزة ولكنه أصر على ذلك . واحتشد الناس وأتى بذلك الكافر ووقف كل منهما أمام الآخر ، فتقدم الخادم في غير اكتراث اعتزازا بقوته وبدا الشيخ صغيراً ضعيفاً جداً بجانب ذلك الرجل ، ولم يكد يبدأ الصراع بينهما حتى وكز الشيخ الكافر وكزة قوية في صدره فسقط مغشياً عليه ، وبعد قليل عاد الخادم المصارعة ولكنه لم يكد ينهض حتى سقط على أقدام الشيخ وصاح بكلمة الإيمان فاكبر الناس ذلك الانتصار وعلت أصوات الإستحسان من كل مكان ، وفي ذلك اليوم

قص ١٦٠,٠٠٠ رجل شعورهم[1] ودخلوا الإسلام ، وأخذت الدهشة من الخان كل مأخذ . وبدد الإسلام غياهب الكفر » وأصبح الدين الإسلامي دين سكان الحضر في الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء « جغتاي »[2] .

ولكن يبدو أن كثيراً من بدو المغول لم يعتنقوا الدين الإسلامي وبقوا على وثنيتهم حتى بداية القرن الخامس عشر الميلادي وقد استعمل محمد خان أمير مغالستان[3] ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) وسائل عنيفة جداً في سبيل تحويل البدو إلى الإسلام وكان محمد خان أميراً ثرياً حسن الإسلام نهج منهج العدل وسلك سبيل المساواة بين الناس ، ولم يفتر عن بذل هذه الجهود حتى أصبحت معظم القبائل المغولية في عهده المبارك تدين بالإسلام ، وقد عرف الناس هذه الوسائل الشديدة الحرج التي تذرع بها لحمل المغول على الدخول في الإسلام ، مثال ذلك أنه كان إذا لم يلبس أحد المغول عمامة أنفذ في رأسه مسمارا من المسامير التي تستعمل في تركيب حذوة الحصان ، وذاع استعمال هذا النوع من الوسائل الشديدة . جزاه الله خيرا[4] .

وقد تصح هذه الحادثة أو تكون من المبالغات التي تشاع بين الناس ، وتصاحب التحولات الكبرى خاصة بين هذه الشعوب الوثنية البدائية الغليظة ، ولكنها على كل تدل على أنه كان من الضروري استعمال بعض الوسائل العنيفة المناسبة لطبائع القوم في ذلك الوقت . وان لم تصل الى هذا الحد الغليظ الذي جاء

(١) كانت عادة المغول إرسال شعورهم وكان قص الشعر رمزا للتحول عن دين المغول .

(٢) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ نقلا عن ابي الغازي ص ١٦٦ ـ ١٦٨ (محمد حيدر ص ١٣ ـ ١٥) .

(٣) لما انحلت قوة خانات جغتاي غدا جزء من القسم الشرقي من مملكتهم مستقلاً استقلالاً عملياً تحت اسم (مغالستان) وهي مملكة زراعية تلائم عادات رعاة البدو وتسمى الآن تركستان الصينية (ارنلد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٨) .

(٤) المصدر السابق ص ٢٦٩ويعزوه الى محمد حيدر ص ٥٧ ـ ٥٨ .

في الخبر السابق .

ومن هذا العرض الموجز نستطيع أن نقول إن المغول الجغتائيين أصبحوا مسلمين ، أو على الأقل أولئك الذين كانوا يسكنون الحضر منهم ، وبدأوا يتحملون تبعات الدعوة الإسلامية بين الشعوب المجاورة ، سواء كانوا من بدو المغول أو من غيرهم .

المبحث الخامس :
الملوك الذين أسلموا من مغول إيران وما قدموه للإسلام

أولاً : أحمد تكودار (٦٨١ - ٦٨٣ هـ ١٢٨٢ - ١٢٨٤ م) :

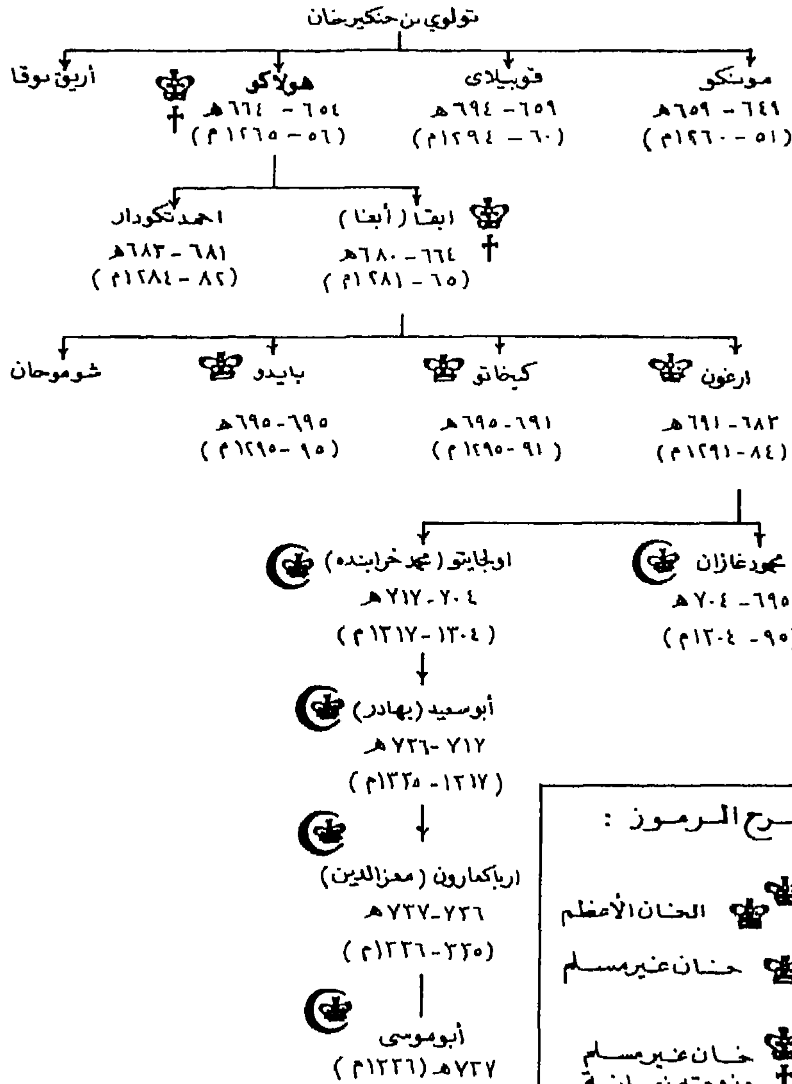
أعلن « تكودار بن هولاكو » اعتناقه للإسلام وسمى نفسه بـ « أحمد تكودار » رغم كل المغريات ، وحمل على عاتقه نشر هذه الدعوة بين بني جنسه ، والمسلمون المسحوقون في هذه البلاد لا حول لهم ولا طول ، ولا سيوف في أيديهم ولا رماح ترغم بها الناس أو ملوكهم على اعتناق الإسلام والإنخراط في سلك الدعوة الإسلامية . إنها إرادة الله التي تعهدت بحماية هذا الدين والحفاظ عليه ، **﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾**[1] .

وقد حاول « أحمد تكودار » أن يدخل مغول إيران في الإسلام ، واتبع طريق الشدة والعنف أولاً ، ثم التحريض والملاينة بعد ذلك ، وكان من أثر عمله هذا أن اعتنق عدد كبير من رعيته المغولية الإسلام[2] .

---

(١) سورة الحجر آية ٩ .

(٢) الدكتور مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ١٢ .



الأسرة الأيلخانية - أيلخانات فارس
تولوي بن جنكيزخان
مونكو
٦٤١ - ٦٥٩هـ
(٥١ - ١٢٦٠م)
قوبيلاي
٦٥٩ - ٦٩٤هـ
(٦٠ - ١٢٩٤م)
هولاكو
٦٥٤ - ٦٦٤هـ
(٥٦ - ١٢٦٥م)
أريق بوقا
ابقا (أبغا)
٦٦٤ - ٦٨٠هـ
(٦٥ - ١٢٨١م)
احمد تكودار
٦٨١ - ٦٨٣هـ
(٨٢ - ١٢٨٤م)
ارغون
٦٨٣ - ٦٩١هـ
(٨٤ - ١٢٩١م)
كيخاتو
٦٩١ - ٦٩٥هـ
(٩١ - ١٢٩٥م)
بايدو
٦٩٥ - ٦٩٥هـ
(٩٥ - ١٢٩٥م)
شوموجان
محمود غازان
٦٩٥ - ٧٠٤هـ
(٩٥ - ١٣٠٤م)
اولجايتو (محمد خرابنده)
٧٠٤ - ٧١٧هـ
(١٣٠٤ - ١٣١٧م)
أبوسعيد (بهادر)
٧١٧ - ٧٣٦هـ
(١٣١٧ - ١٣٣٥م)
ارباكماوون (معز الدين)
٧٣٦ - ٧٣٧هـ
(٣٣٥ - ١٣٣٦م)
أبوموسى
٧٣٧هـ (١٣٣٦م)
شرح الرموز :
الخان الأعظم
خان غير مسلم
خان غير مسلم وزوجته نصرانية
خان مسلم

ثم قام « تكودار أحمد » بإرسال كتاب إلى سلطان مصر يتجلى فيه حرصه على الإسلام والمسلمين ، وعلى تعريف إخوانه المسلمين في مصر بأنه دخل الإسلام ، وأصبح بذلك أخاً لهم . يقول في كتابه « إلى سلطان مصر أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته ﴿ فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾[1] ، فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أُمور المسلمين[2] .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

(٢) وهذا نص الرسالة : (بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى بإقبال قا آن ، فرمان أحمد إلى سلطان مصر .

أما بعد : فان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته، ونور هدايته قد كان ارشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الاقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه افضل الصلوات والسلام بصدق نبوءته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ . فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضى بعد أبينا الجيد وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا ، وأفاض علينا من جلابيب الطافه ولطائفه ما حقق به آمالنا في جزيل الائه ، وعوارفه وجلا هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قوريلتاي (مجلس السلطنة الذي يختار الحكام ويفصل في معضلات الأمور) المبارك - وهو المجمع الذي ينقدح في الآراء - جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنفاذ الحم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض رعبا لعظيم صولتها ، وشديد بطشهم الى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزيمة تلين لها صم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمها عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه فوجدناه مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام الذي هو عبارة عن تقوية شعائر الإسلام وألا يصدر عن أوامرنا - ما أمكننا - إلا يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى اطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن الثائرة ، واعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه : من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما

ويمضي فيخبر سلطان مصر بنية إخوانه وأولاده والأمراء والكبراء برغبتهم في القتال ، وبأنهم يحثونه على ذلك معتمدين على أعداد جيوشهم الكبيرة وعلى

يجب أن يكون آخر الدواء . وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنصال إلا بعد ايضاح المحجة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح اذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ، فأصدرناه ، رحمة من الله لمن دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفاهم طريقنا ، ويتحقق ما تطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أننا من الله على بصيرة ؛ وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق وأهله ، ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بما دعانا إليه : من تقديم أسباب الإحسان ، ولا يحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال ، فكل يوم هو في شأن ، فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، لينظروا إلى ما ظهر من مآثرنا ، ما اشتهر خبره وعم أثره ، فإننا ابتدأنا ـ بتوفيق الله تعالى ـ بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في ايراد كل أمر وإصداره تقديما ـ وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً وأدخلنا السرور على قلب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف وقابلناه بالصفح وقلنا : عفا الله عما سلف . وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها ، ومنعنا ان يلتمس شيء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد مما قرر أولا فيها . وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها وتأمين سبلها وتيسير قوافلها . وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسن اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحرمنا على العساكر والقواغول (كلمة مغولية معناها حراس الطرق) والشحاني (جمع شحنة) في الأطراف التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم . وقد كان صادف قراغولنا جاسوسا في زي الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك ، فلم يهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى ، وأعدناه إليهم ، ولا يخفى عليهم ما كان في انفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم في تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بها ما فعلوا . وارتفعت الحاجة ، بحمد الله تعالى إلى ذلك بما صدر اذننا به من فتح الطريق وتردد التجار عليهم ، فإذا امعنوا الفكر في هذه الأمور ، وأمثالها لا يخفى عليهم أنها أخلاق جبليّة طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عرية ، وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة المخالفة ، فإنها كانت بطريق الدين والذب عن حوزة المسلمين . فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب ،

شجاعتهم النادرة فيقول : « فاجتمع عندنا « القوريلتـاي » وهو المجتمـع الذي تقدح فيه الآراء ـ جميع الإخوان والأولاد والأمراء والكبراء ، ومقدمو العساكر ، وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في انفاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها وشديد بطشها إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها صم الأطواد وعزمة تلين لها الصم الصلاد » .

ولكن دينه الجديد يمنعه من قتال إخوانه وسفك دماء الأبرياء ويجعله حريضا أشد الحرص على الحق ونصرته واقتفاء الخير الذي يعم الجميع ويشرحه بأنه عبارة عن تقوية شعار الإسلام مستعينا بالفقهاء والعلماء الذين يثق بدينهم فيقوي عزمه بهم فيقول : « ففكرنا فيها تمخضت زبد عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه

فمن تحرى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب وقد رفعنا الحجاب واتيابفصل الخطاب ، وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها نرضي بها الله والرسول وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول . وتستريح من احتلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلي بنور الائتلاف ظلمة الإحتلاف والغمة . فتسكن في سابع طلها البوادي والحواضر وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر ، ويعفي عن سالف الهنات والجرائر فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم وانتظام أمور بني آدم فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والإتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الباترة وتحل الكافة أرض الهويني وروض الهدون (السلم والطمأنينة) وتخلص رقاب المسلمين من أعلال الذل والهون ، وإن أغلب سوء الظن بما تفضل به واجب الرحمة ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عدرنا ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد وحسبنا الله وحده . كتب في أواسط جمادى الأولى سنة احدى وثمانين وستمائة (بمقام الاطاق) (معسكره) .

أنظر : المقريزي ـ السلوك ـ ج ١ ق ٣ ص ٩٧٧ .

أنظر : القلقشندي ـ صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ ـ ٦٨ .

أنظر : الدكتور محمد ماهر حماده وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ٣٦٩ ـ ٣٧٣ .

فوجدناه مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى اطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن الثائرة ، واعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال ، إلا بعد ايضاح المحجة ولا نأذن لها إلا بعد تبين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبدالرحمن) الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ، فأصدرناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه »[1] .

ثم يرسل هذا الكتاب مع أُناس فقهاء وقضاة مشهورين ليكونوا شاهدين على حسن إسلامه ، وليطيبوا نفوس المسلمين من آثار الجرائم التي كان قد ارتكبها أسلافه معتمدين على أن الإسلام يجب ما قبله .

ثم يحاول أن يبين الأدلة التي تجعل المسلمين يحسنون الظن في دينه وحسن إسلامه وأنه عمر المساجد وأصلح أُمور الأوقاف .

ثم يذكر الجواسيس الذين كانوا يلبسون زي الفقراء أو يظهرون بمظهر الزهاد والنساك ، ويذكر أن مصيرهم كان القتل قبل أن يتولى الحكم أما هو فقد أمر بالعفو عن أحدهم ، ويؤكد أن ذلك العمل جلب الشك والريبة على عباد الله

(١) المقريزي ـ السلوك ـ ج ١ ق ٣ ص ٩٧٧ .
القلقشندي ـ صبح الأعشى ٨ ص ٦٥ ـ ٦٨ .

المخلصين ، وسبب الضرر للمسلمين ، وأضاف أنه إذا كان ذلك العمل ضروريا لحماية المسلمين والاستعداد للدفاع عنهم ، فقدزال السبب الذي دعا اليه بدخول « أحمد تكودار » الإسلام .

وبعد ذلك يدعو إلى المهادنة والسلام حتى يستريح المسلمون بعد العناء الطويل والمعاناة ، بل ويلتمس محالفة سلطان مصر .

ويؤكد أخيرا أنه إنما قصد بتلك الرسالة المعذرة إلى الله فإن صدقها سلطان مصر فقد انتفع المسلمون ، وإن أساء الظن فيه فإن الله سبحانه سيجزيه خيرا وسيجد له العذر إذا رفضت مقترحاته فيقول : ﴿ وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واجب الرحمة ، ومنع عنه معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[1] [2] .

وقد علق المؤرخ البريطاني « أرنولد » على هذه الوثيقة قائلا :

« وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع ، وما سفكوه من الدماء ، إلى أسمى عواطف الإنسانية ، وحب الخير التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها « تكودار أحمد » إلى سلطان المماليك في مصر والتي يدهش الإنسان لصدورها من ذلك المغولي »[3] .

ولكننا لا ندهش من ذلك ، فإن الإسلام هو دين الله ، ودين الحق والفطرة السليمة ، وهو الذي حول أجلاف البادية العربية وغيرها إلى أئمة حق ودعاة

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٥ .

(٢) المقريزي :السلوك ح ١ ق ٣ ص ٩٧٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ ـ ٦٨ .

(٣) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٣ .

صدق ، ورجال دعوة ، أنضاء[1] عبادة ، وأطلاح[2] سهر يبكون من خشية الله تعالى .

أعداء الإسلام يثيرون الفتن :

ولكن أعداء الدعوة الإسلامية ، الذين هالهم أن تضيع مجهوداتهم الضخمة هباء منثورا ، عندما رأوا الإسلام يقف قوة هائلة في قلوب الذين بنوا عليهم الآمال الكبار أن يحطموه ويقضوا عليه . بدأوا يخططون من جديد لإثارة الفتنة ، ولإشعال نار الحرب مرة أُخرى فأثاروا على تكودار عدداً من الأُمراء وذهبوا إلى « قوبيلاي » ـ الخان الأكبر للمغول ـ يشكونه إليه متهمينه بمخالفة دين آبائه وأجداده ، ثم تزعم ابن أخيه « أرغون » ثورة ضده انتهت بقتل « أحمد تكودار » واستيلاء « أرغون » على العرش وبهذا استرد النصارى مكانتهم من جديد ، ولقد لقي المسلمون الإضطهاد « فصرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها ، القضاء ، والمالية ، وحرم عليهم « أرغون » الظهور في بلاطه وبذل « بايدو » جهده في وضع العقبات في طريق الدعوة الإسلامية بين المغول فحرم على أي شخص أن يدعو لذلك الدين ، أو ينشر عقائده بينهم »[3] .

ورغم ذلك فإن انتصار أعداء الدعوة الإسلامية ، لم يكن حاسما في بلاد فارس ، فإنه لم يكن في وسع « كيخاتو » و « بايدو » إلا أن يداروا الإسلام ويحاولوا أن يخفوا حقيقة نواياهم ، وميولهم نحو النصرانية عن المسلمين ، ويؤيد صحة هذا القول أن « كيخاتو » أعفى العلماء المسلمين ، وآل البيت من دفع جميع الضرائب

---

(١) انضاء : جمع نضو وهو الهزيل من كثرة العبادة (المعجم الوسيط ص ٩٢٨) .

(٢) اطلاح : جمع طليح وهو المهزول والمجهود من طول السهر (المعجم الوسيط ص ٥٦٧) .

(٣) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٣ .

على اختلافها[1] بالرغم من أن خلفاء « أحمد تكودار » وهم « أرغون » « وكيخاتو » و « بايدو » كانوا أعوانا للنصارى ويعطفون عليهم حتى أن « بايدو » كان يكثر من الإجتماع بـ « دسبينا » ـ زوجة أباقا سلف تكودار وابنة « ميشيل باليولـوغوس » الإمبراطور البيزنطي ـ ويقال أن « بايدو » كان يعلق صليبا فخما في عنقه ، وأنه سمح للنصارى بأن تكون لهم كنائس ، وأن يدقوا أجراسهم في معسكره[2] بالرغم من ذلك كله فإن الدعوة الإسلامية سارت في طريقها بخطوات حثيثة ، وكثر عدد المسلمين بين المغول أضف الى ذلك أن « بايدو » الذي كان يعلق صليبا في عنقه لم يتنصّر ولم يكن يجسر على إظهار عداوته للمسلمين ، وكان يحاول مراضاتهم ولذلك نجده يرسل ابنه ليصلي معهم كما يصلون .

على كل حال فإن المؤرخين قد أجمعوا على هذه الحقيقة الهامة وهي أن كثيرين من المغول في عهد « بايدو » اعتنقوا الإسلام وأصبحوا يؤدون فروضه[3]

ثانياً : محمود غازان (٦٩٥ ـ ٧٠٤ هـ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٣ م) :

كان « غازان » بوذياً قبل أن يعتنق الإسلام ، وقد بنى للبوذيين معابد عديدة في خراسان ، وكان يسره أن يصاحب الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا إلى بلاد فارس في جماعات كثيرة منذ بسط المغول سلطانهم في تلك البلاد[4] .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٢٠ ـ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٥٤٦ .
(٢) دكتور مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ١١ .
(٣) نفس المصدر ص ١٤ (نقلا عن تاريخ وصاف ج ٣ ص ٣١٤) .
(٤) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٣ .

وقد جاء اعتناق « غازان » للإسلام عن طريق قائده « نوروز »[1] الذي ألح عليه كثيراً وقد هداه الله للإسلام بعد أن سلك معه قائده خطوات أربعة :

أولاً : اشترط « نوروز » على « غازان » أن يعده باعتناق الإسلام إذا أراد منه الإخلاص له ، فوعده « غازان » بذلك .

ثانيا : عندما سار مع « غازان » إلى مدينة (سلطان دوين) ، ووصل الخبر بأن « بايدو » قد خرج على كيخاتو (أنظر اسرة جنكيز خان وخلفائه صفحة ٢١١) واجتمع القواد في « سلطان دوين » للتشاور فيما يجب أن يتخذوه من الإجراءات للثأر من « بايدو » عند ذلك وعد « نوروز » « غازان » بمساعدته ، واشترط عليه أن يعتنق الإسلام ، وفد قال « نوروز » « لغازان » :ـ « إن أملي كله ينحصر في أن أُجلس ـ بمشيئة الله ـ الأمير خادم السماء على عرش العالم ، وأن أرفع « بايدو » الكافر عن هذا العرش ويشترط لذلك أن يتقلد الملك قلادة الإسلام ، فقد قال بعض الحكماء : « الدين والملك توأمان ، والدين هو الأصل ، والملك حارس له وما لا أصل له مهدوم ، وما لا حارس له ضائع »[2] .

ثالثا : عندما اجتمع « غازان » بمنافسه « بايدو » واتفق معه على اقتسام أملاك الدولة بينهما ، ورغم اجتماع قواد « غازان » في « قربان شيره » ليظهروا ولاءهم له ، فقد انتاب القلق « غازان » لحضور جيوش « بايدو » وعزم على الفرار ، والعودة إلى خراسان . عند ذلك طلب « نوروز » من

---

(١) نورور : كان أحد قادة « غازان » المسلمين ، عرض عليه الإسلام ورغبّة فيه حتى لقد أجمع المؤرخون على أنه سبب اعتناق غازان للإسلام .

(مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ١٤)

(٢) الدكتور مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ١٤ .

« غازان » اعتناق الإسلام وقال له : « إنه إذا فعل ذلك اجتذب قلوب المسلمين نحوه » وقد وعده « غازان » باعتناق الإسلام حالما يتغلب على خصمه » وعند ذلك أهداه « نوروز » ياقوتة عظيمة زنتها عشرة مثاقيل ، ورجاه أن يحتفظ بها تذكارا للوعد الذي أعطاه له [1].

رابعا : وقد استغل « نوروز » جميع الوسائل المادية والمعنوية لجعل « غازان » يعتنق الإسلام فبعد أن أطلق « بايدو » سراحه حضر مجلسا « لغازان » فقال له : « إن الفلكيين والمتنبئين والعرافين أعلنوا أنه سيظهر حوالي سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ملك يحمي الإسلام ويعيد له مجده الغابر ، ويسعد أهله ، ويتمتع بالعرش سنوات عديدة ، وقد اعتقدت دائما يا مولاى أنك أنت المشار إليه في هذه النبوءة ، فإذا اعتنقت الإسلام صرت سيد إيران ، وأصبح المسلمون ـ وقد رفعتهم من حالة الذل التي يئنون فيها تحت نير « التتار » الوطنيين ـ وقد كرسوا حياتهم لمصلحتك ، وبارك الله في أسلحتك وهو جل شأنه يعلم أنك ستنقذ الدين الحق من دمار شامل »[2].

فأحضر « غازان » الياقوته التي كان يحتفظ بها وأعلن اعتناقه للإسلام وكان ذلك في اليوم الرابع من شعبان سنة ٦٩٤ هـ (١٩ يونيه ١٢٩٥ م) ولا يهمنا كثيرا من الذي لقنه عبارات التشهد ، ولكن يهمنا أن نعرف أن جميع الأُمراء والقادة والجنود ـ الذين حضروا الاحتفال بإعلان إسلامه ـ قد أسلموا وتقول بعض المصادر التاريخية أن عددهم بلغ مائة ألف[3] وقد وزع بهذه المناسبة كثيرا من

---

(١) نفس المصدر ص ١٥ .

(٢) دكتور مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ١٥ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩ (ويعزوه الى حبيب السير م ٣ ج ١ ص ٨٣)

العطايا على المشايخ والسادات ، ثم توجه إلى الله بالدعاء بأن ينصره على أعدائه ، وأرسل نبأ إسلامه إلى العراق ، وخراسان وصام شهر رمضان كله في ذلك العام .

و(حاول بعض المؤرخين والفقهاء وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيميه التشكيك في إسلام « غازان » فقال بعضهم إنـه كان ينشـد مصلحته السيـاسية الخاصة بالحصول على مساعدة المسلمين له ضد عدوه « بايدو » ورغب في الإستجابة لتوسلات قائده ، ويعتمد الفقهاء في تشكيكهم ذلك على الحادثة التي تقول بأنه هم بالارتداد عن الإسلام عندما علم بأن الإسلام يحرم الزواج بمن تزوج الأب بهن من النساء ، وأن احدى زوجات أبيه كانت محببة إلى نفسه وقد سر كثيرا عندما أفتاه أحدهم بأن والده كان كافرا ، وأن زواجه بتلك المرأة كان سفاحاً ، وأجاز له بأن يعقد عليها ويبقى على إسلامه ، كما ويستدلون على زيف إسلامه بضراوة الحرب التي شنها على المسلمين في بلاد الشام ، إلا أنه حتى ليقوم بتلك الحرب اضطر الى الحصول على « فتوى » لتبريرها وفي ذلك يقول الشيخ تقي الدين بن تيميـه انه اجتمع بأحد التتار الأتقياء وسأله عن السبب في خروجه لقتال المسلمين ؟ فقال له : « أفتانا شيخنا بتخريب الشام وأخذ أموالهم لأنهم ما يصلون إلا بأجره ، ولا يؤذنون إلا بالأجرة ، ولا ينفقون إلا بالأجرة ، وقال لنا إذا فعلتم ذلك بهم يرجعون إلى الله ويتوكلون عليه[1] .

وقد تصدى المؤرخ رشيد الدين للدفاع عن صحة إسـلام « غازان » وأتى بأدلة قوية تؤكد حسن إسلامه ، وربما كان قد حسن إسلامه بعد أن تمكنت الدعوة من قلبه ، وأن جهله بقواعد الإسلام أول الأمر هو الذي جعله يتصرف تصرفات بعيدة عن الإسلام .

---

(١) د . مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٤٦ .

والذي يهمنا في هذا الموقف أثر إسلام « غازان » على الدعوة الإسلامية فقد تبين لنا أن إسلام « غازان » حقق للإسلام الأمور التالية :ـ

أولاً : أصبح الإسلام دين الدولة الرسمي ، وبهذا زال الحاجز الذي كان يحول بين الحكام والمحكومين ، وبدأ الحكام يعطفون على رعاياهم ويعملون على إرضائهم وحسن معاملتهم كما وأنهم أزالوا جميع العقبات التي كان يضعها الخانات الوثنيون السابقون أمام الدعوة الإسلامية ، وقد تقدمت العلوم الإسلامية في عهد «غازان» وكثر إنشاء المدارس الإسلامية ويكفي للدلالة على مدى تقدم العلوم الدينية الإسلامية أن نقول إن وزير « غازان » المشهور « رشيد الدين » ألف مؤلفات دينية كثيرة منها أربعة مؤلفات قيمة توجد في مجلد واحد يعرف بأسم « المجموعة الرشيدية »[1] .

وقد أصدر « غازان » مرسوما ـ في بداية عهده ـ متأثرا « بنوروز » أمر فيه المغول والأويغور باعتناق الإسلام ، والانقياد للشريعة الإسلامية وكان لهذا المنشور أثره في اعتناق المغول الإسلام ، وحذوا حذو « غازان » فبنيت المساجد بكثرة في المدن والقرى، وزادت الأوقاف الإسلامية كما واصبح اسم الله يذكر في مفتتح الأوراق الرسمية[2] .

وقد زاد عدد المساجد في عهد « غازان » لأنه أيضا حول عدداً من الكنائس والبيع والمعابد البوذية إلى مساجد إسلاميه ، كما أمر ببناء المساجد والحمامات في القرى المنتشرة في امبراطوريته ، عندما علم أنه لم يكن يوجد بها مساجد أو حمامات وأن الناس كانوا لا يستطيعون أن يتعبدوا كما يجب ، أو يؤدوا أحكام الوضوء ، وقد نُفذ أمره هذا في مدى سنتين

---

(١) د . مصطفي طه بدر : مغول ابران بين المسيحية والإسلام ص ٤٨

(٢) د . مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحيه والإسلام ص ٤٦ .

وأصبحت أجور الحمامات تخصص للصرف على المساجد[1] .

ثانيا : أصبح قادة الجيش ، والوزراء والأعوان والقضاة من المسلمين واختفى القساوسة النصارى ، والكهنة البوذيون من البلاط الملكي تقريباً ، وارتاح المسلمون من مؤامراتهم ودسائسهم .

ثالثا : حارب « غازان » المظالم التي كان يقوم بها بعض أعوان الخاصة الملكية ضد أفراد الشعب ، كتلك الاعتداءات التي كان يقوم بها ضباط الصيد الذين كانوا يقيمون في بلاط الايلخانات للمحافظة على طيور الصيد ، كذلك خلص الناس من مظالم سائقي البغال ، والجمال الذين كانوا يستولون على أموالهم وحاجياتهم[2] .

رابعا :: حارب « غازان » الخمر والذين يشربونها ، فقد اتخذ في هذا السبيل وسائل عملية فأمر أن يقبضوا على كل شخص يجدونه في حالة سكر ويربطوه إلى شجرة في الطريق حتى يتعرض لإهانات المارة وتأنيبهم عقاباً له وردعاً لأمثاله .

خامسا: حارب الربا ، فقد أصدر مرسوماً يحرم فيه على أي مخلوق أن يأخذ أو يعطي فيها بعد نقودا بفائدة ، ويهدد كل شخص يخالف الشرع الشريف ، والأمر الايلخاني (الملكي) بالعقاب .

سادسا: حارب البغاء ، وعالج مشكلته من أساسها فحرم بيع البنات ـ الذي كان قد انتشر قليلا في عهد المغول ـ وحرم اجبارهن على مزاولة هذه المهنة .

سابعا : حارب الفاظ الكفر فقد أصدر الأوامر بألا يتكلم الناس الاحاديث التي

(١) مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والإسلام ص ٤٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٤١ (ويعزوه الى حبيب السير م ٣ ج ١ ص ١٠٤) .

منشوءها التيه والكبر ، وأن ينسبوا الخير فيما يأتونه الى فضل الله سبحانه وتعالى ، وأن يعلموا أن كل شر ينزل بهم ما هو إلا نتيجة أخطائهم وسوء تصرفاتهم ، وأمر بأن ترسل تلك الأوامر مكتوبة إلى جميع الولايات ليعلمها الناس ويعملوا بمقتضاها[1] .

وقد وزع الصدقات في عهده بسخاء عظيم ، وخصص اعتمادات مالية كبيرة لشئون الحج الى مكة ، واصدر سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) مرسوماً فرض فيه للسادة والأئمة وخدام الكعبة حقوقهم ، وعين أحد الأمراء قائدا عاماً لقوافل الحج ، وسير حرسا مؤلفاً من ألف فارس بضباطهم للمحافظة عل الحجاج وأرسل كساء للكعبة ، وخصص لمشايخ العرب في مكة والمدينة مبلغ اثنى عشر تومانا من الذهب[2] .

من العرض السابق يتبين لنا مدى الخدمات الجليلة التي قدمت للإسلام والمسلمين في هذا الجزء من العالم الإسلامي في عهد « غازان » وأنه رغم ما أُثير حول إسلامه من شبهات ـ قد خدم الدعوة الإسلامية خدمة عظيمة لم يسبقه لها أحد من ملوك المغول السابقين في إيران من الإيلخانيين .

ثالثا : محمد خدابنده (أولجايتو) (٧٠٤ ـ ٧١٧ هـ ١٣٠٤ ـ ١٣١٧ م)

كان « اولجايتو » خدابنده ـ ثامن ايلخانات فارس ـ قد عمدته أُمه مسيحيا ولكنه أَسلم عندما كبر بتأثير احدى زوجاته وتسمى بـ « محمد خدابنده » ، واتخذ له

(١) د . مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٤٤ (ويعزوه الى حبيب السيرم ٣ ج ١ ص ٩٤ ـ ٩٦) .

(٢) نفس المصدر ص ٤٨ .

لقبا إسلاميا « غياث الدين والدنيا » ولِيَ الحكم بعد موت أَخيه « محمود غازان » وكان هواه مع الشيعة أَول الأَمر ، وحاول ارغام أصحاب المذاهب الأُخرى على السير على المذهب الشيعي ، فحدثت قصة غريبة مع القاضي مجد الدين[1] ترك على أثرها لأصحاب المذاهب الأخرى حرية السير على مذاهبهم ، ثم إنه اتبع مذهب أهل السنة ، وحاول بعد ذلك أن ينشر في بلاده مذهب الإمام الشافعي بدل مذهب الإمام أبي حنيفة ، ولكنه عاد فصمم على اتباع مذهب الشيعة اثر زيارته لقبر الإمام علي رضي الله عنه كما تدل على ذلك إحدى مسكوكاته[2] .

وكان محمد خدابنده رجلا فاضلا حر الرأي وقد عنى بمرصد مراغه ، كما شجع الحركة الأدبية والتاريخية التي قام بها الوزير « رشيد الدين » والمؤرخ « وصاف الحضره » وسار على نهج أَخيه « غازان »[3] .

ثم خلفه بعد ذلك ولده السلطان « أبو سعيد » الذي سار على نهج والده ، وبقي الإسلام دين الدولة عزيز الجانب .

وبهذا أصبح المغول في بلاد الفرس يدينون بالإسلام ويحملون لواءه ويبلِّغون رسالته في تركستان ، وسيبريا ، وجنوب روسيا والصين والهند[3] .

---

(١) يقول ابن بطوطه في كتابه المشهور « رحلة ابن بطوطة » : بأن السلطان أمر بأن تكون صلاة الجمعة على طريقة الروافض فرفض الناس ذلك والتزم القضاة طريق أهل السنة في الخطبة متحدين الملك وأوامره ، فارسل اليهم فكان القاضي « مجد الدين » قاضي شيراز أول من وصل فأمر به أن يلقى للكلاب المفترسة وعندما فعلوا ذلك وقفت الكلاب أمامه وأخذت تبصبص اليه وتحرك أذنابها ولم تؤذه فبلغ السلطان فذهب اليه حافي القدمين وقبل قدمي القاضي وأكرمه. وخلع عليه ثم رجع السلطان عن مذهب الروافض .

(٢) (٣) دائرة المعارف الإسلامية م ٢ حرف الجيم ص٥١١ .

(٣) المسلمون في تركستان الشرقية ، والغربية ، تحت السيطرة الشيوعية محمود شاكر .

الفصل الثالث [1]
المغول يحملون الإسلام لمن حولهم

المبحث الأول : حملهم للدعوة في أوروبا وسيبيريا

أولاً : حملهم للدعوة في جنوب روسيا :

قامت معارك دامية بين المغول وبين الروس احتل المغول على أثرها أجزاء كبيرة من جنوب روسيا واستوطنوها ، وقد فرض المغول الجزية على بعض الإمارات الروسية ـ وعلى رأسها إمارة موسكو نفسها ـ ثم تمكن الروس فيما بعد من هزيمة المغول ، واحتلوا البلاد التي استوطنوها وبدأوا يطردون ، المغول ويحلون الروس الاورثوذكس مكانهم ، فأخذ هؤلاء المطرودون ينشرون الإسلام بين القبائل الوثنية التي كانوا يمرون بها ، مما أثار حفيظة الروس عليهم ، فقرروا وقف تهجيرهم وإرغامهم على اعتناق المذهب الاوثوذكسي ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل فقد كان هؤلاء المغول يعودون إلى الإسلام وبشكل قوي وإخلاص شديد بمجرد التوقف عن اضطهادهم[2] ويرجع فشل الروس في تحويلهم إلى النصرانية إلى إخلاص

---

(١) بعد ان انتهت الفترة الزمنية المحددة لهذا البحث وجدت من الضروري أن أشير ـ ولو بشكل موجز ـ إلى بعض الأعمال التي قام بها المغول من حمل للدعوة الإسلامية إلى الشعوب الأخرى ، وتمسك شديد بالإسلام رغم ما واجهوا في سبيل ذلك من صعاب اعتقادا مني بأن البحث لا يكمل إلا بهذا الفصل الموجز .

(٢) محمود شاكر : المسلمون تحت الحكم الشيوعي ص ٦٦ ـ ٧٠ .

القبائل المغولية للإسلام وعلى العكس من ذلك فقد لاحظت الحكومة الروسية بأنهم أخذوا ينشرون الإسلام بين النصارى الأورثوذكس أنفسهم . مما اضطر الحكومة الروسية إلى إصدار أمر بمعاقبة كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل نصراني إلى الإسلام ، وذلك بتجريده من الحقوق المدنية ، وبحبسه ثماني سنوات مع الأشغال الشاقة ، ورغم ذلك فإن نشاط القبائل المغولية في الدعوة إلى الإسلام لم يتوقف فنجحوا في جذب قرى بأسرها إلى الدين الإسلامي - خاصة القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي من البلاد[1] .

وقد لوحظ أن جميع الأفراد - حتى السُّذَّج والأُميين - من القبائل المغولية كانوا يقومون بالدعوة إلى الإسلام ، ذلك لأن المسلم مكلف بتبليغ الدعوة إلى الآخرين في حدود ما يعلم ، كما لوحظ أن الذين كانوا يمتهنون حياكة الثياب من الروس الأورثوذكس ويدخلون القرى الإسلامية ليباشروا صنعتهم كان يتعرض لهم دعاة الإسلام ويقنعونهم به ، وعند عودتهم يحملون الإسلام معهم إلى ذويهم وأقاربهم في القرى النصرانية[2] .

ويرجع نجاح المسلمين في الدعوة الإسلامية إلى عوامل عدة ذكرناها في الباب السابق - أساليب ووسائل الدعوة الإسلامية[3] - أضف إلى ذلك ما امتاز به دعاة الإسلام من خلق رفيع ، وشعور التآخي الذي يُبديه المسلمون نحو إخوانهم ممن يدخلون في الإسلام ، وإقبال المسلمين على الإنفاق بسخاء في سبيل الله ، ولبناء المساجد التي اتخذت منارات لهداية البشر - كل ذلك جذب أفواجا كثيرة من القبائل التي كانت تسكن تلك المناطق من العالم إلى هذا الدين العظيم ، هذا في الوقت الذي لم تتوفر هذه الإمتيازات في دعاة التنصر ، فقد كانوا ذوى أخلاق

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨١ .

(٣) راجع ص ١٤٩ - ١٧٥ من هذه الرسالة .

سيئـة ، لا يشعرون نحـو الذين يـدخلون في دينهم بالشعـور الـذي يشعـر بـه المسلمون ، ثم إنهم كانوا يضنون بالأموال في سبيل نشر دينهم يقول : ارنولد : « . . . إن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي ، الذي كان أكثر رقيا ، كما يرجع أيضا إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع والذي كان أكثر تماسكـا وقوة ، أضف إلى ذلـك أن الأساليب التي لجأ إليها رجال الكنيسة الروسية وايدتها الحكومة لتجعل تلك الطبقة التي كان يطلق عليها التتار (المغول) النصارى أكثر تمسكا بالدين ، فقد جعلت العقيدة النصرانية أمراً غير مألوف لديهم »[1] ويقول أرنولد في موضع آخر واصفا سخاء المسلمين في البذل : « . . . وقد نستدل على امتداد حماستهم نحو الذين دخلوا معهم في الإسلام من احدى قرى الشوفاش النصرانية التي يمكن أن نتخذها مثلا في هذا الصدد فقد قضى قسيسها سنوات كثيرة في جمع ثلاثماية رويل Rouoles كانت ضرورية لإصلاح الكنيسة ، وتحولت ثماني اسرات شوفاشية إلى الإسلام ، فجمع المسلمون الفي روبل في خلال بضعة أشهر لبناء مسجد »[2] .

كما قام دعاة الإسلام بطبع عدد من المنشورات سنوياً كانت سبباً في إدخال قرى وثنية بأكملها في الإسلام وإعادة التتار (المغول) الذين تنصروا إلى الإسلام ثانية ، ومن أهم تلك القبائل التي تأثرت بالدعـوة الإسلاميـة قبيلة « الفوتيـاك Votiaks » الذين عمدوا كنصارى ولكنهم أصبحوا مسلمين بعد ذلك وكذلك قبيلة « الشيريمس Cheremiss » .

ومن الوسائل اللطيفة التي لجأت إليها القبائل المغولية . ومنها قبائل القرغيز ـ نشر الإسلام بالأغاني الشعبية التي كانت تحتوي على مبادىء الإسلام ، فكانت هذه

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨٣ بتصرف .

المبادىء تصل إلى القلوب عن طريق تلك الأغاني[١] .

ثانيا : حملهم الدعوة الإسلامية إلى سيبيريا :

تقع سيبيريا شرق أوروبا إلى سواحل المحيط الهادي ، في أقصى الشرق وشمال تركستان والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي ، وأرضها واسعة وهي مناطق سهلية في الأجزاء الغربية ، وأما أجزاوءها الشرقية فمعظمها جبلية وتسيل فيها المياه من الجنوب إلى الشمال ، وتتجمد مياهها في فصل الشتاء لشدة البرودة[٢] .

وقد كان دعاة الإسلام يخرجون من بخارى وسمرقند وغيرهما من مدن آسيا الوسطى الإسلامية زرافات ووحداناً لنشر الإسلام في تلك الأصقاع ، فكانوا يشقون طريقهم إلى هناك بصعوبة متناهية وقد مات عدد كبير منهم في تلك المناطق الشديدة البرودة ، بسبب رداءة الطقس أحيانا ، وبسبب الاضطهاد الذي كانوا يقابلونه هناك أحيانا أخرى ، ولكن ذلك لم يثنهم عن المضي قدماً في سبيل الله ذلك لأنهم كانوا يبغون الشهادة في سبيله تعالى، وهي أقصر طريق إلى الجنة .

ولا بد أن اولئك الدعاة أصابوا بعض النجاح إلا أن جهلنا بتاريخ تلك المناطق جعلنا لا نستطيع أن نقدر تماما مدى النجاح الذي أصابوه هناك .

وقد ضم « كوتشم خان » سنة ٩٧٨ هـ ـ ١٥٧٠ م ـ أحد أمراء القبيلة الذهبية ـ هذه المناطق تحت الحكم الإسلامي بعد أن غزاها ، ويقال إن أبناء تلك الجهات قد استدعوه ليكون خاناً عليهم بعد أن خلا هذا المنصب من وريث يملؤه[٣] .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٤ .

(٢) و (٣) محمود شاكر : المسلمون تحت الحكم الشيوعي ص ٩٨ .

قام هذا الخان بجهود كبيرة في سبيل إدخال رعيته في الدين الإسلامي فكان يطلب من « بخارى » أن ترسل له بالدعاة ليساعدوه في مهمته التي نجحت إلى حد بعيد .

« وقد خلف لنا أحد الدعاة الذين قدموا من « بخارى » أخباراً وصف فيها خروجه مع أحد رفاقه إلى حاضرة « كوتشم خان » على ضفة نهر « ارتش » وهناك مات رفيقه بعد سنتين ، وقفل هو راجعا إلى وطنه لأسباب لم يتعرض هذا الكاتب لذكرها ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى عاد إلى بلاد « كوتشم خان » ثانية لاستئناف عمله وبصحبته رفيق آخر . وذلك حين عاود « كوتشم خان » بخارى بطلبه مددا من الدعاة ، كذلك قدم دعاة من « قازان » إلى « سيبيريا »[١] .

ولكن الزحف الروسي ـ الذي كان يلاحق المغول في بلادهم ويتعقب المسلمين أينما كانوا ـ حال دون أستمرار أنتشار الإسلام بين قبائل تلك المناطق ، ذلك لأن الروس أستطاعوا أن يحتلوا عاصمة المغول في تلك البلاد ـ مدينة « سيبير » سنة ٩٨٨ هـ الموافق ١٥٨٠ م بعد عشر سنوات من قيام « كوتشم خان » بالأمر . وعرفت البلاد التي تقع شرقي جبال أورال كلها باسم سيبيريا تخليداً لذكرى الإستيلاء على تلك المدينة ، ولكن هذا لم يكن كافيا لمنع إنتشار الإسلام ، فقد استمر قدوم الدعاة من مدينة بخاري وبقية مدن بلاد ما وراء النهر وحتى مدينة « قازان » التي كانت في قبضة الروس منذ أكثر من ثلاثين عاماً . واستطاع هؤلاء الدعاة أن ينشروا الإسلام بين قبائل التتار ، (المغول) الضاربة بين نهر « اوبي » ورافده « ارتش »[٢] .

ولا نعرف اليوم عن أحوال المسلمين أو أوضاعهم الإجتماعية في تلك

---

(١) أرنولد : الدعوة ألى الإسلام ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(٢) أنظر محمود شاكر : المسلمون تحت الحكم الشيوعي ص ٩٩ .

المناطق تحت الحكم الروسي الشيوعي وهل استطاع الروس أن يزيلوا أثر الإسلام من سيبيريا وأن يحولوا دون إنتشاره أم أن نوره لا يزال يبدد ظلمة ذلك الليل البهيم ولو كره الكافرون ؟ هذا أملنا في الله عز وجل وهو نعم المولى ونعم النصير .

المبحث الثاني : أثر المغول على الإسلام والمسلمين في الصين والهند

أولاً : أثرهم في الصين :

عرف العرب الصين قبل الإسلام لأنهم اشتغلوا بالتجارة في رحلتين أحدهما صيفية والأخرى شتوية ، وقد ورد اسم الصين في الأثـر « اطلبوا العلم ولـو في الصين »[1] .

ويذكر تاريخ كوانجتنج (Kwigtung) أول من جاء من المسلمين إلى الصين بقوله « في عهد دولة تانج Tang وفد على كَنتن Canton عدد كبير من الغرباء من مملكة أنّام Annam وكمبوديا Cambodia « ومدينا » وبعض بلاد أُخرى وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله وليس لهم في معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة وكانت « مدينا » قرية من مملكة الهند . وفيها قامت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة « بوذا » وكانوا لا يطعمون لحم الخنزير ، ولا يشربون الخمر ، ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم طعاما نجسا . ويطلق عليهم الآن اسم هوى هوى Hui Hui ولما استأذنوا الإمبراطور وحصلوا منه على إذن بالإقامة في كنتن بنوا دوراً جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا ، وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس انتخبوه بأنفسهم[2] .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣١ (يعروه إلى كنز العمال م ٥ ص ٢٠٢ لم اقف على تحريجه .
(٢) نفس المصدر ص ٣٣٢

إلا أنه معروف لـدينا أن التجـار المسلمين هم أول من نقـل الإسلام إلى الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من آسيا ، وقد كانت موانيء الصين ضمن البلاد التي عرفت التجار المسلمين وعرفها المسلمون وتأثرت بهم وأدخلوا الإسلام إليها ، ويثبت هذا إنتشار الجاليات الإسلامية في موانيء الصين .

وقد قامت علاقات ود وتعاون بين بعض أباطرة الصين ، وبعض الخلفاء العباسيين .

وعندما هاجم المغول البلاد الإسلامية هاجرت أعداد كبيرة من المسلمين على اختلاف قومياتهم . واستقروا في الإمبراطورية الصينية وتطوروا إلى جالية كبيرة فقدت مع الزمن جنسها الأول وامتزجت مع السكان الصينيين .

وقد تقلد عدد كبير من المسلمين مناصب كبيرة تحت إمرة حكام المغول ، ساعدت على نشر الإسلام بين السكـان الصينيين ، لأن تلك المراكز اكسبت المسلمين مكانة مرموقة كخبراء مخلصين في الاقتصاد والتجارة وغيرهما ومن بين الذين تقلدوا مراكز ممتازة « عبدالرحمن » الذي اختير سنة ١٢٤٢ م رئيساً على بيت مال الدولة في الصين وخول حق تقدير الضرائب المفروضة على الصين وكذلك « عمر شمس الدين » المشهور بالسيد الأجلّ ، وكان من أهـالي « بخارى » عهـد إليه « قـوبيـلاي خـان » عنـدمـا اعتـلى العـرش سنـة ١٢٥٩ م بـإدارة بيت مـال الإمبراطورية ، ولمانُودي « بقوبيلاي خان » امبراطوراً للصين عُين السيد الأجلّ مديراً سياسياً للبلاد وفي سنة ٦٤٠ هـ (١٢٧٢ م) أرسل إلى ولاية « سيتشوان » حاكماً عاماً عليها ، ثم أصبح حاكماً عاماً على ولاية « يونّان » Yunnan[1] .

وقد قامت ذرية السيد الأجلّ بخدمات جليلة دعمت الإسلام وثبتته في تلك

---

(١) بدر الدين و . ل . جي تاريخ المسلمين في الصين ص ٢٧ .

البلاد ، « فقد حصل حفيده من الإمبراطور سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) على الإعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق الخالص »[١] .

وقد تكاثر عدد المسلمين بعد ذلك في الصين ، وانتشر الإسلام في كثير من مدنها ، وقد ذكر ابن بطوطة ذلك فقال : « وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناها ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون »[٢] .

وقد قدم الأمبراطور هنج وو Hung Wa مؤسس دولة منج Ming الجديدة في الصين للمسلمين امتيازات كثيرة فقام المسلمون ببناء عدد كبير من المساجد في الفترة التي قضتها هذه الدولة في الحكم ٧٧٧ ـ ١٠٥٤ هـ (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤ م) وقد قامت صلات طيبة بين أباطرة هذه الدولة وبين أمراء المسلمين الذين كانوا على حدود الصين الغربية ، وتبادلوا السفراء مع الأمراء التيموريين .

ويعتبر الشاه « رخ بهادر » من بين هؤلاء الأمراء ذا أهمية كبيرة في نشر الدعوة الإسلامية لأنه انتهز فرصة قدوم سفير صيني إلى « سمرقند » سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) وحمّل ذلك السفير رسالتين إحداهما بالعربية[٣] والثانية بالفارسية ،

---

(١) أرنولد · الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣٥

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ص ٧١٨ .

(٣) وهذا نصها نقلا عن كتاب أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣٧ :

« بسم الله الرحمن الرحيم » لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قال رسول الله محمد عليه السلام . لا يزال من أُمتي أُمة قائمة بأمر الله ، لايُبصر من خذلهم ولا يطاع من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ، قال كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف ، فخلقت الخلق لأُعرف ، فعلم إن حكمته جلت قدرته ، وعلت كلمته ، من خلق نوع الإنسان ، إيثار العرفان واعلاء اعلام الهدى وارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، ليعلم الشرائع والأحكام ، وسنن الحلال والحرام وأعطاه القرآن المجيد معجزة ليفحم به المنكرين ، ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام ، وأبقى بعنايته الكاملة وهدايته الشاملة ، آثاره

يدعوه فيهما بصراحة إلى اعتناق الإسلام وترك عبادة الأوثان[1] .

إلى يوم القيامة ، وصب بقدرته في كل زمان وفرصة وأوان ، في أقطار العالمين من الشرق والغرب والصين ، ذا قدرة وامكان وصاحب جود مجندة وسلطان ، ليروج أسواق العدل والإحسان ويبسط على رؤوس الخلائق أجنحة الأمن والأمان ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر والطغيان ، ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء وأراح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في الملة الزهراء ، فوفقنا الله تعالى سوابق لطفه ، ولواحق فضله أن نسعى في إقامة قوانين الشريعة الطاهرة وإدامة قواعد الطريقة الزاهرة ، وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا ، في الوقائع والقضايا ، بالشريعة السوية والأحكام المصطفوية ، ونبني في كل ناحية ، المساجد والمدارس ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد ، كي لا يندرس أعلام العلوم ومعالمها ، وينطمس آثار الشريعة ومراسمها ولأن بقايا الدنيا الدنية ، وسلطتها ، واستدامة آثار الحكومة وايالتها بإعانة الحق والصواب ، وإماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض ، لتوقع الخير والثواب فالمرجو والمأمول من ذلك الجناب وأركان دولته أن يوافقونا في الأمور المذكورة ويشاركونا في تشييد قواعد الشريعة المعمورة » .

(١) نص الرسالة الفارسية نقلا عن كتاب أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

« لما خلق الله الأعظم بحكمته البالغة وقدرته الكاملة آدم (عليه السلام) جعل بعض أبنائه أنبياء ورسلا وأرسلهم إلى الخلق يدعوهم إلى الحق ، وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء كإبراهيم وموسى وداود ومحمد (عليهم السلام) كتابا وعلمهم شريعة وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه ، ودعا هؤلاء الرسل جميعا الناس إلى دين التوحيد وعبادة الله ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم والملوك والأصنام ومع أن كلا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة ، فإنهم كانوا جميعا متفقين على توحيد الله الأعظم ولما صار أمر الرسالة والنبوة إلى محمد المصطفى (ﷺ) نسخت كل الشرائع الأخرى وهو نبي آخر الزمان ورسوله وواجب على العالم بأسره ـ أمراء وسلاطين ووزراء وأغنياء وفقراء وصغارا وكبارا ـ أن يعملوا بشريعته وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة ، هذه العقيدة الصادقة الصحيحة تسمى الإسلام ، ومنذ سنوات خلت تهيأ « جنكيز خان » للقتال وأرسل أبناءه إلى بلاد وممالك مختلفة ـ فأرسل جوجي خان إلى حدود سراى وقرم ، ودشت قفجاق ، حيث أسلم بعض الشاهات ، من أمثال أوزبك وجاني خان وأرس خان وعملوا بشريعة محمد (عليه السلام) وأصبحوا بذلك مسلمين ، وانتقلوا إلى الدار الآخرة سعداء بشرف الإسلام ، ومن هؤلاء الملك الصادق غازان ، والجايتو سلطان والشاه سعيد الحظ أبو سعيد بهادر ـ وغيرهم بعدهم حتى ولي العرش والدي المكرم أمير تيمور كوركان وقد عمل والدي كذلك بشريعة محمد (عليه السلام) في كل البلاد التي حكمها ، ونعم المسلمون طوال عهده برخاء شامل . والآن وقد انتقلت إلى يدي ، بلطف الله وفضله ، ممالك خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها وغيرها ، فإن حكم البلاد في كافة أرجاء المملكة بموجب الشريعة المطهرة النبوية ، أمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

وقد نشأت عن ذلك قصة تقول بأن أحد أباطرة الصين قد تحول إلى الإسلام[1] .

ثانياً : أثر المغول على الدعوة الإسلامية في الهند :

تشرفت الهند بنور الإسلام في القرن الأول الهجري ولكن المسلمين لم يتوغلوا فيها بل انحصر نفوذهم في مقاطعة السند ، وما جاورها ولم يتوغل المسلمون في شبه القارة الهندية إلا في عهد السلطان « محمود الغزنوي » (٣٨٨ ـ ٤٢١ هـ) وخلفائه ، ولكن هؤلاء وجنودهم لم يكونوا قد تربوا على الإسلام بعناية تجعلهم أهلا لحمل الدعوة ، فلا عجب إذا انحرف هؤلاء عن الطريق الإسلامي في الجهاد وعن العمل بقوانين الإسلام الحربية .

ثم جاء المغول ـ الذين كانوا في بداية أمرهم كفارا كما هو معروف ـ وعندما أسلموا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري كان كثير منهم لا يفرقون في حروبهم بين المسلمين والوثنيين فكانوا يفتكون بهم جميعا .

وقد تعرضت سواحل الهند لهجرة أصحاب العقائد الباطلة المنحرفة من المبتدعين والمارقين الذين هربوا من ديار المسلمين لأنهم وجدوا مقاومة عنيفة للباطل الذي كانوا يحاولون نشره في البلاد الإسلامية ، كالطائفة الإسماعيلية وفرقها المنحرفة .

وزالت قواعد جنكيز خان ومنذ ذلك الحين صار يقينا ومحققا أن الخلاص والنجاة في يوم القيامة والسلطان والدولة في الدنيا ، سببها إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالى ومس الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وانصاف ، وإني لأرجو بفضل الله تعالى وكرمه أن تعملوا أنتم أيضا بشريعة محمد رسول الله (عليه السلام) وأن تقووا الإسلام فتنالوا بدلا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة » .

أرنولد الدعوة إلى الإسلام ص ٣٣٩

وبهذا نشأت بين الذين اعتنقوا الإسلام في الهند أفكار غريبة وشوائب كثيرة أبعدتهم عن حقيقة الإسلام وأصبح الإسلام ـ حتى بُعيد إسلام المغول ـ مشوها « وجملة القول أن دين الإسلام لم يؤثر في أديان البراهمة كما تأثر هو نفسه بعقائدهم وشعائرهم الدينية »[1] .

وقد دخل الهند حكام مسلمون عظام قاموا بأعمال جليلة وفتوحات واسعة وشيدوا الحصون القوية ، والمباني الشاهقة ، وفتحوا الشوارع الفسيحة واوجدوا التنظيمات القوية ، إلا أنهم لم يقدموا للإسلام أو الدعوة الإسلامية خدمات تذكر لأن جل همهم كان تثبيت ملكهم الدنيوي ، يستثنى من هؤلاء الملك « محمد تغلق » ، « وفيروز تغلق » « والملك أورنك زيب » .

فقد قام « محمد تغلق » ٧٢٥ ـ ٧٥١ هـ (١٣٢٤ ـ ١٣٥٠ م) بإحياء شعائر الإسلام والقضاء على البدع التي تسربت للمجتمع الإسلامي ، عاقب تاركي الصلاة ورفع المظالم وانصف المظلومين ، قال عنه ابن بطوطة : « . . . . وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا وأكثرهم إظهاراً للحق والعدل ، وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها »[2] .

ثم ولي الملك بعده « فيروز تغلق » ٧٥٢ ـ ٧٨٩ هـ (١٣٥١ ـ ١٣٨٧ م) وقد كان عادلاً تقياً ورعاً أرسى دعائم الإسلام في مملكته وحارب الزنادقة ودعاة الفاحشة والروافض وبدعهم ، ومنع بناية معابد الكفار ، ومنع النساء من زيارة القبور وبنى المساجد والمستشفيات وأعاد للإسلام احترامه في النفوس وللشريعة مكانتها وهيبتها .

---

(١) مسعود الندوي : تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند ص ١٢ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٥١١ .

إلا أن الهند ابتليت مرة أُخرى بحكام حاولوا تثبيت ملكهم على حساب الإسلام فأصدروا من التشريعات ما قوض دعائم الإسلام وقضى على أكثر أُسسه وبعض فرائضه وكان السلطان « جلال الدين اكبر » من أكثر السلاطين خروجا على الإسلام حتى لقد الغى الجزية عن الكفار ، وأباح الرده ومنع ذبح البقر ، وأباح البغاء وزواج المتعة ، ومنع الزواج من بنات العم والعمة والخال والخالة ، ومنع الختان وشجع السفور ثم الف أخيرا دينا جديدا اسماه « الدين الإلهي »[1] .

وقد أدت هذه الإنحرافات إلى أبعاد الناس عن الإسلام الصحيح ، وظهور كثير من البدع والخرافات إلى أن جاء المصلح الكبير والملك العابد الزاهد أبو المظفر أورنك زيب « عالمكير » .

الملك أبو المظفر أورنك زيب ((عالمكير)) (١٠٦٨ ـ ١١١٨ هـ ، ١٦٥٦ ـ ١٧٠٦ م) :

هو ابن شاه جهان بن جهان كير بن أكبر بن همايون بن محمد بار ، وهؤلاء هم سلاطين الدولة المغولية الذين حكموا الهند ، وكان « أورنك زيب » جندياً شجاعاً وفارساً مقداماً إلى جانب ورعه وتقواه ، فقد مسح الآثار التي خلفتها العقيدة « الأكبرية » فكان أول ملك ـ بعد آل تغلق يستمسك بالعروة الوثقى ، وعاش عيشة الزهاد الفقراء ، يقوم الليل ويصوم النهار ، وهو الذي أعاد للدين المبين في عصره نضرته وشبابه ، والغى القوانين المناقضة للشرع وأكرم العلم والعلماء ، وقضى على البدع والمنكرات وكان إلى جانب ذلك من كبار ملوك الهند قديماً وحديثاً[2] ، فقد منع الاحتفالات التي تتعارض مع الإسلام ومنع المغنيين

(١) لتفصيل اكثر راجع تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) مسعود الندوى : تاريخ الدعوة الإسلامية في الهد ص ١٢١ .

والمغنيات والراقصات من الحضور إلى باب الملك ، وعزل المنجمين وأبطل عادات ملوك المغول مثل الإشراف على الرعية من القصور والحصون كل صباح لتتمتع الرعية برؤيتهم ، ومنع الخمر الذي كان قد أباحه بعض أجداده ،ومنع الزنى وشدد في ذلك ، وحارب الربا وقضى على الدين الذي ألفه جده « جلال الدين أكبر » وسماه « الدين الإلهي » جهلا وافتراء .

هذا وقد عرف عن « أورنك زيب » إلى جانب مقدرته الحربية اشتغاله بالعلم وبأمره وإشرافه الفت بالهند موسوعة مهمة في الفقه الحنفي تعرف باسم « الفتاوي الهندية أو العالمكيرية »[1] .

وقد بلغ من تقوى هذا السلطان وزهده أنه حين حضرته الوفاة أوصى بأن يدفن في أقرب مقابر للمسلمين ، وألا يعدو ثمن كفنه خمس روبيات كان قد كسبها من نسخه للقرآن الكريم ، وصنعه للطواقي ضمن ثلاثمائة روبية أمر رجاله أن يتصدقوا بها على الفقراء كذلك[2] .

وكان هذا الملك يغدق الأموال على الذين يعتنقون الإسلام ويمنع نفسه من التمتع بها وقد قدم للإسلام والدعوة الإسلامية خدمات عظيمة فكان من أفضل ملوك الهند خدمة للإسلام رحمه الله وأجزل مثوبته ، ونضر وجوه العاملين لدعوته ودينه في كل مكان وزمان .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وآخر دعواهم إن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) د . أحمد الساداتي : تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ص ٩٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٣ .

الخاتمة

وبهذا نصل إلى نهاية هذا البحث الذي تحدثنا فيه عن أصل « المغول » ونشأتهم ، والأماكن التي عاشوا فيها ، وتأثير تلك البيئة على مسلكهم وحياتهم ثم عن ظهور « جنكيز خان » وتوحيده لتلك القبائل .

ثم تناولت بالبحث أحوال العالم الإسلامي ، والإنحرافات السياسية والطائفية والخلقية ، وانتشار الموبقات بين المسلمين ـ وخاصة في الطبقات الحاكمة ـ وبتخطيط أعداء المسلمين وتشجيعهم ، وغفلة المسلمين أو تغافلهم ثم إقبال المسلمين على الترف ، وإشباع غريزتي البطن والفرج ، مما جعل المسلمين يستحقون عقاب الله تعالى الذي لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

ثم تحدثت عن إحتلال المغول لأجزاء كبيرة من العالم الإسلامي وما قاموا به من طمس للحضارة ، وقتل للناس ، وهتك للأعراض ، مما تقشعر منه الأبدان .

وتحدثت عن عودة المسلمين إلى الإسلام بظهور بعض الولاة المخلصين ثم انتصار المسلمين في موقعة « عين جالوت » .

وتكلمت عن الدعوة الإسلامية والمشاكل التي يواجهها الدعاة ، وما تميز به الإسلام ، والوسائل والأساليب التي تجعل الناس يدخلون في هذا الدين ذلك لأنه يناسب الفطرة البشرية ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ .

ثم تكلمت عن انطلاق دعاة الإسلام يدعون المغول للدخول في الإسلام غير مبالين بالصعاب التي تواجههم ، ثم هداية هؤلاء الأقوام الجفاة الغلاظ وتبين لنا كيف أحالهم الإسلام إلى أمة كريمة طيبة رحيمة في ذاتها ، وتحمل إلى الناس رسالة الهدى والخير والرحمة ، بدل التدمير والهلاك الذي كان سمتهم المميزة في جاهليتهم وصدق الله ﴿ . . . . **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم** ﴾[1] .

نتائج البحث :

وبعد هذا العرض التاريخي ، وما تبعه من بحث في شئون الدعوة والدعاة نستطيع إستخلاص كثير من النتائج منها :-

(١) إن الإسلام لا يُقضى عليه بتخطيط البشر ، أو برغبتهم أو بقوتهم فكم من قوي ماكر صارع الإسلام فَصُرِعَ ، وبقي الإسلام شامخا قوياً عزيزاً شاهدا على وفاء الله بعهده ﴿ **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** ﴾[2] ﴿ **ومن اوفى بعهده من الله** ﴾[3] .

(٢) إنَّ الإسلام ينتشر بإرادة الله ، ويملك قوة ذاتية ، أودعها فيه علام الغيوب ، ثم بنشاط المخلصين من الدعاة مهما كانت قوتهم أو ضعفهم .

(٣) إن الإسلام لم ينتشر أَبدا بالقوة ، ولم يرغم المسلمون أحداً على الإسلام ولا يقبل الإسلام ذلك بل يحرص على إبعاد المؤثرات الضاغطة على الأفراد ،

---

(١) سورة المائدة اية ١٥ و ١٦ .

(٢) سورة الحجر آية ٩ .

(٣) سورة التوبة آية ١١١ .

المانعة لحريتهم ، حتى يكونوا أحراراً يقبلون ما تهديهم إليه فطرتهم وعقولهم ﴿ لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾[1] .

(٤) إنَّ سر إنتصار المسلمين يكمن في طاعتهم لله وبعدهم عن عصيانه فإذا عصى المسلمون الله ، وغاصوا في الموبقات ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً تاركين سبيل الله ، متبعين طرق الشياطين فإن الله يسلط عليهم من لا يرحمهم ، فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله .

(٥) إن تاريخ المسلمين مملوء بالعبر التي تجعل المسلمين يسارعون إلى العودة إلى الله إذا أرادوا النصر والفلاح في الدنيا والآخرة .

(٦) إن ضغوط أعداء الإسلام على المسلمين لإخراجهم عن دينهم ـ وهم يحاولون ذلك دائماً ومنذ نشأة الدعوة ـ تذهب أدراج الرياح إذا أخلص المسلمون النية لله رب العالمين .

الإقتراحـــات :

وإني بهذه المناسبة أقترح على الجامعات الإسلامية خاصة والمؤسسات العلمية عامة ما يأتي :ـ

(١) إعادة دراسة وتدوين التاريخ الإسلامي بما يتفق ووجهة النظر الإسلامية ، بحيث يؤخذ منه العبر ، ولا يبقى أحداثاً مسرودة عرضة لزيادة أو حذف من أعداء الإسلام .

(٢) أن تفرز وتميز الكتب التي وضعت لتشويه تاريخ المسلمين لتحذير المسلمين

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ ;

منها ، وقطع خطرها الفكري والثقافي .

(٣) تكوين لجان لترجمة المراجع الإسلامية الأصلية إلى اللغة العربية حتى يستفيد منها الباحثون .

(٤) تتبع تاريخ الأمم ـ غير العربية ـ وكتابة نشاطاتهم لخدمة الدعوة الإسلامية عن طريق مؤسسات وجماعات علمية ذات إمكانات واسعة لأن المجهودات الفردية على عظمتها لا تكفي لتسجيل هذا التاريخ العظيم .

(٥) محاولة كتابة تاريخ المسلمين في سيبيريا وجنوب الإتحاد السوفيتي وأوروبا لمعرفة نشاطهم ومحاولة تشجيعهم بكل الوسائل لدعم نشاطهم الإسلامي هناك ، حتى يكون حاضرهم إمتداداً لماضيهم الإسلامي المجيد إن شاء الله تعالى .

والله تعالى نسأل أن يوفق المسلمين ودعاتهم وزعماءهم إلى طريق الحق والخير والرشاد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجع والمصادر

أ ـ المراجع والمصادر العربية :

الكتـــاب	المؤلف	الناشر
ـ القرآن الكريم		
ـ آيات الجهاد في القرآن الكريم	للدكتور كامل الدقس	دار البيان ـ الكويت ١٩٧٢ م
ـ إحياء علوم الدين	للآمام ـ أبي حامد الغزالي	المكتبة التجارية بمصر
ـ الإسلام وحاجة الانسان اليه	للدكتور محمد يوسف موسى	مكتبة الفلاح ـ الكويت ١٩٧٨ م
أصول الدعوة	للدكتور عبدالكريم زيدان	مكتبة المنار الإسلامية ١٩٨١ م
ـ الانسان في ظل الاديان	للدكتور عمارة نجيب	المكتبة التوفيقية ١٩٧٧م
ـ البداية والنهاية	لابن كثير	مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٧٧ م
ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني	للدكتور شوقي ضيف	دار المعارف بمصر ١٩٧٢ م
ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي	للدكتور حسن ابراهيم حسن	الطبعة الاولى ١٩٦٧م
ـ تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند	مسعود الندوي	دار العربية ١٩٤٧ م
ـ تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضـــارتها	الدكتور احمد محمود الساداتي	طبعة معهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة ١٩٧٦م

الكتاب	المؤلف	الناشر
ـ تاريخ مختصر الدول	لابن العبري	المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٨ م
ـ تاريخ المسلمين في الصين	للسيد بدر الدين و.ل جي	دار الإنشاء ـ لبنان ١٩٧٤ م
ـ تاريخ العراق بين احتلالين	للدكتور عاس الغزاوي	مطبعة بغداد ١٩٣٥م
ـ تفسير ابن كثير	اس كثير	عيسى البابي الحلبي
ـ تفسير البيضاوي	البيضاوي	الطبعة التانية ١٩٦٨م
ـ تفسير الكشاف	الزمخشري الخوارزمي	دار الفكر ـ بيـــروت
ـ تهذيب سيرة ابن هشام	لعبدالسلام محمد هارون	دار البحوث العلمية الكويت ـ ١٩٧٧ م
ـ الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية	للدكتور محمد صالح القزاز	مطبعة القضاء في النجف ـ ١٩٧٠ م
ـ جغرافية اليعقوبي		جامعة بغداد ١٩٦٨م
ـ خصائص التصور الاسلامي	للشهيد سيد قطب	١٩٦٨ م دار الشروق
ـ الخـــطط	المقريـــزي	طبعة بولاق ١٣٧٠هـ
ـ دائرة المعارف الإسلامية	نقلها الى العربية · ابراهيم زكي خورشيد وآخرون	١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م
ـ درس النكبة الثانية	للدكتور يوسف القرضاوي	١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م
ـ الدعوة الاسلامية اصولها ووسائلها	للدكتور أحمد أحمد غلوش	دار الكتاب المصري القاهـــرة
ـ الدعوة الاسلامية دعوة عالمية	للدكتور محمد الراوي	دار الطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت
ـ دول الاسلام		دائرة المعارف العثمانية حيدر اباد ١٣٦٤ هـ
ـ الديارات	لابن الحسن علي بن محمد	مكتبة المثنى ١٩٦٦ م
ـ الدين	للدكتور محمد عبدالله دراز	مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

ـ ديوان ابن الرومي	تحقيق الدكتور حسين نصار	مطبعة دار الكتب ١٩٧٤ م
ـ ديوان حافظ ابراهيم	ضبطه وصححه وشرحه ورتبه احمد امين/ احمد الزين/ ابراهيم الابياري	محمد امين دمج بيروت ـ ١٩٦٩ م
ـ رحلة ابن بطوطة		مؤسسة الرسالة
ـ رسائل الامام حسن البنا	للامام الشهيد حسن البنا	دار الكتاب العربي بمصر
ـ رسائل الجاحظ	تحقيق عبدالسلام هارون	مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩ م
ـ رياض الصالحين	تحقيق رضوان محمد رضوان	دار الكتاب العربي بيروت ـ ١٩٧٣ م
ـ زاد المعاد	لابن القيم حققه شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط	مكتبة المنار الاسلامية ١٩٨١ م
ـ سيرة جلال الدين منكبرتي	تحقيق حافظ احمد حمدي	دار الفكر العربي القاهرة ـ ١٩٥٣ م
ـ سيرة النبي	لابن هشام	دار الفكر ـ ١٩٣٧م
ـ الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي	لحافظ حمدي	دار الفكر العربي القاهرة ـ ١٩٥٠ م
ـ صبح الاعشى	القلقشندي	المؤسسة العامة المصرية ١٩٦٣ م
ـ صحيح البخاري	البخاري	دار الفكر ـ بيروت ١٩٨١ م
ـ صحيح مسلم	مسلم القشيري بشرح النووي	دار الفكر ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الثانية ١٩٧٢ م
ـ الطبقات الكبرى	لابن سعد	دار صادر بيروت ١٩٥٨ م

- الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصـــره	تأليف محمد جمال الدين ســـرور	دار الكتب المصرية ١٩٣٨ م
- ظهر الاسلام	لاحمد امين	مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة
- عقيدة المســلم	للشيخ محمد الغزالي	دار القلم دمشق ١٩٧٩ م
- العلاقات السياسية بين المماليك والمغـــول	للدكتور فايد حماد عاشور	دار المعارف بمصر
- الفخري في الآداب السلطانية	اس الطقطقا	دار بيروت - بيروت ١٨٩٠ م
- فتح الباري بشرى البخاري	ابن حجر العسقلاني	مصطفى البابي الحلبي بمصـــر ١٩٥٩ م
- في ظلال القــرآن	للشهيد سيد قطب	دار التروق - بيروت ١٩٧٧ م
- الكامل في التاريخ	ابن الاثيـــر	دار بيروت - نيروت ١٩٦٥ م
- كتاب البلدان	اليعقــوبي	المطبعة الحيدرية النجف
- كتاب السلوك لمعرفة دول المـلوك	لتقي الدين احمد المقريزي	دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخـــبر	لعبدالرحمن بن خلدون	مؤسسة جمال - بيروت ١٩٧٩ م
- مختصر صحيح مسلم	للحافظ المنذري تحقيق الالباني	وزارة الاوقاف - الكويت
- المختصر أخبار البشر	اسماعيل ابي الفدا	دار المعرفة - بيروت
- مذكرات الدعوة والداعية	الشهيد حسن البنا	الطبعة الثانية ١٩٦٦ م
- مروج الذهب	للمسعــودي	الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٦٦ م
- المسلمون تحت السيطرة الشيوعية	للاستاذ محمود شاكر	مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٥ م

الكتاب	المؤلف	الناشر
ـ المسلمون في تركستان الصينية « الشرقيــة »	للاستاذ محمود شاكر	مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٣ م
ـ معجم البـلدان	ياقوت بن عبدالله الحموي تصحيح محمد أمين الخانجي	القــاهرة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م
ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكــريم	محمد فؤاد عبدالباقي	دار الفــكر ـ بيروت ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م
ـ المعــجم الوسيط	مجمع اللغة العربية	دار احياء التراث بيــروت
ـ المغــول	للدكتور السيد الباز العريني	دار النهضة العربية بيروت ـ ١٩٦٧ م
ـ مغول ايران بين المسيحية والاسلام	للدكتــور طه بدر	دار الفكر العربي
ـ المغول في التاريخ	للدكتور فؤاد الصياد	مكتبة الشريف وسعيد رأفت ـ ١٩٧٤ م
ـ مفاتيح الغيب	الرازي ابو عبدالله	المطبعة الحارة الشرقية القاهرة ـ ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م
ـ المفردات في غريب القرآن	الراغب الاصفهاني	دار المعرفة ـ لبنان
ـ مقدمة ابن خلدون	لعبدالرحمن بن خلدون	الطبعة الرابعة ١٩٧٨م
ـ مناهل العرفان في علوم القرآن	الـزرقــاني	دار احياء التراث بيــروت
ـ النجوم الزاهرة	لجمال الدين الاتابكي	دارالكتب المصرية القاهرة ـ ١٩٢٩ م
ـ النظم الاســلامية	الدكتور صبحي الصالح	دار العلم للملايين بيــروت
ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي	للدكتور محما ماهر حماده	مؤسسة الرسالة ١٩٧٧م

ب ـ المراجع والمصادر الأجنبية :

الكتاب	المؤلف / المترجم	الناشر
ـ أطلس التاريخ الإسلامي	رسم هاري هازار وسملي كوك ترجمة ابراهيم زكي خورشيد ومحمد مصطفى زياده	مكتبة النهضة المصرية
ـ أطلس العالم للعصور التاريخية	جيوفري براكلو	طبع في بريطانيا
THW TIMES ATLAS OF WORLD HISTORY : GEOFFREY BARRADOUGH.		
ـ البعثة التبشيرية إلى المغول	كرستوفر داوسن	نيويورك ١٩٥٥ م
THE MONGOL MISSION EDITED BY CHRISTOPHER DAWSON.		
ـ تاريخ بخاري	ارمينوس فامبري ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتي والدكتور يحيى الخشاب	المؤسسة المصرية العامة القاهرة ١٩٦٥ م
ـ تاريخ جهانكشاي[1]	الجويني	
ـ جامع التواريخ	رشيد الدين الهمذاني	وزارة الإرشاد القومي القاهرة
ـ الحروب الصليبية THE CRUSADES BY STEVEN RUNCIMAN.	ستيفن رونسيمان ترجمة : الدكتور السيد الباز العريني .	دار الثقافة بيروت
ـ الدعوة إلى الإسلام THE PREACHING OF ISLAM BY SRI THOMAS W. ARNOLD	سير توماس و . ارنولد ترجمة : الدكتور حسن ابراهيم حسن واخرون	مكتبة النهضة العربية ١٩٧٠
ـ طبقات ناصري	للجوزجاني (٢)	

(١) استفدت ممن نقلوا عن هذا الكتاب بالعربية ، وقد رجعت إلى أصله الفارسي في مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض .

(٢) استفدت ممن نقلوا عن هذا الكتاب بالعربية وقد رجعت إلى اصله الفارسي كما بينت ذلك في ص ٢٠١ من هذه الرسالة .

الفهرس